
ربيع
جديد
خريطة انتفاضات شمال أفريقيا وغرب آسيا
(2018 - 2020)
تحرير: جاد صعب
ترجمة: مروة الشريف & غسان بن خليفة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

ربيع جديد

خريطة انتفاضات شمال أفريقيا وغرب آسيا

(2020-2018)

المترجمان/
• **مروة بن عمر الشريف:** مُدرِّسة لغة عربية لغير الناطقين بها ومترجمة من تونس.
• **غسان بن خليفة:** صحفي يساري تونسي ومترجم.

....

ربيع جديد
طبعة 2021
رقم الإيـــــداع: 8288 /2021
الترقيم الدولي: 978-977-821-197-9

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

The publication of this book was made possible with the help and support of The Transnational Institute (TNI).





دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

ربيع جديد

خريطة انتفاضات شمال أفريقيا وغرب آسيا

(2020-2018)

ترجمة:

مروة الشريف & غسان بن خليفة

تحرير:

جاد صعب



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

ربيع جديد: خريطة انتفاضات شمال أفريقيا وغرب آسيا/تحرير: جاد صعب ، ترجمة : مروة الشريف ، غسان بن خليفة

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، 2021

212، 24سم

تدمك 978-977-821-197-9

1- العالم، الأحوال السياسية

2- العالم العربي، الأحوال السياسية

أ- صعب، جاد (محرر)

ب- الشريف، مروة (مترجم)

ج- ابن خليفة، غسان (مترجم مشارك)

320.909

رقم الإيداع: 2021/8288

المحتويات

المقدمة

منذ 2019، شهدت بلدان مختلفة في "الشرق الأوسط" (غرب آسيا وشمال إفريقيا) انتفاضات سعت إلى إزاحة الطبقات الحاكمة بكل منها. أطلق البعض على هذه السلسلة من الانتفاضات تسمية "الربيع العربي الثاني"، في إشارة إلى سلسلة الانتفاضات التي اندلعت قبل ثماني سنوات وانتشرت في تونس، مصر، ليبيا، سوريا، واليمن. وإلى جانب تلك الانتفاضات، وقعت كذلك حركات احتجاجية في البحرين، المملكة العربية السعودية، المغرب، والأردن. عندما بدأ "الربيع العربي" وقع تقديمه للعالم من خلال العدسات الاستشراقية. تم النظر إلى هذا الحدث، الذي استقطب تغطية إعلامية عالمية، على أنه انبعاث للعالم العربي المتخلف.

أخيرًا إذًا وصلت الديمقراطية إلى المنطقة. كادت مشاهد الشوارع المكتظة بالحشود التائقة إلى إسقاط المُستبدين تغطي على حقيقة أن هؤلاء الطغاة كانوا مفضلين ومحافظًا عليهم من قِبَلِ الحكومات الغربية كشركاء مناسبين في الاستغلال الرأسمالي، والنهب والسيطرة الإمبريالية على شعوبهم. أكثر من ذلك، قدَّمت الانتفاضات فرصة للدفع أيضًا بسردية استشراقية مفادها أن غزو العراق في 2003 قد أعطى ثماره في نهاية المطاف.

أتاح تبرير الغزو ارتجاعيًّا التذرع بأن كل ما كانت تحتاجه الديمقراطية بالمنطقة هو دفعة في شكل احتلالٍ غير قانوني ومقتل مليون مدني. موَّه ذلك على الظروف المتشعبة التي أفضت للانتفاضات في تلك البلدان، كما غذى سردية رجعية إقليمية مفادها أن هذه الانتفاضات لا تعدو أن تكون مؤامرات أجنبية (اقرأ غربية) تهدف إلى زعزعة المنطقة. تعززت كلتا السرديتين بالتدخلات العسكرية في ليبيا، وسوريا، واليمن. بررت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها هذه التدخلات بالوقوف إلى جانب الديمقراطية، بينما اتخذها الرجعيون الإقليميون دليلاً على أن "الغرب" يسعى للإطاحة بأنظمتهم الشرعية المعادية للإمبريالية. بالنتيجة، انتهت البلدان التي شهدت

تدخلات عسكرية إلى الحروب الأهلية. تم كذلك تخريب الثورة المصرية من خلال "الدولة العميقة"، وما زالت تونس المثال الناجح نسبيًّا، تواجه صراعات اقتصادية رهيبة.

بسرعةٍ تحول الأمل الذي أزهر مع "الربيع العربي" إلى انهزامية، وإلى ذريعة ملائمة لبقية الطبقات الحاكمة في المنطقة للتشكيك بأي هبَّةٍ شعبية. حالما بدأت الحناجر تصدح بهتاف "الشعب يريد إسقاط النظام" في شوارع لبنان، العراق، البحرين، وغيرها، كانت الطبقات الحاكمة مستعدة بالرد: "هل تريدون أن نصير إلى سوريا أخرى؟". ازداد تبرير الحُكم غير الديمقراطي، وسعدت الدول الغربية باستقرار الطغاة الذين اعتادت على التعامل معهم.

قللت التغطية المثيرة لـ "الربيع العربي" في 2011 كذلك من دور النضالات الوطنية السابقة والتواريخ المركبة التي نجمت عنها. وقع التعاطي مع الانتفاضات وقتئذ، كما هو الحال الآن، كأحداث عفوية لا تاريخية مرتكزة على نظريات الحرمان و"طنجرة الضغط" التي تجاوزها الزمن. ليس ذلك بمفاجئ عندما نرى أن نشرات الأخبار لا تتناول أوضاع المنطقة إلا بمفردات توازنات القوى الدولية وأجندات التدخل الخارجي، مهملة دراسة الفاعلين الداخليين المنخرطين بأحداثها.

تمثل هذه التشكيلة من المقالات محاولة للتصدي لتلك النظرة الاختزالية والمتجاهلة. إذ تسبر نصوص هذا الكتاب أغوار الانتفاضات الأحدث بالمنطقة: السودان، الجزائر، العراق، لبنان، وإيران. من خلال مقاربة ثنائية تاريخية من جهة، وتحليلية للحراكات بذاتها من جهة ثانية، تسعى هذه المقالات إلى إبراز المجموعات الأساسية التي قادت التحركات، أهدافها، نقائصها الكامنة، وممكناتها.

كتب أغلب مقالات هذه التشكيلة من قبل أعضاء تحالف اشتراكيي الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. انطلق هذا التحالف في مارس (آذار) 2016 باشتراكيين من سوريا وإيران من خلال موقع إلكتروني بثلاث لغات (إنجليزية/ عربية/ فارسية) من أجل المساهمة في التعبير عن تطلعات "الشرق الأوسط الآخر"، ولتوفير تحاليل حول القضايا الحساسة وحوارات جديدة ولمد جسور التضامن بين السوريين والإيرانيين

المعارضِيـن لنظاميهمـا المتسـلطين. ومنـذ ذلـك الحيـن، نمـا التحالـف؛ ليضـم أعضـاءً جـدد مـن كل البلـدان التـي شـملها هـذا الكتـاب وأكثـر، مـع اسـتمراره بمهمتـه فـي تقديـم وتبليـغ وجهـات النظـر الاشـتراكية الصـادرة مـن المنطقـة.

ليـس القصـد مـن هـذه التشـكيلة تقديـم دراسـة مقارنـة، رغـم أنـه مـن المفيـد ملاحظـة أن معظـم بلـدان المنطقـة تحتـل موقعًـا متشـابهًا فـي النظـام الرأسـمالي العالمـي. بنـاءً عليـه، يجـب النظـر إلـى هـذه الانتفاضـات كنتيجـة لأزمـات ناجمـة عـن الإخفاقـات السياسـية والاقتصاديـة بالمنطقـة، للقمـع السياسـي، الأبويـة، الشـوفينية والطائفيـة التـي تترافـق مـع تعزيـز النظـام الرأسـمالي.

لهـذا السـبب تجـاوزت مطالـب مختلـف الانتفاضـات سـقف تغييـر القيـادة السياسـية. إذ تشـاركت جميعهـا تصـورًا قائمًـا علـى الحاجـة إلـى إعـادة هيكلـة المجتمعـات بشـكل جوهـري. اشـتمل ذلـك علـى مطالـب بإعـادة توزيـع الثـروة، إلـى جانـب المنـاداة بتغييـرات جذريـة فـي العلاقـات الاجتماعيـة. نجـم عـن تلـك النضـالات أوضـاع ثوريـة فـي كافـة هـذه البلـدان، علـى الرغـم مـن أنـه مـا زال مـن غيـر الواضـح مـا إذا كانـت سـتقود إلـى نتائـج ثوريـة، خاصـة وأن بعـض هـذه الانتفاضـات لـم تبلـغ بعـد خواتمهـا.

أفضـت الوضعيـات الهشـة لتلـك الحِـراكات الجماهيريـة إلـى جـدال صحـي حـول سـؤال: هـل يجـدر وصفهـا بالانتفاضـات أم بالثـورات؟ يقـدم كل مقـال بهـذا الكتـاب الحالـة الخاصـة ببلـده، ويشـرح أي وصـف يفضـل لمـا يجـري فيـه، ولمـاذا. اتسـمت كل هـذه الحِـراكات بمطالـب سـلبية – لفـظ مختلـف العصابـات الأوليغارشـية والديكتاتوريـات العسـكرية التـي تحكـم دول المنطقـة – وليـس ببرنامـج سياسـي إيجابـي محـدد. هـذا التكتيـك لـم يكـن مقصـودًا تمامًـا. اذ تشـترك أغلـب هـذه البلـدان فـي واقـع أن قـوى المقاومـة بهـا قـد سـحقت سـلفًا. وعليـه، فقـد افتقـدت هـذه الحِـراكات الشـعبية للحركـة العماليـة القويـة أو الأحـزاب السياسـية المعارضـة التـي تؤطـر عـادةً مختلـف التحـركات وتوحـد مطالبهـا. يجـدر النظـر إلـى هيـاكل المقاومـة التـي تقدمهـا هـذه الحِـراكات كبقايـا لهيـاكل سـابقة، أو كأخـرى جديـدة لـم تتطـور بعـد.

يغلـب النمـط الريعـي أو رأسـمالية الدولـة علـى الاقتصـاد السياسـي للمنطقـة، اعتمـاد

مفرط على استخراج النفط والغاز الطبيعي، قطاعات صناعية غير متطورة قطاعات خدمات فائقة التطور، تغذية أشكال مختلفة من الاستثمار المضارب مثل المقاولات والبنوك. في الدول الوراثية الريعية، كنظام آل الأسد في سوريا، تتركز السلطة بين أيدي عائلة واحدة وحاشيتها. تعتبر العائلات الحاكمة الدولة ملكية خاصة وتستعمل كل سلطتها القمعية لحماية حكمها.

تُعد دول أخرى مثل مصر، الجزائر، والسودان ذات أنظمة وراثية جديدة. في هذه الدول تمسك المؤسسة العسكرية، لا عائلة واحدة، بالحكم. يخالج إيران، باقتصادها الدولاني الريعي، طموح تحويل نزعتها التوسعية الثيوقراطية - العسكرية إلى مصدر للتربح في المستقبل.

تختلف البنى في كل من لبنان والعراق "الديمقراطيين" عن القوالب المذكورة أعلاه. تقدم المنظومات الطائفية هناك آلية لـ "تقاسم السلطة"، يتم تبريرها كوسيلة وحيدة للحفاظ على التوازنات الداخلية الهشة. بيد أنهما يعكسان على نحو أدق الصراع على السلطة بين أجنحة الطبقة الحاكمة حول المناطق الإقليمية والمواقع الرسمية بالدولة. وكلاهما يبين الطرق التي يمكن من خلالها شفط موارد الدولة والتمويل الخارجي، وكيف يقع إسناد مشاريع التنمية المربحة إلى شركات خاصة مرتبطة بالطبقة الأوليغارشية الحاكمة. وفي حال حاق تهديد ما بهذا النمط الاستخراجي، يتحول الأعداء فجأة إلى حلفاء.

تمثل الاختلافات بين طبائع هذه الأنظمة مدخلاً رئيسيًا لشرح المسارات المختلفة التي سلكتها الانتفاضات الشعبية بالمنطقة. اتسمت الأنظمة الوراثية بمرونة أقل واحتاجت لاستعمال القمع المحض، كما حصل مثلاً في إيران، بينما استطاعت الأنظمة الوراثية الجديدة التخلص من الحكام المكروهين مقابل الحفاظ على النظام القائم. أما الأنظمة الطائفية فقد نجحت في المزج بين القمع والتخويف من زعزعة الاستقرار والانحناء أمام الأطراف الطائفية الأخرى. وهو تكتيك ساعد من قبل في إبقاء الشعب منقسمًا.

لم يقتصر تأثير هذه الأنظمة، من خلال دورها في الاقتصاد العالمي كدول تابعة

توفر يدًا عاملة رخيصة وموارد وسوق للدول المصنعة، على اقتصاداتها الوطنية، بل أعاق كذلك تطور المنطقة ككل. أنتج هذا الوضع بالنسبة للعمال اليوميين، المحرومين من هذه الغنائم، هجرة اليد العاملة المؤهلة إلى خارج المنطقة، ونسبًا عالية من البطالة والعمالة الناقصة، خاصة بين الشباب.

وهكذا إذًا خلق الاقتصاد السياسي للمنطقة حالةَ قابلية للثورة. اجتمع غياب الأداة السياسية مع الإقفار المتزايد للجماهير، في ظل مناخ من الفساد واللامساواة الاجتماعية، إلى جانب قهر النساء والتمييز ضد الأقليات المضطهدة، ليمهد الأرضية لاندلاع تمردات شعبية لم تكن تحتاج لأكثر من شرارة.

تشترك هذه البلدان كذلك في عوائق تحول دون بلوغها أهدافها التحررية. الدين القومي المنهك يعني أن للممولين الأجانب مصلحة راسخة في الحفاظ على "الاستقرار" بالمنطقة. وقد اتضح ذلك عندما رفضت العواصم الغربية سحب دعمها لمختلف الطبقات الحاكمة في المنطقة، خلافًا لما وقع خلال "الربيع العربي" في 2011، حتى عندما بلغت حدة الاحتجاجات مستويات مماثلة. ولم يقدموا على ذلك في بعض البلدان، إلا بعد أن ضمنوا تأمين مصالحهم. وهكذا، حتى لو افترضنا أن الانتفاضات كانت قادرة على تحقيق أهدافها، رغم القمع الداخلي والمقاومة الدولية، فإن مسألة "موازنة الحسابات" المالية تظل تحديًا سيحتاج أي شاغلين جدد لجهاز الدولة إلى مغالبته. وتُمثل تونس ما بعد الثورة التجسيد الملموس لهذه المعضلة، حيث ما زالت النيوليبرالية سيدة الموقف بما يهدد ما تحقق من مكاسب ثورية.

ويتحمّل العديد من المجموعات الناشطة في الانتفاضات الأحدث مسؤولية هذا الإغفال؛ لافتراضهم أن إنهاء الفساد سيكون كافيًا لتصحيح المسار. بالمقابل هناك مجموعات أكثر جذرية تعي أهمية هذا الأمر وتثير بنشاط الحاجة إلى تحقيق المزيد، لكن من غير الواضح مدى تأثيرها على الحِراكات.

تُبرز مسألة الديون الخارجية أهمية التضامن الإقليمي في مواجهة القوى المالية الدولية. عبَّرت مختلف الانتفاضات عن حركات تضامن رمزية عبر الإنترنت أو من خلال الهتافات الشعبية، لكن التعاون الملموس لم يحصل بعد. من السهل إرجاع ذلك

إلـى حداثـة تجربـة الجماعـات النشِـطة داخـل مختلـف الانتفاضـات. فقيـادة ثـورة فـي بلـد واحـد ومواجهـة القمـع الغاشـم بنجـاح هـي مهمـة صعبـة بمـا فيـه الكفايـة. ومـع ذلـك، قـد يتبيـن أن مقـدارًا مماثـلاً مـن الضـرر قـد ينجـم عـن الإخفـاق فـي التفكيـر جديًّـا بالمسـتقبل المُـراد بنـاؤه إثـر النجـاح المفتـرض.

لا يجـب أن تحجـب مسـاحات التشـابه بالمنطقـة مـا يكتنفهـا مـن اختلافـات وصراعـات. يفتـح الحديـث عـن "المنطقـة" مسـاحة للخطـأ حيـث تضيـع الأبعـاد السياسـية والاقتصاديـة داخـل المنطقـة ذاتهـا، وهـي أبعـاد تقـف عائقًـا فـي طريـق تطويـر التضامـن المطلـوب. ومـا يُشـكل "المنطقـة" بحـد ذاتـه هـو ادعـاء مثيـر للجـدل، مثـل تسـميات "الشـرق الأوسـط" و"شـمال إفريقيـا" التـي تعـزز انقسـامات لا تتوافـق مـع أي اختلافـات ملموسـة أو قـد تعبـر عـن اختلافـات لا تتعـدى تلـك الموجـودة داخـل البلـدان التـي تتكـون منهـا المنطقـة.

تمثـل النزعـة المغامراتيـة العسـكرية الإيرانيـة فـي العـراق، سـوريا، اليمـن، ولبنـان مثـالاً علـى تلـك العوائـق. كذلـك، أدى اصطفـاف العربيـة السـعودية وراء الولايـات المتحـدة، إضافـة إلـى مـا يبـدو مـن نفاذهـا غيـر المحـدود للنفـط، إلـى تعزيـز دورهـا الإقليمـي. وكمـا حصـل فـي 2011، لعبـت السـعودية دورًا نشـطًا فـي قمـع الانتفاضـات فـي السـودان والجزائـر، لكـن هـذه المـرة بشـكل أليـن. مـا زالـت الثـروة النفطيـة لـدول الخليـج تمثـل مصـدرًا للرخـاء بالنسـبة للبلـدان المجـاورة الفقيـرة نفطيًّـا، بالنظـر لاعتمـاد اقتصاداتهـا علـى التحويـلات الماليـة، المنـح، أو السـيولة النقديّـة فـي قطاعاتهـا المصرفيـة. وبالتالـي، مـا زالـت التوجهـات السياسـية والظـروف الاقتصاديـة لـدول الخليـج تؤثـر بشـكل ملمـوس علـى باقـي بلـدان المنطقـة.

تعتمـد أيضًـا معظـم دول المنطقـة علـى حضـور كثيـف للعمـال المهاجريـن مـن البلـدان المجـاورة أو مـن جنـوب آسـيا. وهـو خلـق مـا يشـبه سـوق عمـل بتراتبيـة طائفيـة ومشـحونة بالعنصريـة والتطـرف القومـي. يسـاهم تواجـد لاجئيـن فـي العديـد مـن هـذه البلـدان فـي تغذيـة هـذه الديناميـة. كمـا أنـه كثيـرًا مـا يتـم تجاهـل التطلعـات القوميـة للشـعب الكـردي، خاصـة مـن قبـل القومييـن العـرب الـذي يـرون فـي الاسـتقلال الكـردي انتهـاكًا لحرمـة الوحـدة العربيـة. للأسـف، يتجـاوز نقـاش هـذا النـوع مـن الحـركات ضمـن الحِـراكات موضـع البحـث حـدود هـذا الكتـاب. إذ تكتفـي المقـالات المختـارة بعـرض هـذه الاختلافـات

بقدر صلتها بالحِراكات الشاملة داخل كل بلد.

يجدُر تخصيص نقطة أخيرة لمناقشة دور التضامن الدولي، أو بالأحرى ضعفه، مع هذه النضالات. للأسف، ما زالت بعض المجموعات الاشتراكية حول العالم تبدو تحت تأثير القطبية الثنائية للحرب الباردة. وبناءً على ذلك، يساندون أنظمة استبدادية قمعية كما هو الحال في سوريا أو إيران على قاعدة مواقفها المفترضة في "معاداة الإمبريالية". وهو ما يتجاهل الوظيفة الأيديولوجية لهذا الخطاب "المعادي للإمبريالية" داخل تلك البلدان، كما يتغاضى عن الأدوار الإمبرياليّة- الإقليمية للبعض منها.

تقدم المقالات جداول زمنية تتضمن الأحداث الرئيسة قبل وخلال الانتفاضات، تسهيلًا للرجوع إليها عند الحاجة. يستعرض المقال الأول، بقلم عزة مصطفى وسارة عباس، انتفاضة السودان الذي نجح في التخلص من طاغيته، لكنه ما زال يتعايش مع ما يمكن وصفه بشكل من الحكم الثنائي تتقاسمه القوى المدنية والعسكرية. نجحت الانتفاضة السودانية في بناء شبكة مثيرة للإعجاب من مواقع المقاومة محليًّا، جهويًّا ووطنيًّا، اشتملت على لجان المقاومة والتغيير المحلية وحركة عمالية مستقلة وموحدة في إطار تجمع المهنيين السودانيين. لعب التجمع دور رأس الحربة بالنسبة للحراك الاحتجاجي. إذ جمَّع وألَّف مطالبه، حدد مواعيد الاحتجاجات الجماهيرية، ولعب لاحقًا دورًا فعالًا في تحالف قوى الحرية والتغيير، الذي ينظر إليه الآن على أنه الهيئة المفاوضة باسم الانتفاضة.

أما حمزة حموشان وسلمى العمري فيربطان في مقالهما عن الثورة الجزائرية بين الحراك الحالي والتاريخ طويل الأمد لمناهضة الاستعمار ونيل الاستقلال. يقدم هذا النص تبصرًا جيدًا في الكيفية التي قادت بها "إخفاقات" سياسات فك الارتباط، محاولات الدولة الاشتراكية تحقيق السيادة الاقتصادية، إلى صعود الإسلام السياسي، ومن ثمة ردة الفعل عليه من خلال القمع العسكري، وهو نموذج مألوف في المنطقة. وكما في السودان، نجح الجزائريون في خلق انقسام بين العسكر وزعيمهم المتسلط عبد العزيز بوتفليقة، لكنهم ما زالوا يتعاطون مع حكم عسكري يختفي وراء ستار انتخابات تم رفضها ومقاطعتها من قِبَل الحراك. وللصراع الدائر في الجزائر جوانب بيئية وثقافية هامة، ما أكسب الحراك أبعادًا إضافية.

مـن جهتـه كتـب زيْـدون الكنانـي عـن الانتفاضـة فـي العـراق، حيـث قـادت هيـاكل السـلطة الطائفيـة، التـي أقيمـت بعـد الغـزو الأمريكـي فـي 2003، إلـى نـزاع دمـوي وإلـى انتشـار تنظيـم "داعـش". أمـا الميليشـيات التـي شُـكِّلَت إثـر الغـزو، إلـى جانـب نموهـا كنتيجـة للنـزاع الداخلـي وللصـراع مـع داعـش، فقـد أمسَـت الآن قـوى القمـع المسـيطرة وتعمـل كقنـوات للمصالـح الأجنبيـة فـي البـلاد. وبالتالـي، يحمـل الحـراك الاحتجاجـي فـي العـراق خاصيـة مزدوجـة: الصـراع ضـد الفسـاد الـذي يسـر سـبله النظـام المذهبـي الطائفـي، وضـد تدخـل القـوى الأجنبيـة. يشـرح هـذا المقـال كذلـك أثـر التطلعـات الكرديـة للاسـتقلال التـي ترجمـت مـن خـلال لامبـالاة نسـبية تجـاه الحـراك الجماهيـري.

وفيمـا يخـص لبنـان، قـام جـاد صعـب وجـوي أيـوب بتحطيـم الأسـاطير المؤسسـة حـول اسـتقلال البلـد وكيـف تجبـر الانتفاضـة المحتجيـن علـى مواجهتهَـا. ترجمـت الديـون المشـكلة والظـروف الاقتصاديـة المتدهـورة منـذ 2011 فـي تبلـور بطـيء لقـوى المعارضـة. وإنمـا زالـت هـذه القـوى بصـدد إعـادة التشـكل بالنظـر إلـى اسـتمرار توسـع نطـاق مـا تحتـج عليـه الانتفاضـة. يسـلط المقـال الضـوء علـى دور النظـام الطائفـي وكيـف يتسـرب إلـى الحيـاة اليوميـة جاعـلاً مـن العدسـة الطائفيـة شـرطًا إجباريًّـا فـي عمليـة إعـادة إنتـاج الطبقـة الحاكمـة. كذلـك ناقـش الكاتبـان موقـع حـزب اللـه وقدرتـه علـى احتـكار دور المقاومـة المعاديـة للإمبرياليـة، فيمـا يعمـلُ كقـوة رجعيـة فـي البـلاد والمنطقـة.

أخيـرًا، تُشَـرِّح فريـدا عفـاري فـي مقالهـا حـول إيـران، الاقتصـاد السياسـي الثيوقراطـي، الدولانـي والعسـكري للدولـة الإيرانيـة والطموحـات التـي تحـرك إمبرياليتهـا الإقليميـة. يبيـن المقـال كيـف أن النظـام الإيرانـي مـا زال يواجـه، رغـم قمعـه الوحشـي، مقاومـة صلبـة وبطوليـة مـن العمـال، النسـويات، الأقليـات المضطهـدة والنضـالات الشـبابية. كمـا يناقـش كيـف سـاعدت الاحتجاجـات خـلال السـنتين الأخيرتيـن ضـد التدخـل الإيرانـي فـي سـوريا ولبنـان والعـراق علـى بنـاء حـس تضامنـي بالمنطقـة. يوضـح النـص كذلـك الخطـر البالـغ لبعـض تيـارات اليسـار التـي تسـاند الأنظمـة الاسـتبدادية لأجـل معاداتهـا المفترضـة للإمبرياليـة.

وكمـا سـبق ذكـره، لـم يبلـغ العديـد مـن هـذه الانتفاضـات منتهـاه. وقـد بـدأ مشـروع هـذا الكتـاب قبيـل انتشـار جائحـة كوفيـد 19. وقـد فرضـت هـذه الجائحـة توقفًـا مفاجئًـا

علـى كل الحِـراكات، التـي إمـا انسـحبت طوعًـا أو أُجبـرت علـى ذلـك بسـبب الإغلاقـات التـي فرضهـا الجيـش. ومـع ذلـك، مـا زلنـا نـرى فـورات احتجاجيـة مـن حيـن لآخـر، ممـا يثبـت أن هـذه الحِـراكات لـم تنتـهِ بعـد. إن التداعيـات الاقتصاديـة والاجتماعيـة للوبـاء، إلـى جانـب الانخفـاض الحـاد لأسـعار النفـط، سـتؤدي لا محالـة إلـى تأجيـج لهيـب الثـورة فيمـا يثبـت أنـه مسـار ثـوري طويـل الأمـد سـيمتد إلـى المنطقـة بأسـرها.

شكر وامتنان

أود أن أشـكر تحالـف اشـتراكيي الشـرق الأوسـط وشـمال إفريقيـا، الذيـن مـن دونهـم لـم يكـن ممكنًـا لهـذا المشـروع أن يبصـر النـور. كذلـك أود شـكر المعهـد الدولـي الـذي مـول بسـخاء هـذه التشـكيلة مـن المقـالات، بمـا فـي ذلـك ترجمتهـا إلـى العربيـة. أخيـرًا، أديـن بالامتنـان إلـى جوزيـف ضاهـر الـذي تكـرم وسـمح لـي بإعـادة اسـتعمال بعضًـا مـن عملـه فـي هـذه المقدمـة.

جاد صعب

حزيران (يونيو) 2020

ثورة ديسمبر السودانية

عزة مصطفى وسارة عباس

أغسطس 2020

1 يناير (كانون الثاني) 1956	نيل السودان استقلالها عن بريطانيا
17 نوفمبر (تشرين الثاني) 1958	انقلاب عسكري بقيادة الجنرال إبراهيم عبود
أكتوبر (تشرين الأول) 1964	"ثورة أكتوبر" تنصب حكومة انتقالية وتؤسس لحكم تعددي، لكن الحرب الأهلية التي بدأت قبل الاستقلال مستمرة.
25 مايو (أيّار) 1969	انقلاب "الضباط الأحرار" بقيادة جعفر النميري
1983	تأسيس الجيش الشعبي لتحرير السودان (ج. ش. ت. س) وبداية الحرب الأهلية السودانية الثانية.
6 أبريل (نيسان) 1985	" انتفاضة " ترسي في البلاد "ديمقراطية ثانية" وحكم قائم على تعددية حزبية.
30 يونيو (حزيران) 1989	انقلاب الفريق عمر حسن أحمد البشير، بدعم من الجبهة الوطنية الإسلامية، يطلق برنامج "إنقاذ".
9 يناير (كانون الثاني) 2005	توصل الحكومة والحركة الشعبية لتحرير السودان إلى اتفاق سلام شامل.
9 يوليو (تموز) 2011	جنوب السودان يعلن استقلاله. شهدت نفس السنة احتجاجات صغيرة مستلهمة من "الربيع العربي".
13 ديسمبر (كانون الأول) 2018	**بداية احتجاجات حاشدة في جميع أنحاء البلاد للمطالبة بتنحي البشير، لعب فيها تجمع المهنيين السودانيين دورًا محوريًّا**
1 يناير (كانون الثاني) 2019	توقيع "إعلان الحرية والتغيير" الذي وحد جل قوى المعارضة، مكونًا بذلك قوى الحرية والتغيير (ق. ح. ت).

6 أبريل (نيسان) 2019	قمع مظاهرة ضخمة لإحياء ذكرى «انتفاضة» 1985. محتجون يعتصمون أمام مقر القيادة العسكرية العامة في الخرطوم. تسجيل اعتصامات مشابهة في اثني عشرة مدينة أخرى على أقل تقدير.
11 أبريل (نيسان) 2019	إزاحة الجيش للبشير من السلطة وسجنه إلى جانب مسؤولين كبار من نظامه. تشكيل مجلس عسكري انتقالي.
3 يونيو (حزيران) 2019	فض اعتصام الخرطوم بالقوة وقطع الإنترنت.
30 يوليو (تموز) 2019	دعوة قوى الحرية والتغيير إلى مظاهرة مليونية للتنديد بمجزرة الثالث من يونيو. قادت لجان المقاومة معظم أشكال التعبئة.
4 أغسطس (آب) 2019	اتفاق بين المجلس العسكري الانتقالي وقوى الحرية والتغيير على إعلان دستوري مؤقت يحدد فترة انتقالية بثلاث سنوات.
يوليو (كانون الثاني) 2020	اندلاع احتجاجات بسبب بطء الانتقال السياسي.

المقدمة

إثـر اسـتقلال السـودان فـي ينايـر 1956، حاولـت نخـب مـا بعـد الاسـتعمار المؤتلفـة حديثًـا وضـع أسـس نظـام سياسـي جديـد. أنهـى انقـلاب نوفمبـر 1958 سـريعًا حكـم أول حكومـة مدنيـة بقيـادة إسـماعيل الأزهـري ثـم عبـد اللـه بـك خليـل. شـكل المنقلبـون بقيـادة إبراهيـم عبـود مجلسًـا عسـكريًّا حكـم البـلاد لفتـرة سـت سـنوات مـن 1958 إلـى 1964. تعتبـر هـذه الفتـرة فاتحـة لإحـدى أبـرز الديناميّـات فـي السياسـة الحديثـة للسـودان: إنهـاء حكـم عسـكري مفـروض عبـر انتفاضـات شـعبية سـلمية أنتجـت حكومـات مدنيّـة مُنتخبـة. انتهـت هـذه الحقبـة بدورهـا بُعيـد سـنوات، عـن طريـق انقـلاب عسـكري آخـر.

فـي الواقـع، خـلال تاريـخ السـودان المسـتقل (64 عامًـا) لـم يحكـم مدنيـون منتخبـون البـلاد سـوى إحـدى عشـرة سـنة فقـط. عـادة مـا يشـار إلـى فتـرات الحكـم التعدديـة هـذه بِــ "الديمقراطيـات". إلا أن الواقـع أكثـر تعقيـدًا. فخـلال "الديمقراطيـات" الثلاثـة: الأولـى (مـن 1956 إلـى 1958) والثانيـة (مـن 1964 إلـى 1969) والثالثـة (مـن 1985 إلـى 1989)، حُـرِم النـاس فـي مناطـق بجنـوب البـلاد مـن التصويـت بسـبب ظـروف الحـرب.

اسـتخدمت الدكتاتوريـات كذلـك بانتظـام الانتخابـات المُتحكَّـم فيهـا كطريقـة لكسـب شـرعية شـكلية، وإن لـم تكـن موجهـة للداخـل فقـد كانـت مـن أجـل المجتمـع الدولـي. كانـت حصـة النسـاء مـن المناصـب المنتخبـة أو المعينـة هزيلـة خـلال الفتـرات "الديمقراطيـة"، كذلـك الأمـر بالنسـبة لمشـاركة الفئـات مـن جهـات السـودان المهمشـة: وهـي مناطـق غنيـة بالمـوارد وخـارج مركـز البـلاد المعـرف علـى أنـه عربـي، والـذي يغلـب عليـه الطابـع الإسـلامي[1]. وهـو مـا يعقـد السـردية السـائدة حـول ديكتاتوريـة مقابـل ديمقراطيـة فـي

1- تعريف كلمة "عربي" أمر في غاية التعقيد في السودان وليس ثابتًا بأي حال من الأحوال. للتعمق في الموضوع انظر إلى: Mamdani, M., 2010. Saviors and Survivors: Darfur, Politics and the War on Terror. New York: Doubleday

تأريخ السودان[2].

إذا نظرنا عبر هذه العدسات بإمكاننا القول إن ثورة ديسمبر 2018 ومن خلال خطابها وتكتيكاتها وأساليبها، هي محاولة للتعلم من الانتفاضات السابقة في السودان، وكذلك في البلدان المجاورة. كما أنها محاولة لكسر الحلقة المفرغة من خلال عدم الاكتفاء بإنهاء الحكم العسكري فحسب، بل أيضًا بصياغة رؤية أوسع وأكثر شمولية للديمقراطية؛ رؤية لا تفصل بين السلام والعدالة.

في حين أنه ما يزال من المبكر استخلاص الدروس، إلا أننا نناقش أدناه وجهة نظرنا حول مدى نجاح الثوار إلى حد الآن.

نظام عبود العسكري وثورة أكتوبر 1958-1964:

أنهت "ثورة أكتوبر" في 1964 حكم عبود العسكري الذي تأسس عام 1958، بعد سنتين من استقلال السودان عن بريطانيا. أتت هذه الثورة بعد تدهور في الظروف السياسية والاجتماعية. جاب الناس الشوارع في غضب فأسقطوا النظام ثم شكلوا حكومة انتقالية حتى إجراء الانتخابات العامة سنة 1965. انطلقت ثورة أكتوبر في 21 أكتوبر 1964 على إثر انعقاد ندوة في جامعة الخرطوم لمناقشة ما كان يُعرف في شمال السودان آنذاك باسم "مشكلة جنوب السودان". احتج الجنوبيون على إقصائهم السياسي طويل الأمد وعلى قمع الدولة لهوياتهم الثقافية والدينية، بينما تستغل مواردهم لينتفع بها الشمال[3].

شكلت الندوة في الجامعة تحديًا للأجهزة الأمنية للنظام، وعلى هذا الأساس

2- يرفض عطا البطاحاني، العالم السياسي بجامعة الخرطوم، عدم وجود وجهات نظر تقليدية حول الديمقراطية التمثيلية، والتي تساوي بين الممارسات السياسية المتعددة الأحزاب، والمنافسة الانتخابية، والقضاء المستقل والديمقراطية، في حين ترى السلطوية في غياب هذه الممارسات.
Al-Battahani, A., 2002. "Multi-Party Elections and the Predicament of Northern Hegemony in Sudan", in Cowen M. and Laakso, L. (eds.) Multi-Party Elections in Africa. Oxford: James Currey and New York: Palgrave

3- لمزيد التعمق Berridge, W. J., 2015. Civil Uprisings in Modern Sudan: The 'Khartoum Springs' of 1964 and 1985. UK: Bloomsbury Academic.

هاجمتها الشرطة. قتل خلال المواجهات ثلاثة طلاب، يدعى أحدهم أحمد القرشي، كما جُرح تسعة آخرون. انتشر العصيان المدني سريعًا عقب الهجوم. كما نظمت الجبهة الوطنية إضرابًا عامًّا. تشكَّلت هذه الجبهة سريعًا بهدف تنظيم الحراك، وقد تكونت من جمعيات مهنية تجارية.

دفعت الانتفاضة عبود لحل المجلس الأعلى للقوات المسلحة ومجلس الوزراء. ظل في السلطة كرئيس في حين تولى التكنوقراط إدارة شؤون الدولة. عرف هذا الاتفاق باسم "الميثاق الوطني". وقعت الحكومة الجديدة، بقيادة رئيسها سر الختم الخليفة، سريعًا في المشاكل حين تفاقمت الانقسامات داخلها بين الحزب الشيوعي السوداني من جهة وبقية الأحزاب التقليديّة وغيرها من جهة أخرى[4]. على الرغم من أن الكتلة الأخيرة لم تكن تقليدية تمامًا، إلا أنها ضمت جماعة الإخوان المسلمين، المنافسين الأقوياء للشيوعيين.

وسرعان ما أدت الانقسامات إلى مزيد من التظاهرات دفعت عبود إلى الاستقالة. أعيد تشكيل حكومة انتقالية ثانية في فبراير 1965، وفي أبريل ومايو، أُجريت الانتخابات في الشمال فقط. وحصل حزب الأمة والحزب الوطني الاتحادي على المركزين الأول والثاني على التوالي. شُكلت حكومة ائتلافية؛ لتحل محل حكومة الخليفة الانتقالية[5].

نظام النميري العسكري: 1969-1985:

خلال السنوات الثلاثة عشر التي تلت الاستقلال (1956-1969)، شهدت البلاد سبع حكومات ائتلافية (إضافة إلى سنوات عبود الست من الحكم العسكري)[6]. في

4- يشار عادة إلى ما نسميه هنا بـ "الأحزاب التقليدية" باسم "الأحزاب الطائفية" في الأدبيات المتعلقة بالسودان (أُخِذت هذه الكلمة على الأرجح من إرث الدراسات الاستعمارية البريطانية). الحزبان هما حزب الأمة بقيادة آل المهدي ويستمد دعمه في الغالب من أنصار الطريقة الصوفية، والحزب الاتحادي الوطني (تحول فيما بعد إلى الحزب الاتحادي الديمقراطي)، بقيادة عائلة الميرغني ويحظى بدعم في الغالب، من الطريقة الختمية الصوفية. لمزيد من المعلومات حول نشأة الأحزاب السياسية السودانية، انظر أبو حسبو، أ. ، 1985. صراع الفصائل في الحركة القومية السودانية: 1948-1918. الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم.

5- بشير، محمد عمر، 1974 الثورة والقومية في السودان. نيويورك: Barners and Nobel box

6- Salih, K.O., 1990. "The Sudan, 1985-9: The Fading Democracy". The Journal of Modern African Studies 28 (2), pp. 199-224

مايـو 1969، حيـن اسـتولى النميـري ومجموعتـه "الضبـاط الأحـرار" علـى السـلطة ألقـوا بقـادة الأحـزاب السياسـية والمنظمـات فـي السـجن. مثَّـل الحـزب الشـيوعي الاسـتثناء الوحيـد لإعلانـه دعمـه لمجلـس قيـادة الثـورة المشـكل حديثًـا.

تعهـد نظـام النميـري فـي البدايـة باتبـاع خـط قومـي ناصـري (للدلالـة علـى الخـط السياسـي لجمـال عبـد الناصـر، رئيـس مصـر آنـذاك). أظهـر النميـري همجيتـه منـذ أولـى سـنوات حكمـه؛ فـي مـارس 1970 هاجـم النظـام متظاهريـن بالجزيـرة آبـا علـى ضفـاف النيـل، بمسـاعدة مـن قاذفـات قنابـل مصريـة. يزعـم أن ضابطًـا شـابًّا بسـلاح الجـو، يدعـى حسـني مبـارك، هـو الـذي قـاد التدخـل المصـري. قُتِـل الآلاف مـن أعضـاء جماعـة الأنصـار فـي هـذا القصـف[7].

فـي السـنة الموالية، فـي يوليـو 1971، غيَّـر النميـري مسـاره تغييـرًا جذريًّـا إثـر محاولـة انقلاب قـام بهـا أعضـاء شـيوعيون مـن مجلـس قيـادة الثـورة. إذ أعـدم عـددًا مـن القـادة الشـيوعيين وتبنـى سياسـة محافظـة وموالية للغـرب. فـي مـارس 1972، وبمسـاعدة إمبراطـور إثيوبيـا هيـلا سيلاسـي، أبـرم اتفـاق أديـس أبابـا الـذي ضمـن للجنـوب بعـض الاسـتقلالية الجهويـة وأنهـى الحـرب (مؤقتًـا)[8]. طيلـة حكـم النميـري ازداد فسـاد وعنـف نظامـه. شـكلت تغيـرات عـدة فـي المشـهد السياسـي والاجتماعـي خلفيـةً للمقاومـة المتزايـدة ضـد نظامـه: ارتفـاع أسـعار النفـط فـي أواخـر السـبعينات وخسـارة المعونـة الإنمائيـة العربيـة وسـوء إدارة الحكومـة والفسـاد والركـود الاقتصـادي العالمـي. أدى كل ذلـك إلـى ارتفـاع التضخـم واللامسـاواة. دخلـت البـلاد فـي عجـز مسـتمر فـي الميزانيـة وراكمـت الديـون الخانقـة التـي لـم تتخلـص منهـا قـط[9].

منـذ نهايـة السـبعينات، تحالـف النميـري مـع الإخـوان المسـلمين بقيـادة حسـن الترابـي، بعـد أن بـدأ حكمـه بتحالـف مـع الشـيوعيين. أسـس الترابـي فـي أوائـل الثمانينـات الجبهـة الإسـلامية القوميـة (ج. إ. و.) بصفتهـا الحـزب السياسـي الإسـلامي. بتشـجيع مـن الجبهـة، أعلـن النميـري، فـي سـبتمبر 1983، قانـون الشـريعة الإسـلامية.

Fadlalla, M.H., 2004. A Short History of Sudan. iUniverse -7

Salih, K.O., 1990, p. 200 -8

Salih, K.O., 1990, p. 200 -9

استخدمت "قوانين سبتمبر" سيئة الصيت في فرض أحكام عنيفة على الفقراء مثل قطع الأطراف. شهدت تلك الفترة تفاقمًا في المحاكم الفورية والاعتقال التعسفي وإعدام المعارضين السياسيين[10].

خرقت الحكومة المركزية بنودًا من اتفاق أديس أبابا مما تسبب في انهيار اتفاق السلام. كنتيجة لذلك، انضم آلاف من الجنوبيين إلى جنود الوحدات التي تمردت سابقًا (أولًا في 1975 ومجددًا في 1983). عزز بعض المتمردين الجدد صفوف الحركة المعروفة باسم آنيانياII، إلا أن معظمهم التحقوا بالجيش الشعبي لتحرير السودان تحت قيادة جون قرنق، المقدم السابق في الجيش السوداني[11].

أدت شراسة الحرب في الجنوب، فضلًا عن تدهور الظروف الاقتصادية ومجاعة الساحل أوائل الثمانينات، إلى تشريد الملايين من المناطق الريفية والمناطق المهمشة إلى المراكز الحضرية، لا سيما إلى الخرطوم. سنة 1984، عارض الحزب الجمهوري، وهو جماعة دينية إصلاحية، قوانين سبتمبر معتبرًا إياها تشويهًا للشريعة الإسلامية[12]. اتُّهِم زعيم الحزب محمود محمد طه بالردة وحُكِمَ عليه بالإعدام. أثار ذلك غضبًا عامًا، نظرًا لكون الرجل في السادسة والسبعين من عمره.

في نفس الفترة تقريبًا، عانى النظام من رد فعل محلي عنيف حين اُكْتُشِف أن النميري تعاون سرًا مع إسرائيل والولايات المتحدة في عملية نقل جوي لـ 10 إلى 12 ألف يهوديًا إثيوبيًا ("الفلاشا") إلى إسرائيل في أواخر 1984 وأوائل 1985. وهو ما تسبب في غضب شعبي عارم، إذ كان هناك رفض قاطع من عموم السودانيين للتعاون مع إسرائيل[13].

10- Natsios, A.S., 2012. Sudan, South Sudan and Darfur: What Everyone Needs to Know. Oxford: Oxford University Press

11- لمزيد من المعلومات انظر: Garang. J. and Khalid, M.,(ed. and introduction). 1987. John Garang Speaks. London and New York: Kegan Paul International.

12- an-Na'im, A.A., 1988. "Mahmud Muhammed Taha and the Crisis in Islamic Law Reform". Journal of Ecumenical Studies, 25 (1), pp. 1-21

13- للاطلاع سريعًا على العلاقة التاريخية بين السودان وإسرائيل انظر:
Ben Yehuda, I., 2020. What is behind Israel's warming ties to Sudan? 972 Magazine. March 1

سنة 1985 أعلن النميري عن تنازلات كبرى لمقرضي ومانحي البلاد الخارجيين، الذين كانوا يضغطون من أجل "إصلاح" اقتصاد البلاد، من خلال إنهاء دعم المواد الغذائية الأساسية والبنزين. اتخذت نفس الإجراءات في يناير 1982 وأدت إلى انتشار الاضطرابات في العاصمة[14].

انتفاضة 1985 و "الديمقراطية الثالثّة": 1985-1989.

بلغ التنظيم السري ضد النظام ذروته في الثمانينات. وعندما حانت اللحظة نظمت المعارضة بقيادة النقابات والجمعيات المهنية احتجاجات ضخمة سنة 1985. مارس الضباط العسكريون الصغار أيضًا ضغطًا على قياداتهم العسكرية لافتكاك السلطة من النميري ومن حزبه الاتحاد الاشتراكي[15].

في السادس من أبريل 1985، وفي غمرة المظاهرات الضخمة، أزاح الجنرال عبد الرحمن سوار الذهب النميري ومسؤولي نظامه الكبار. منح حسني مبارك النميري -الذي كان في طريق العودة من الولايات المتحدة الأمريكية- اللجوء إلى مصر. تشكّل مجلس عسكري انتقالي بقيادة سوار الذهب. ضم هذا المجلس في أغلبه أعضاء غير متحزبين من الجمعيات المهنية والنقابات.

جلبت انتخابات أبريل 1986 الصادق المهدي، رئيس حزب الأمة، إلى الحكم رئيسًا للوزراء. حصل المنافس التقليدي لحزب الأمة: الحزب الاتحادي الديمقراطي، على المركز الثاني. بيد أن مفاجأة هذه الانتخابات كانت الجبهة الإسلامية القومية بزعامة حسن الترابي. سحبت هذه الجبهة دعمها للنميري في الوقت المناسب قُبيل سقوطه ضامنة بذلك مشاركتها في الانتقال. بدعم مالي من شبكات البنوك الإسلامية، كسبت الجبهة المرتبة الثالثة في البرلمان، إلا أن طموحاتها كانت تتجاوز الانتخابات.

اتسمت إدارة المهدي بعدم الاستقرار السياسي وباتهامها بالمحسوبية وبالتذبذب

14- Salih, K.O., 1990, p. 200

15- Areef, M. A., 2018. "1985: A Revolution or an Officers' Coup Against Nimeiri?". 16 August

فـي القـرار، ممـا أنتـج تحالفـات قصيـرة المـدى تذكـر "بالديمقراطيـة الأولـى" (1964-1969). واصلـت الحكومـة القتـال فـي حـرب قاسـية بالجنـوب. لـم تكـن الحكومـة المحاصـرة بالصـدوع الداخليـة قـادرة علـى تحسـين الاقتصـاد المتهالـك، والتوصـل إلـى قـرارات حـول مشـروع قانـون العقوبـات الجديـد (لتعويـض قوانيـن سـبتمبر للنميـري) كمـا أنهـا لـم تسـتطع ضبـط ديونهـا.

رغـم أن اكتشـاف النفـط فـي جنـوب السـودان أوائـل الثمانينـات قـد مَكَّـنَ مـن إعـادة جدولـة الديـن الخارجـي، إلا أن انـدلاع الحـرب حـال دون الاسـتفادة منهـا. تجـاوز ديـن البـلاد الخارجـي أربعـة أضعافـه بيـن سـنتي 1979 و1986. بحلـول عـام 1986 أعلـن صنـدوق النقـد الدولـي أن السـودان غيـر مؤهـل للاقتـراض، مطالبًـا باتخـاذ إجـراءات تقشـفية منهـا: فـرض قيـود صارمـة علـى الإنفـاق العـام، خصخصـة العديـد مـن الشـركات المملوكـة للدولـة ورفـع الدعـم عـن أسـعار الغـذاء، قنبلـة موقوتـة لأي حكومـة مدنيـة كانـت أم عسـكرية. اجتاحـت الاحتجاجـات التـي قادهـا الطلبـة البـلاد، قُتِـل خلالهـا ثلاثـة أشـخاص وجُـرح العشـرات. فـي أعقـاب ذلـك، تخلـت الحكومـة عـن خطـط رفـع الدعـم عـن المـواد الغذائيـة. ومـع ذلـك، توصلـت حكومـة المهـدي إلـى اتفـاق مـع صنـدوق النقـد الدولـي فـي سـبتمبر 1987. قُوبـل القـرار الناتـج عـن هـذا الاتفـاق، والقاضـي برفـع أسـعار مـواد كالسـكر والمحروقـات، بغضـب شـعبي واحتجاجـات ضـد الحكومـة وصنـدوق النقـد الدولـي سـقط خلالهـا ضحايـا كثـر. فـي هـذه الأثنـاء، أدت الحـرب فـي الجنـوب بيـن الجيـش الشـعبي لتحريـر السـودان والقـوات السـودانية المسـلحة، إضافـة إلـى الأزمـة الغذائيـة والإنسـانية، إلـى تشـريد ثلـث سـكان جنـوب البـلاد (السـتة ملاييـن) وإلـى نـزوح مليونـي شـخص إلـى الشـمال بحثًـا عـن الأمـان[16].

الانقلاب العسكري الإسلامي لسنة 1989 ونظام الإنقاذ:

اسـتولى ضبـاط مـن الجيـش بقيـادة الفريـق عمـر حسـن البشـير علـى السـلطة فـي 30 يونيـو 1989 وشـكلوا مجلـس قيـادة ثـورة الإنقـاذ الوطنـي. كان هـذا المجلـس، مثلمـا سـيتبين لاحقًـا، أداة بيـد الجبهـة الإسـلامية القوميـة.

16- Salih, K.O., 1990, p. 219

كان النظـام العسـكري السـوداني الـذي أُنشـأ فـي السـودان خـلال التسـعينات مشـروعًا جذريًّـا يهـدف إلـى تحويـل المجتمـع السـوداني إلـى انعـكاس لصورتـه الخاصـة. بعـض جوانـب مشـروع النظـام كانـت مألوفـة: خطـاب "الاكتفـاء الذاتـي" المفضـل عنـد الأنظمـة العسـكرية السـابقة والوحشـية الملحوظـة والتضييـق السـريع علـى الحريـات، مـع علاقـة اسـتخراجية بالمناطـق الغنيـة بالمـوارد. زِدْ علـى ذلـك اسـتخدام أجهـزة الدولـة للعنـف ضـد المناطـق المهمشـة والمجموعـات التـي شُـكِّلت وعُوملِـت علـى أنهـا أقـل شـأنًا، كالجنوبيِّيـن والنوبـة و"أقليـات" إثنيـة ودينيـة أخرى.

رغـم أن همجيـة الدولـة كانـت مألوفـة لـدى كثيـر مـن السـودانيين، خاصـة فـي الجنـوب، إلا أنهـا بلغـت مسـتوى غيـر مسـبوق تحـت نظـام "الإنقـاذ". كان التعذيـب والاعتقـال التعسـفي فيمـا سـماه النـاس بــ "بيـوت الأشـباح" شـائعة، مثلهـا مثـل سياسـة "الأرض المحروقـة" فـي مناطـق الحـرب. كان هنـاك انتـداب قسـري لميليشـيات النظـام المعروفـة بقـوة الدفـاع الشـعبية، وتغييـر شـامل لمناهـج التعليـم. أُجبِـرت النسـاء علـى ارتـداء الخمـار (غطـاء الـرأس) كمـا تـم التضييـق علـى تحركاتهـن. شـاعت كذلـك ممارسـات مـن قبيـل مطـاردة المعارضيـن السياسـيين وتنحيـة الموظفيـن العمومييـن غيـر المنتميـن سياسـيًّا مـن أجـل "الصالـح العـام". غلـف النظـام ومـن ورائـه الحركـة الإسـلامية أهدافهـم بمـا سـموه "المشـروع الحضـاري"[17]. بينمـا واصلـت النسـاء فـي دخـول سـاحات عامـة جديـدة، أُتِيحـت جزئيًّـا بسـبب كثـرة مؤسسـات الدولـة إبـان سـنوات النظـام الأولـى، لـم يكـن الفضـاء السياسـي مفتوحًـا إلا للنسـاء المواليـات للنظـام[18].

17- لمزيد من النقاش حول المشروع الحضاري انظر:
Ali, H.I., 2004. The Fall of the Civilization Project. Vol. 1. Khartoum: Sudanese Studies Centre and Salomon, N., 2016. For the Love of the Prophet: an Ethnography of Sudan’s Islamic State. Princeton and Oxford: Princeton University Press.

18- Abbas, S., 2010. “The Sudanese Women’s Movement and the Mobilisation for the 2008 Legislative Quota and its Aftermath”, IDS Bulletin 41 (5), pp. 1-9.

العقْدان الأوّلان للإنقاذ: بين 1990 و2010.

استمر نظام الإنقاذ قائمًا لما يقارب الثلاثين عامًا. أرسى مشروعه الحضاري في ظل عسكرة متصاعدة وتداخل بين الدولة والهياكل الحزبية. انتهج النظام سياسة من أربعة محاور:

- السيطرة على السكان عبر "الدفاع والأمن"، وقد شكَّلا 75٪ من إنفاق الناتج المحلي الإجمالي[19].
- وضع اليد على أملاك الدولة والمداخيل العامة ومنحها لشبكات القطاع الخاص الموالية.
- تعريب وأسلمة مؤسسات الدولة والفضاء العام.
- انتهاج سياسة "التمكين"، التي وقع من خلالها استبدال المعارضين و"الآخرين" غير الموالين في القطاع العام أو الخاص بالموالين.

استُهْدِفت النساء، خاصة اللاتي في المناطق المتأثرة بالحرب والنازحات، جسديًّا وجنسِيًّا وقانونيًّا، كما عانين من العنف المؤسساتي. كانت النساء المدانات بخرق النظام العام والقانون الجنائي "تحت رحمة" السلطة التقديرية لقوات الأمن والشرطة. أجبرت الصراعات والإقصاء الاقتصادي والسياسي الكثيرات منهن على الهجرة.

أصبح النظام، في منتصف التسعينات منبوذًا على الصعيد العالمي. في أولى سنوات التسعينيات كان قريبًا من النظام الإيراني، ولكنه في منتصفها استضاف أسامة بن لادن، الذي مُنِح اللجوء مقابل الاستثمار محليًّا. في سنة 1993، وضعت الولايات المتحدة السودان على قائمة " الدول الراعية للإرهاب"[20] وفي 1997،

19- Radio Dabango. 4 October 2017

20- United State Department of State. (n.d.). State Sponsors of Terrorism – Bureau of Counter Terrorism. [Online]. Available at: https://www.state.gov/state-sponsors-of-terrorism/

فرضـت عقوبـات اقتصاديـة علـى البـلاد[21]. فـي أغسـطس 1998، دمـرت صواريـخ كـروز الأمريكيـة مصنـع "الشـفاء" للأدويـة فـي الخرطـوم، وادعـت الإدارة الأمريكيـة أنـه مصنـع للأسـلحة. حصـل النظـام المعـزول والمتعثـر علـى فرصـة جديـدة للحيـاة فـي شـكل اسـتثمارات صينيـة (ماليزيـة وكنديـة أيضًـا، ولاحقًـا هنديـة) فـي قطـاع النفـط[22].

فـي أكتوبـر 2000، ولأول مـرة فـي تاريخـه، صـدَّر السـودان كميـات تجاريـة مـن النفـط. بـدأ النظـام فـي تحويـل الاقتصـاد بشـكل كبيـر نحـو النفـط. فـي نفـس الفتـرة تقريبًـا شـهد النظـام شـرخًا هامًّـا حيـن طـرأت الخلافـات بيـن الترابـي -وهـو رئيـس البرلمـان وأهـم شـخصية فـي الجبهـة الإسـلامية القوميـة- والبشـير رئيـس البـلاد وقائـد الجيـش. انتصـر البشـير دافعًـا بالترابـي وأتباعـه نحـو نفـس الصحـراء السياسـية، التـي سـبق للأخيـر أن نفـى إليهـا خصومـه. أدى تأسـيس الترابـي بعـد فتـرة قصيـرة لحـزب المؤتمـر الشـعبي، كمعـارض لحـزب المؤتمـر الوطنـي بقيـادة البشـير، إلـى انقسـام الحركـة الإسـلامية لنصفيـن ممـا أضعفهـا بشـكل ملحـوظ.

فـي أوائـل عقـد الألفيـن، فـي ظـل ضـخ النفـط مـن حقـول أغلبهـا فـي الجنـوب، جاهـد النظـام للتخلـص مـن وضعيـة المنبـوذ. وبـدأ فـي 2002 مفاوضـات مـع الحركـة الشـعبية لتحريـر السـودان (الجنـاح السياسـي للجيـش الشـعبي لتحريـر السـودان)، لإنهـاء الحـرب الأهليـة. اختتمـت عمليـة السـلام هـذه، بوسـاطة مـن "الهيئـة الحكوميـة للتنميـة" الإقليميـة وبدفـع مـن البلـدان الغربيـة، بتوقيـع اتفـاق السـلام الشـامل سـنة 2005.

منـح الاتفـاق القائـم علـى تشـارك الثـروة والسـلطة الجنـوب شـبه اسـتقلال، كمـا حـدد فتـرة انتقاليـة يُقـرّر الجنوبيـون بعدهـا البقـاء أم الانفصـال وتأسـيس دولتهـم الخاصـة. بعـد أشـهر قليلـة مـن توقيـع الاتفـاق، خـرج مئـات الآلاف للترحيـب بقائـد الحركـة الشـعبية لتحريـر السـودان، الدكتـور جـون قرنـق دي مابيـور إثـر وصولـه الخرطـوم. قُتِـل قرنـق

21- في يناير 2017، خفف الرئيس الأمريكي باراك أوباما من العقوبات. في أكتوبر من نفس العام، رفع دونالد ترامب المزيد من العقوبات. ومع ذلك، فإنّ العقوبات المفروضة فيما يتعلق بنزاع دارفور لا تزال قائمة، كما هو الحال مع بعض المسؤولين. انظر: (Department of Treasury. N.d.)

22- لإلقاء نظرة على تاريخ القطاع النفطي في السودان انظر: see Ziada, I. S.H., 2007. Oil in Sudan: Facts and Impact on Sudanese Domestic and International Relations. Madrid: Universidad Autonoma de Madrid

بُعيد ذلك في تحطم طائرة، مما أشعل الاحتجاجات وأعمال الشغب في العاصمة لعدة أيام قُتِل خلالها الكثيرون[23].

رغم كلمة "الشامل" في عنوان الاتفاق، إلا أنه سعى لإيجاد حل للصراع في الجنوب فقط. انفجر الصراع في دارفور سنة 2003 في أوْج مفاوضات عملية السلام حين أعلن متمردون مسلحون معارضتهم للدولة. كانت استجابة النظام للانتفاضة كارثية. بينما كان يتفاوض من أجل السلام في الجنوب، شن النظام في دارفور ما يمكننا وصفه فقط بسياسة حرب إبادة جماعية أدت إلى مقتل مئات الآلاف وتشريد الملايين. قاد ذلك، سنة 2005، إلى توجيه المحكمة الجنائية الدولية للبشير وآخرين من إدارته اتهامات بالإبادة الجماعية وجرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية.

الطريق إلى الثورة: بين 2011 و2018:

كان لانتفاضات "الربيع العربي" وقعًا مهمًّا على الساحة السياسية السودانية. حاول شباب سودانيون الاستلهام من تلك الأحداث لتنظيم احتجاجات في يناير 2011، مستعينين بموقع فيسبوك، إلا أنها لم تلقَ زخمًا شعبيًّا وقُمِعت سريعًا[24]. ولكن تُوبِعت عن كثب التحركات وتكتيكات الاحتجاجات في تونس، وخاصة تلك الجارية في الجارة مصر. أبدى السودانيون كذلك انتباهًا للطريقة التي استطاع بها الجيش المصري القيام بثورة مضادة، وهو أمر ألفه السودانيون جيدًا عبر تاريخهم الخاص. كما تابع السودانيون عن قربٍ أيضًا الانتفاضة في الجارة ليبيا والحرب الأهلية التي تلتها. استشهد النظام في السنوات الموالية بالعنف الحاصل في ليبيا وسوريا كتحذير لهؤلاء الذين ينشدون سقوطه، وكأنه لا يوجد خيار غير الاستبداد أو الإرهاب الشامل. علاوة على هذه الثنائية الخاطئة، كان النظام مخادعًا: إذ تواجد الإرهاب في أجزاء شاسعة من البلاد على مدى عقود.

أعلن جنوب السودان استقلاله في يوليو 2011. انقسمت البلاد بذلك شطرين.

23- Young, J., 2005. “John Garang’s Legacy to the Peace Process, the SPLM/A & the South”. Review of African Political Economy 32(106), pp. 535-548.

24- الجزيرة 30 يناير 2011: مواجهات بين الشرطة السودانيّة ومحتجين.

استقبل الجنوبيون هذا القرار التاريخي بفرح ونشوة أما الشماليون فقد كان بمثابة الصدمة لهم. ومع ذلك، فقد مثل هذا الحدث نقطة تحول على عدة جبهات. أدى أولًا إلى تدهور سريع في اقتصاد البلاد بالنظر لوجود معظم حقول النفط داخل حدود جنوب السودان: خسر نظام الإنقاذ إذًا 75% من عائدات نفطه. مثلما علق جلبير أشقر: "... أُضْعِفت الطبقة العاملة بشكل كبير في ظل نظام البشير، بسبب التراجع البالغ للتصنيع لصالح اقتصاد ريعي قائم على استخراج الموارد الطبيعية (النفط، لغاية انفصال جنوب السودان سنة 2011، والذهب وغيره من المعادن الأخرى والخامات) وعبر تفكيك القطاع العام والتخلي عن خدماته لصالح لقطاع الخاص[25]. ألقت خسارة النفط بالنظام في لُجٍّ أزمة عميقة شهدت وصول الفساد إلى مستويات غير مسبوقة وإلى بيع موارد البلاد لأعلى المُزايدين. من سخرية القدر، وقع تأجير أجزاء شاسعة من الأراضي الفلاحية للمستثمرين الخليجيين في بلد يتسم بالضعف الشديد لأمنه الغذائي. بدأت تكلفة المعيشة في الخروج عن نطاق السيطرة ولم تكن آثارها مقتصره على الفقراء والطبقة العاملة فحسب، بل أثرت كذلك على الطبقات الوسطى".

ثانيًا، حصل تحول في الوعي الشعبي ونمت نشاطية متزايدة، كنتيجة للفشل في إنهاء الحرب في دارفور وفي محافظة النيل الأزرق وجبال النوبة/ جنوب كوردوفان (مناطق واقعة على الحدود بين السودان وجنوب السودان).

ثالثًا، أثرت مشاكل التدفق النقدي للنظام في قدرته على الحفاظ على دوائره وشبكات المحسوبية الخاصة به. حاول البشير وحزبه، بدعم من الغرب، إنقاذ أنفسهم عبر مسار "الحوار الوطني" الذي أُطلِق سنة 2014. ونظرًا لافتقاره للمشروعية لم ينجح في وضع حد للأزمة. بدأ الوعي العام يتوحد حول الحاجة للإطاحة نهائيًا بالنظام.

تفاقمت الأزمة السياسية في 2012 وبداية 2013 حين حاول النظام فرض التقشف لتعويض خسائر إيرادات النفط. أدى ذلك لاضطرابات شنها الأساتذة والأطباء

25- Achcar, G., 2020. Sudan's revolution at a crossroads. Le Monde Diplomatique (English edition), May.

واندلعت احتجاجات متفرقة ضد التقشف، كان أبرزها في يونيو ويوليو 2012.

في يناير 2013، التقت مجموعات معارضة مسلحة وغير مسلحة في كمبالا بأوغندا لتوقيع "ميثاق الفجر الجديد". وهي وثيقة تشير إلى التزامهم الموحد بمواصلة المقاومة المسلحة والسياسية للنظام. وقعت مجموعات معارضة على الميثاق منها: الجبهة الثورية السودانية (مكونة في معظمها من حركات متمردة مسلحة) وتحالف قوى الإجماع الوطني (تأسست في 2010 وتضم أغلب الأحزاب السياسية المُعارضة) ومجموعات من المجتمع المدني (مثل الحركات الشبابية: التغيير الآن وقرِفنا). أكد الميثاق على الطابع التعددي للإثنيات والأديان بالبلاد وعلى فيدراليتها، وأعرب عن نيته تشييد دولة ديمقراطية على أسس المساواة في المواطنة والسلام وحقوق الإنسان[26].

في سبتمبر 2013، قمع النظام بقسوة الاحتجاجات في نيالا بجنوب دارفور[27]. بعد أسبوع اندلعت المزيد من الاحتجاجات، هذه المرة في ودمدني بولاية الجزيرة وسط السودان، ثم امتدت إلى الخرطوم ومدن أخرى. وقد جاءت الاحتجاجات ردًّا على رفع الدعم وتراكم الضغوط الاقتصادية وانتشار البطالة، خاصة بين خريجي الجامعات. قبل يوم من إعلان رفع الدعم، أغلق النظام المدارس الثانوية والجامعات. قتلت قوات الأمن في غضون أيام ما لا يقل عن 175 رجلاً وامرأة، معظمهم من الشباب، كما ألقت القبض على عدد كبير منهم[28]. كشفت الفترة عن فراغ في الساحة السياسية، في ظل عدم بروز كيان قادر على قيادة الاحتجاجات وتوجيهها. ومع ذلك، يمكننا أن نربط بخط بين احتجاجات سبتمبر 2013، والثورة التي حدثت بعد ذلك بخمس سنوات. عدد الشهداء وصغر سنهم وتداول صورهم وقصص حياتهم على وسائل التواصل الاجتماعي، ومطالبات عائلات الضحايا بالقصاص والاعتصامات العديدة، كلها عوامل عززت روح المواجهة والمقاومة والإرادة الشعبية لإسقاط النظام.

Sudan Tribune. 2013. The New Dawn Charter -26
that is Signed Between the Sudan Revolutionary Front and the National Consensus Forces. 5 January

.Human Rights Watch. 2015. "Sudan: Dozens Killed During Protests". 27 September -27

Human Rights Watch. 2014. World Report 2014: Sudan Events of 2013 -28

بينما اعتُبِرت احتجاجات 2013 نصرًا للنظام، فقد أصبحت كذلك أرضًا خصبة نمت فيها المقاومة ولغة احتجاج جديدة. انبثقت مجموعات المقاومة المحلية نتاج لتلك الاحتجاجات.

ديسمبر 2018: الاحتجاجات تتطور إلى ثورة.

بدأ الحراك الشعبي سنة 2018 يوم 13 ديسمبر بمظاهرة في مدينة الدمازين بولاية النيل الأزرق. تبعتها مظاهرة أخرى يوم 19 من نفس الشهر بمدينة عطبرة، التي كانت موطنًا للنقابة القوية لعمال سكك الحديد.

انتشرت الاحتجاجات سريعًا في مدن أخرى. كانت في البداية ضد الارتفاع المطرد للأسعار، خاصة الخبز، لتتحول لاحِقًا إلى مظلة لمجموعة من المظالم وترفع مطلبًا واحدًا: إسقاط النظام. في الأسابيع الموالية، أصبح شعار "تسقط بس!" صرخة جامعة مدوية في كل أنحاء البلاد. يُظهِرُ هذا الشعار أنه لا نية للحراك في التفاوض أو المراوغة، بل فقط المواصلة حتى إسقاط النظام. اعتقل في هذا الأخير عديد من الطلبة الدارفوريين وانتزع منهم اعترافات بالقوة واتهمهم بالانتماء إلى حركات تمرد والتحريض على الفتنة. رفض المحتجون تلك الاتهامات هاتفين: " كل البلد دارفور!"

احتشد تجمع المهنيين السودانيين (ت. م. س) المحظور وراء الاحتجاجات. واستجاب الناس لدعوة التجمع الأولى إلى مظاهرة أمام القصر الجمهوري يوم 25 ديسمبر 2018. نجحت المظاهرة رغم القمع المعتاد. وقد كان التجمع بدأ بالفعل في التنسيق سرًّا مع قوى سياسية أخرى.

بعد 25 ديسمبر، أعلن (ت. م. س.) على صفحته في فيسبوك روزنامة الاحتجاجات. بدأ عشرات الآلاف في الانضمام إلى المظاهرات الأسبوعية، بداية بمواكب الأحياء التي شقت طريقها عبر الغازات المسيلة للدموع والرصاص والاعتقالات للانضمام إلى مواكب أخرى، فتندمج سوية في موقع مركزي واحد أو أكثر. التف الشباب، خاصة الذين أعمارهم دون الثلاثين عامًا، أو من يُعرفون في السودان بِـ "جيل الإنقاذ"، حول تكتيك أساسي: العصيان المدني السلمي.

تحت قيادة (ت. م. س.)، تم التوقيع على "إعلان الحرية والتغيير"، الذي وحد جل قوى المعارضة السياسية. كانت غرة يناير 2019 يومًا تاريخيًّا: إذ صادف العيد الثالث والستين لاستقلال البلاد. عبأ الإعلان الحراك على أساس مجموعة محددة من المطالب:

1. الإنهاء الفوري واللامشروط للنظام.

2. تشكيل حكومة انتقالية ذات تمثيلية، تضمّ "كفاءات... حاصلة على توافق الأغلبية". تدير هذه الحكومة شؤون البلاد لمدة أربع سنوات وتقوم خلالها: بمفاوضات من أجل السلام وضمان العودة الطوعية للمشردين، ومعالجة الأسباب الجذرية للصراع وتفكيك دولة الحزب الواحد وإيقاف تدهور الاقتصاد، وإعادة توجيه موارد الدولة نحو الإسكان والصحة والتعليم. عليها كذلك ضمان حقوق النساء وعقد مؤتمر دستوري وانتخابات ذات مصداقية.

3. الوقف الفوري للانتهاكات بحق المتظاهرين السلميين، وإلغاء جميع القوانين المقيدة للحريات، وملاحقة مرتكبي الجرائم بحق الشعب.

اختتم الإعلان بالتعهد بـ "مواصلة النزول إلى الشارع وقيادة النضال السلمي" حتى تحقيق المطالب[29]. وقع الإعلان اثنين وعشرين كيان من ضمنهم: (ت. م. س.) وقوى الإجماع الوطني (ق. ج. و.) وقوى نداء السودان ومبادرة "لا لقهر النساء" و"منسم" (ائتلاف يضم مجموعات نسائية ونشطاء) ولجان المقاومة وغيرها. شكل الموقعون تحالف "قوى الحرية والتغيير"، الذي لعب منذ ذلك الحين دورًا أساسيًّا في الثورة.

أكد قتل الشباب والعنف ضد المتظاهرين استحالة استمرار الوضع القائم. كسب المحتجون زخمًا في أوائل سنة 2019. تحولت بيانات (ت. م. س.) و"جداول" العصيان المدني المنشورة على صفحة التجمع على فيسبوك إلى ما يشبه القانون

29- يوجد الإعلان كاملًا على الموقع الرسمي لتجمع المهنيين السودانيين.

الثوري[30]. لم يعرف غالبية المحتجين أسماء الأفراد الذين كونوا التجمع عدا بعض المتحدثين باسمها (تم سجن أولئك الموجودين في السودان في وقت مبكر).

بدأ السودانيون في المهجر بتنظيم احتجاجات تضامنية في مدن مثل برلين ولندن وواشنطن، مرسلين الأموال إلى البلاد؛ لمعالجة الجرحى، ومستخدمين وسائل التواصل الاجتماعي؛ لنشر المعلومات ودعوات التضامن. مع تصاعد الانتفاضة في فبراير 2019، حل البشير الحكومة وأعلن حالة الطوارئ لسنة كاملة، مانعًا كل التجمعات غير المرخص لها. كما منح قوات الأمن صلاحيات واسعة لقمع الاحتجاجات. أعفى البشير كذلك حكام الولايات المدنيين والمنتسبين لحزب المؤتمر الوطني واستبدلهم بحكام عسكريين. فُرِض حظر التجول ليلاً إلا أن الاحتجاجات المحلية خرقته بصفة متواصلة[31].

في الأسابيع السابقة على أبريل 2019، دعا (ت. م. س.) إلى مظاهرة مليونية في السادس من أبريل 2019. وهو تاريخ ذو رمزية عالية، إذ يقابل ذكرى نجاح انتفاضة 1985 في إزاحة نظام النميري.

خرج الناس زرافات ووحدانًا بعديد من المدن وفي كافة أنحاء البلاد. قابلهم النظام بالعنف، وفي الخرطوم واجه المحتجون الغاز المسيل للدموع والرصاص في الساحة المقابلة للقيادة العامة للقوات المسلحة السودانية[32]. لمواجهتهم، احتل المحتجون المكان ونصبوا المتاريس دفاعًا عن أنفسهم. أعقبت ذلك معارك ضارية مع الجيش وقوات الأمن وقوات الدعم السريع[33]

30- للحصول على مثال على "جداول" (ت. م. س) (ولاحقًا قوى الحرية والتغيير)، راجع تجمع المهنيين السودانيين. 2019. "جدول العمل الثوري الشعبي". 5 يوليو.

31- AP News, 2019. A timeline of key events in Sudan's unfinished revolution. Associated Press. 3 June

32- للحصول على وصف تفصيلي لتجربة أحد المتظاهرين في 6 أبريل 2019، انظر عباس، ر.، 2019. ثورة السودان غير المكتملة: انتهى الدكتاتور، لكن القتال مستمر. مجلة الأمة. 26 أبريل.

33- قوات الدعم السريع هي قوة شبه عسكرية شكلها البشير في عام 2013؛ لخوض حروبه بطريقة أكثر مرونة وفتكًا من الجيش. انبثقت الميليشيا، بقيادة محمد حمدان دقلو ("حميدتي")، من ميليشيات الجنجويد التي مارست الإبادة الجماعية. في السنوات التي سبقت الثورة، كان البشير قد بدأ في نشر قوات الدعم السريع في جميع أنحاء البلاد لقمع الاحتجاجات، بما في ذلك في الخرطوم في عام 2013. نمت الميليشيا من حيث الحجم والقوة نتيجة لمشاركة النظام في عملية الخرطوم - صفقة عقدتها (ق. د. س) مع الاتحاد الأوروبي من أهدافها السيطرة على الهجرة عبر مراقبة الحدود. لكن يُعتقد أن ثروة قوات الدعم السريع تأتي في الغالب من سيطرتها على بعض مناجم الذهب وتعاونها مع المملكة العربية السعودية في حربها على اليمن والتي ساهمت فيها قوات الدعم السريع بعشرات الآلاف من المقاتلين.

سجل السادس من أبريل 2019 والأيام المتتابعة سقوط قتلى أكثر بين المتظاهرين. دافع بعض العساكر من ذوي الرتب الدنيا عن المحتجين معارضين تطبيق أوامر القيادة والهجوم عليهم. قُتِلَ البعض منهم فيما حُوكِمَ البعضُ الآخر عسكريًّا. بين 6 و10 أبريل، كَبُرَ اعتصام الخرطوم وأُقيمت اعتصامات في اثني عشرة مدينة أخرى على الأقل.

أزاح العسكر الدكتاتور عن السلطة في 11 أبريل 2019، واعتقلوا البشير ومسؤولي نظامه الكبار ووضعوهم تحت الإقامة الجبرية. شكَّل العسكر مجلسًا عسكريًّا انتقاليًّا (م. ع. إ.)، مثلما فعلوا عامي 1964 و1985. ترأس المجلس الجنرال ابن عوف، الذي كان مُقرَّبًا من البشير. تجمع مئات الآلاف، إن لم يكن مليون شخص، للاحتفال منشدين" الثورة بدأت يا دوب" يعني الآن". رفض تجمع المهنيين السودانيين وقوى الحرية والتغيير والمحتجين الانقلاب [34].

الفاعلون الثوريون:

أهم الفاعلين في الثورة السودانية هم ملايين الناس الذين اختاروا الانضمام إلى عصيان مدني جماعي معرضين أنفسهم لخطر كبير. في بلد 61% من سكانه أعمارهم أقل من 25 عامًا[35]، يعتبر ما وقع ثورة شباب. لقد جُرِّدوا من مستقبلهم وكرهوا النظام ولم يثقوا بالسياسيين. حتى أولئك الذين تخرجوا من الجامعة وجدوا أنفسهم في مواجهة الحياة في ظل بطالة ساحقة. أما الآخرون الذين قدموا من مناطق البلاد التي تعرضت لنهب الدولة واستهدفتها آلة الحرب وأجهزتها الاستخباراتية وميليشياتها، فقد واجهوا احتمالات أسوأ.

بالنسبة للعديدين، مثلت الهجرة إلى الخرطوم أو غيرها من المدن "الآمنة"، لكن ذات الاقتصاد الكاسد، أو إلى بلدان الخليج العربي أو أوروبا أو غيرها، طيلة عقود أحد الخيارات القليلة المتاحة للنجاة.

34- للاطلاع [باللغة العربية] على سبب عدم قبول المجلس العسكري الانتقالي للحركة، انظر سعيد. أ. ك 2019، التحديات التي في وجه ثورة السودان راديو دبنقا. 15 أبريل.

35- إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة، شعبة السكان. 2019. سكان العالم 2019: رسم بياني حائطي (ST / ESA / SER.A / 434).

رغـم رفضهـم الانضمـام إلـى الأحـزاب السياسـية، نشـط العديـد مـن الشـباب السـوداني لسـنوات فـي المجموعـات السياسـية بالجامعـات، مشـاركين فـي المظاهـرات الطلابيـة أو كجـزء مـن مجموعـات احتجـاج مثـل قرفنـا والتغييـر الآن، أو فـي الجمعيـات المقامـة علـى أسـاس جهـوي أو اثنـيّ.

انضـم عـدد أكبـر إلـى المجموعـات التطوعيـة مثـل: "النفيـر" ومبـادرة "شـارع الحـوادث" و"صدقـات" وغيرهـا. بُنيـت هـذه المبـادرات علـى المُثُـل السـودانية للتضامـن والتعـاون فركـزت علـى توفيـر الخدمـات الاجتماعيـة والإغاثـة فـي حـالات الكـوارث والتـي لـم تكـن الدولـة مسـتعدة لتقديمهـا. حـاول النظـام عـدة مـرات قمـع هـذه المبـادرات أو تدجينهـا. علـى هـذا النحـو، يُعـدُّ المجتمـع المدنـي سـاحة رئيسـية للصـراع، الـذي لـم يكـن سياسـيًّا بشـكلٍ صريـح بـل ركـز علـى الاعتمـاد علـى الـذات وتقديـم الخدمـات[36]

كان الرجـال والنسـاء والأطفـال السـودانيون النازحـون مـن المناطـق الريفيـة والمناطـق المتضـررة مـن الحـرب مكونًـا هامًّـا مـن المحتجِّيـن. إذ يوجـد فـي السـودان إحـدى أعلـى نسـب النازحيـن داخليًّـا فـي العالـم. اضطـر الكثيـرون إلـى التنقـل إلـى ضواحـي المـدن، حيـث لا يتوفـر عـادة المـاء الصالـح للشـراب ولا الكهربـاء أو الطرقـات اللائقـة ولا السـكن الآمـن أو المـدارس أو وسـائل النقـل الأمنـة.

خلـق نزوحهـم انقسـامًا بيـن المركـز والأطـراف؛ حيـث تولـت الشـرطة دور حـرَّاس المناطـق الحضريـة الغنيـة ضـد التهديـدات السياسـية والاجتماعيـة المتصـورة عـن المناطـق الريفيـة وشـبه الحضريـة للمـدن، والتـي تـم التعامـل معهـا بشـكل جماعـي كمصـادر للمجرميـن لا للضحايـا[37]. لذلـك لـم يكـن اعتصـام الخرطـوم الحاشـد مجـرد احتـلال مـن المحتجيـن لقلـب العاصمـة، بـل كان أيضًـا احتـلالًا مـن نازحـي المناطـق شـبه الحضريـة لوسـط المدينـة، التـي عـادة مـا يقـع إقصاؤهـم منهـا مـا لـم يجـدوا بهـا عمـلًا. إضافـة إلـى ذلـك بـدأت المواكـب فـي التوافـد، بيـن أبريـل ويونيـو 2019، مـن جميـع أنحـاء البـلاد لتعزيـز الاعتصـام.

36- Gienger, V.,2013. Sudan Flood-Relief Needs Give Country's Young Activists A New Cause. 9 September.

37- Berridge, W. J., 2015. Civil Uprisings in Modern Sudan: The 'Khartoum Springs' of 1964 and 1985. UK: Bloomsbury Academic

لـم تكـن النسـاء جـزءًا لا يتجـزأ مـن المواكـب والاعتصامـات فحسـب - غالبًـا مـا كان عددهـن أكبـر مـن الرجـال - ولكـن كذلـك تألفـت عديـد مـن المواكـب، وخاصـة تلـك القادمـة مـن المناطق المتضـررة مـن الحـرب ومـن مجتمعـات النازحيـن، فـي معظمهـا مـن النسـاء.

وإن لعبـت النسـاء أدوارًا هامـة فـي انتفاضتـي 1964 و1985[38]، كمـا قاومـت مجموعـات المعارضـة النسـائية النظـام طويـلاً، إلا أن المُشـاركة النسـائية الجماهيريـة والقياديـة فـي ثـورة ديسـمبر كانـت أمـرًا غيـر مسـبوق فـي تاريـخ السـودان السياسـي.

بالنسبة للفاعلين المُمأْسَسين،

يعـد تجمـع المهنييـن السـودانيين الفاعـل الثـوري المتنظـم الرئيـس. ويعتبـر جـزءًا مـن التاريـخ الغنـي للنقابـات والجمعيـات المهنيـة فـي السـودان، وهـو تاريـخ متشـابك بعمـق مع إرث مقاومـة الديكتاتوريـة العسـكرية. كانـت أولـى أوامـر السـلطة، بُعيـد انقلابـي 1969 و1989، حـل النقابـات وتعويضهـا بنقابـات تحـت سـيطرة الدولـة، نظـرًا للتهديـد الـذي شـكلته مـع الجمعيـات المهنيـة عبـر تنظيمهـا وقيادتهـا لمحـاولات الإطاحـة بالأنظمـة الاسـتبدادية.

يمكـن إرجـاع بدايـات تجمـع المهنييـن السـودانيين إلـى عـام 2012. فـي مواجهـة إجـراءات التقشـف الحكوميـة، كتبـت لجنـة المعلميـن مذكـرة وجَّهَتْهَـا إلـى مؤتمـر نقابـة أطبـاء السـودان الشـرعية. اقترحـت المذكـرة تشـكيل هيئـة موحـدة للنقابـات والجمعيـات المسـتقلة. شـهد ذلـك العـام إضرابـات الأطبـاء والمعلميـن وبدايـة إحيـاء العديـد مـن النقابـات والجمعيـات الأخـرى.

اسـتجابة لدعـوة لجنـة المعلميـن، انضمـت ثمانـي هيئـات لتشـكيل (ت. م. س) فـي يوليـو 2012: لجنـة المعلميـن، نقابـة الأطبـاء الشـرعية، تجمـع أسـاتذة الجامعـات، لجنـة أطبـاء السـودان المركزيـة، شـبكة الصحفييـن، تحالـف المحاميـن الديمقراطييـن، وجمعيـة

38- Abdel Halim, A. M., 2009. "Women's Organisations Seeking Gender Justice in the Sudan: 1964-1985". Review of African Political Economy, 36 (121), pp. 389-407

موظفي البنوك ومبادرة استعادة نقابة المهندسين.

خلال نضالات السنوات اللاحقة، غادرت بعض هذه المجموعات بينما انضمت أخرى مع ظهور هيئات جديدة. في ديسمبر 2013، عقد الاجتماع الرسمي الأول لمجلس (ت. م. س.)؛ حيث تمت صياغة ميثاق ووضع خطة عمل.

أجرى (ت. م. س.) في أغسطس 2018 دراسة حول الأجور. وفي ديسمبر من نفس السنة تظاهر أعضاء (ت. م. س.) أمام بنايات الاتحاد العام لنقابات عمال السودان (الهيئة النقابية التي تسيطر عليها الدولة). رفض هذا الأخير استلام مذكرة التجمع التي يطالب فيها برفع الحد الأدنى للأجور وتحسين الظروف المعيشية.

في نفس اليوم، أصدرت اللجان الإعلامية للمعلمين والأطباء مذكرات تعبئة لأعضائها، مبرزة أهمية انضمام النقابات للاحتجاجات. تم تغيير طبيعة مسيرة 25 ديسمبر 2018 المبرمجة، من مسيرة للمهنيين إلى نداء عام للتظاهر أمام القصر الجمهوري في الخرطوم. منذ تلك اللحظة انضم (ت. م. س.) وبشكل صريح لا لبس فيه إلى الحراك المطالب بإسقاط النظام.

يعد تحالف قوى الحرية والتغيير (ق. ح. ت.) فاعل آخر في الثورة أنتجه إعلان الحرية والتغيير. تتكون (ق. ح. ت) من تحالفات معقدة بين أطراف تحمل أحيانًا أجندات متنافسة. منذ سنة 2019 غادرت بعض المجموعات بينما انضمت أخرى للتحالف. في نظر الجمهور، كان حضور (ت. م. س.) وهيئات المجتمع المدني مفتاح قبوله لـ (ق. ح. ت) كناطق باسم الحركة الاحتجاجية. اتسم هذا القبول بالحذر نظرًا لأن بعض مكونات التحالف كانت قد تعاملت مع النظام فيما قبل.

في تناقض صارخ مع الأحزاب السياسية التي تشكل قوى الحرية والتغيير، والتي ينظر الشباب إلى العديد منها على أنها تمثل أنماطًا عتيقة من أنماط السياسة، نجد لجان المقاومة والتغيير. وفي حين أن تأسيس بعض هذه اللجان سابق للحراك، فقد ظهر معظمها أثناء الثورة أو بعد الثورة. هذه اللجان هي الابتكار الرئيس لثورة ديسمبر، وهي منظمات قاعدية يتركز معظمها في الأحياء، وعملت سرًا في أولى أيام الثورة في المساعدة على التواصل بين (ت. م. س/ ق. ح. ت) والناس في الأحياء.

كما نظمت احتجاجات محلية وحشدت للإضرابات، أنشأت متاريس دفاعية، ساعدت أسر الجرحى والقتلى، كما أبقت على حيوية ذكرى شهداء مختلف المناطق، ونظمت المواكب والعديد من الأنشطة الأخرى.

تم إنشاء اللجان بطريقة لا مركزية تمكن كل منطقة من اتخاذ القرارات المناسبة لسياقها الخاص. أمست لجان المقاومة تحديًا للأجهزة الأمنية، إذ كان من الصعب السيطرة عليها وكثيرًا ما كانت مستهدفة من قِبَل هذه الأجهزة. كان دور لجان المقاومة خلال الثورة هو تنفيذ الخطط الاحتجاجية، وكذلك التأكد من أن تجمع المهنيين وقوى الحرية والتغيير كانوا على دراية بالمطالب المحلية وأنها قد أُخِذَت على مَحمَلِ الجد. لقد تعاونوا مع قوى الحرية والتغيير لكنهم لم يكونوا تحت سيطرتها. وكما ينظرون إلى أنفسهم (وأصبح الناس ينظرون إليهم على هذا النحو بشكلٍ متزايد) على أنهم صمام أمان الثورة. كما ظهرت لجان خدمة الأحياء خلال الثورة، وقد كانت متداخلة في كثير من الأحيان مع لجان المقاومة. قدمت تلك اللجان الخدمات (وتستمر في ذلك) التي تحتاجها المناطق المحلية في ظل الفراغ الذي تركته الحكومة. أصبحت لجان المقاومة لاعبًا ثوريًّا أساسيًّا[39]، خاصة منذ أبريل 2019، حين ساعدت على تنظيم الاعتصامات والدفاع عنها.

كما غذَّت لجان المقاومة مطالب الثورة بالموسيقى والشعر الغنائي واللغة المبتكرة، منعشةً بذلك المقاومة ومساعدة على تشكيل ثقافة الاحتجاج. عنى صعودها كجماعة ضغط وكقوة سياسية أنه لا يمكن تجاهلها من قبل قوى الحرية والتغيير أو من العسكر. مثَّل ظهورها شكلًا جديدًا من أشكال المقاومة الشعبية وفاعلًا حديثًا وقويًّا في الساحة السياسية السودانية.

التوطيد، القمع والتفاوض:

بعد تأسيس المجلس العسكري الانتقالي (م. ع. ان) في أبريل 2019 وبداية الاعتصامات، غدا شعار "مدنية" صيحة الحشد الرئيسة للمتظاهرين. لم يرغبوا

39- Ahmed. A. M. M. 2019. "Sudan and the Peaceful Revolution." 11 August.

فقـط فـي إنهـاء نظـام البشـير، بـل أرادوا إنهـاء الحكـم العسـكري برمتـه، وهـو هـدف أكثـر طموحًـا. أصبحـت الاعتصامـات بمثابـة التجسـيد المـادي للتوافـق الجماعـي علـى المطالبـة بالحكـم المدنـي.

كما وفرت الاعتصامات مساحة للشباب لممارسة السياسة بحريةٍ، وهو أمرٌ لم يعهدوه من قبل. كانت النقاشات والمناظرات يومية بين المحتجين والقادة السياسيين. تمكن الناس من التعبير عن آرائهم وسماع تجارب الآخرين، تمكنوا كذلك من التشبيك وممارسة الفن وحتى إنتاج الصناعات اليدوية الصغيرة.

في مايو 2019، تواصل العنف ضد المحتجين في العديد من المناطق بالبلاد. تعرض اعتصامي نيالا وزالنجي في دارفور إلى اعتداءات بالعنف[40]. في 15 مايو، تم الاعتداء على اعتصام الخرطوم وقُتِل ستة محتجين فيما صار يُعرف بـ "مذبحة الثامن من رمضان". علقت (ق. ح. ت.) المفاوضات احتجاجًا على ذلك.

بدأت المفاوضات بين (م. ع. ان) و(ق. ح. ت) في أبريل 2019. أصرت (ق. ح. ت) في البداية على فترة انتقالية بأربع سنوات قبل إجراء الانتخابات، مجادلة بأن سبب فشل الثورات السابقة هو قصر الفترات الانتقالية التي لم تسمح بتفكيك الأنظمة القديمة كليًّا. أصرت كذلك على لجنة تحقيق إقليمية أو دولية للتقصي في الجرائم المرتكبة ضد المحتجين، في محاولة منها؛ لتحصين التحقيق من تدخلات العسكريين.

جادل المجلس العسكري الانتقالي من أجل فترة انتقالية قصيرة يكون ممسكًا خلالها بالسلطة. سارعت الإمارات العربية المتحدة والسعودية، المعروفتان لدى السودانيين بأنهن ممولات (م. ع. ان)، إلى إرسال 3 مليار دولار أمريكي كدعم للمجلس. أواخر ذات الشهر زار البرهان وحميدتي - رئيس المجلس العسكري الانتقالي ونائبه - الإمارات والسعودية عدة مرات. في الأثناء، نظم (ت. م. س) إضرابًا عامًّا يومي 28-29 مايو. هُوجمت الاعتصامات مجددًا في أواخر مايو وأوائل يونيو.

Forces for Freedom and Change. 2019. A Statement on the Nyala and Zalingei Events. 4 May -40

منذ سقوط البشير، قدم (م. ع. ان) نفسه في هيئة المدافع عن الثورة. لم يمنع ذلك الضباط العسكريين من وصف الاعتصامات بالفوضى وبأنها تهديدٌ للثورة، متعهدين باستعادة النظام. أصدر (ت. م. س) دعوة عاجلة للتحرك في 30 مايو بعد تسجيل المزيد من الهجمات ومقتل المحتجين، مع تحذيرٍ واضحٍ من أن المجلس العسكري الانتقالي كان يستعد لهجوم واسع النطاق على الاعتصام[41].

في ساعات الصباح الأولى لليوم قبل الأخير من شهر رمضان الموافق لـ 3 يونيو 2019، وقع الهجوم على قلب اعتصام "القيادة العامة" بالخرطوم، وعلى الاعتصامات في مدن أخرى. لقد كان هجومًا شاملًا هدفًا جزئيًّا إلى إفراغ المنطقة قبل حلول عيد الفطر، الذي كان من المتوقع أن تتزايد خلاله أعداد المحتجين. أمل العسكر أيضًا، من خلال تفكيك الاعتصام، أن يُحسِّن من موقعه التفاوضي حيال قوى الحرية والتغيير. فقد العديد من المحتجين حياتهم على المتاريس، خلال محاولتهم الدفاع عن الاعتصام. قُتل في ذلك اليوم ما لا يقل عن مئة محتج، ورميت بعض الجثث في النيل[42]. اقترف مسلحون تابعون للدولة حملة اغتصابات واسعة خلال تفكيك الاعتصامات. التفاصيل حول هذه الاغتصابات ضئيلة لأن موضوع العنف الجنسي ما زال مصدرًا للوصم والعار بالنسبة للضحايا[43].

قطع (م. ع. ان) الإنترنت لتعطيل قدرة (ت. م. س) على التواصل عبر صفحته على فيسبوك ولإعاقة استخدام المحتجين لواتساب. كما هدف ذلك، على ما يبدو، إلى منع بث مشاهد العنف على الإنترنت. كرد على المجزرة وحملة العنف دعا تجمع المهنيين وقوى الحرية والتغيير إلى عصيان مدني جماعي وإضراب مفتوح[44] . رغم نجاح هذا التحرك، قررت (ق. ح. ت) تعليقه في يومه الثالث بشكلٍ مثير للجدل. بدأت الخطط في التركيز على إنجاح المسيرة المليونية ليوم 30 يونيو.

41- تَجمُّعُ المهنيين السودانيين. 2019. دعوة مفتوحة لاتخاذ إجراءات عاجلة: خطر تصاعد العنف في منطقة الاعتصام في الخرطوم. 30 مايو.

42- Hatoum, B. and Magdy, S., 2019. "Sudan protesters say 40 bodies pulled from Nile in capital," Associated Press. 6 June

43- The Guardian. 2019. "Sudanese doctors say dozens of people raped during sit-in attack." 11 June

44- تَجمُّع المهنيين السودانيين. 2019. "عصيان مدني كامل وإضراب سياسي مفتوح لتجنب الفوضى". 4 يوليو.

فـي اليـوم المحـدد، اندلعـت احتجاجـات حاشـدة فـي الخرطـوم وفـي جميـع أنحـاء البـلاد. مثَّـل ذلـك عرضًـا للتحـدِّي مـن قِبَـلِ قـوى الحـراك. تقدَّمـت لجـان المقاومـة، فـي الفتـرة التـي سـبقت الاحتجـاج، لمـلء الفـراغ الـذي خَلَّفـه تجمـع المهنييـن وقـوى الحريـة والتغييـر نتيجـة انقطـاع الإنترنـت. حشـدت اللجـان النـاس داخـل الأحيـاء مـن خـلال التواصـل الشـفهي وكتابـات الشـوارع والتدوينـات المكتوبـة بخـط اليـد. وقـد نجحـت فـي ذلـك بشـكل باهـر.

سـلطت مجـزرة الثالـث مـن يونيـو الأضـواء علـى العسـكر. علـى الرغـم مـن تعليـق المفاوضات لبعـض الوقـت، إلا أنهـا اسـتؤنفت فـي نهايـة المطـاف فـي يوليـو بدعـم كامـل مـن الولايـات المتحـدة والعديـد مـن الـدول الأوروبيـة، خاصـة ألمانيـا. تقـدَّم الاتحـاد الإفريقـي إلـى الواجهـة كوسـيط مسـنود مـن الأمـم المتحـدة.

إثـر المجـزرة، اجتمعـت ببرليـن فـي يوليـو 2019 مجموعـة مـن الـدول والمنظمـات الدوليـة التـي أطلقـت عليهـا اسـم "أصدقـاء السـودان". ومـن بيـن هـؤلاء "الأصدقـاء" دول مثـل الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وألمانيـا، وكذلـك مصـر والمملكـة العربيـة السـعودية والإمـارات العربيـة المتحـدة، الذيـن عملـوا بجـد مـن أجـل إحبـاط الثـورة. كانـت لديهـم أجنـدات مختلفـة: مـن السـيطرة علـى الهجـرة إلـى مكافحـة الإرهـاب.

يـوم 17 يوليـو 2019، تـم الإعـلان عـن اتفـاق تقاسـم السـلطة بيـن (ق. ح. ت) و(م. ع. ان) [45]. لـم يرحِّـب المحتجـون بالاتفـاق وغـادر الحـزب الشـيوعي السـوداني الائتـلاف. اُعْتُبـر الاتفـاق ضعيفًـا فيمـا يخـص مسـائل الحصانـة والمحاسـبة علـى الجرائـم التـي ارتُكِبَـت فـي حـق المعتصميـن. أعلـن الوسـطاء والأحـزاب المُتفاوضـة أن إعلانًـا دسـتوريًّا سـيعوِّض الاتفاق السياسـي. وُقِّـع هـذا الإعـلان الـذي سُـمي بــ الوثيقـة الدسـتورية فـي 4 أغسـطس 2019 [46].

ألغـت الوثيقـة الدسـتور الانتقالـي للدولـة (لعـام 2005) ودسـاتير الولايـات، وحـدد إطـارًا للحكـم المشـترك بيـن المدنييـن والعسـكريين مدتـه تسـعة وثلاثـون شـهرًا، سـيقع خلالهـا، زعمًـا: تحقيـق السـلام، تفكيـك شـبكات الحـزب الحاكـم وجهـازه الأمنـي، وقْـف

45- Constitution.net 2019. الاتفاق السياسي لإنشاء الهياكل والمؤسسات الحاكمة في الفترة الانتقالية. 17 يوليو.

46- تشكّل المشروع. دستور السودان لعام 2019.

الانهيـار الاقتصـادي، إصـلاح الجيـش والميليشـيات، بـدء مسـار العدالـة الانتقاليـة بشـكل جـدِّي، إعـادة بنـاء الخدمـة المدنيـة، اسـتعادة اسـتقلالية القضـاء، حمايـة حقـوق المـرأة، وكتابـة دسـتور دائـم إلـى جانـب إجـراء انتخابـات ذات مصداقيـة إلـى جانـب مسـائل أخـرى (الفصـل 2، المـادة 8 مـن الوثيقـة).

تعكـس الوثيقـة الدسـتورية لعـام 2019 بقـوة اللحظـة السياسـية التـي كُتبَـت فيهـا. إذ تُجسِّـد فـي ذات الوقـت المكاسـب الهائلـة التـي حققهـا الحـراك الثـوري وكذلـك فشـل النخبـة السياسـية المدنيـة فـي تلبيـة مطالـب وتطلعـات الجماهيـر بشـكل كامـل.

شـددت الديباجـة القصيـرة للوثيقـة علـى "العـزم علـى وضـع لَبِنَـات النظـام المدنـي المُعافَـى لحكـم السـودان مسـتقبلًا، واسـتنادًا إلـى شـرعية الثـورة". وهـي جملـة تشـير إلـى الجـدل الـذي أحدثَتْـه قـوى الحريـة والتغييـر مـن خـلال موافقتهـا علـى تقاسـم السـلطة مـع العسـكر بعـد الوقفـة البطوليـة للشـعب السـوداني طيلـة ثمانيـة أشـهر بأكملهـا، ناهيـك عمـا سـبقها مـن عقـود.

نظـرًا لكـون المطلـب الأساسـي للثـورة كان دائمًـا حكومـة مدنيـة بالكامـل وانسـحاب كلـي للجيـش مـن السـلطة، مـرة واحـدة وإلـى الأبـد، يمكـن قـراءة هـذه الجملـة علـى أنهـا مناشـدة مـن قـوى الحريـة والتغييـر لصبـر الجماهيـر الحـذرة. وكذلـك محاولـة مـن المجلـس العسـكري الانتقالـي لإقنـاع الـرأي العـام شـديد التشـكيك بأنـه لا ينـوي التمسـك بالسـلطة بعـد الفتـرة الانتقاليـة.

فـي حيـن تعـد الوثيقـة تقدميـة علـى عـدة أصعـدة، إلا أنهـا تحتـوي علـى بعـض العلامـات الحمـراء. أكبـر هـذه الإشـكالات هـو الافتقـار إلـى آليـة واضحـة لإصلاح الجيـش وحـل ميليشـيات الدعـم السـريع، وهمـا مـن المطالـب الرئيسـة للمتظاهريـن والنازحيـن فـي السـودان. بـدلًا مـن أن تخضـع القـوات المسـلحة لسـلطة مجلـس الـوزراء، وضعتهـا الوثيقـة تحـت سـلطة مجلـس السـيادة، الـذي يتألـف مـن خمسـة مدنييـن وخمسـة عسـكريين/ قـوات الدعـم السـريع ومدنـي واحـد "محايـد". فعليًـا، يضـع ذلـك إصـلاح الجيـش فـي يـد العسـكريِّين.

كان علـى كُلٍّ مـن قـوى الحريـة والتغييـر والجيـش تقديـم تنـازلات كبيـرة: تنازلـت قـوى

الحريـة والتغييـر عـن رؤيتهـا الأولـى لحكومـة مدنيـة بالكامـل وانتقـال أطـول[47]، فيمـا تنـازل الجيـش عـن سـيطرته التامـة علـى السـلطة. ومـع ذلـك، يمكـن القـول إن الفائـز الأوضـح فـي الصفقـة كان حميدتـي وقـوات الدعـم السـريع. فـلأول مـرة فـي تاريـخ السـودان، اعترفـت الوثيقـة بوجـود ميليشـيا بالتـوازي مـع الجيـش.

تنـص المـادة 35 (1)، علـى سـبيل المثـال، علـى أن "القـوات المسـلحة وقـوات الدعـم السـريع مؤسسـة عسـكرية وطنيـة حاميـة لوحـدة الوطـن ولسـيادته". يشـير ذلـك إلـى حقيقـة أن الدعـم السـريع ليسـت فقـط قـوة هائلـة، بـل إنهـا كذلـك، رغـم تحالفهـا فـي معظـم الأحيـان مـع الجيـش، تُعَـدُّ لاعبًـا مسـتقلًا بذاتـه.

الاستنتاجات: ثورة ديسمبر والدروس المستخلصة إلى الآن:

بـدا فـي أولـى شـهور المرحلـة الانتقاليـة أن هنـاك تحـولًا مـن سياسـة الاحتجـاج إلـى سياسـة بنـاء الدولـة. وعلـى الرغـم مـن عـدم انحسـار الاحتجاجـات، خاصـة حـول العدالـة الانتقاليـة ثـم الإشـكالات الاقتصاديـة، إلا أنـه كانـت هنـاك فتـرة أيَّـد خلالهـا الـرأي العـام بشـكل واسـع إفسـاح المجـال أمـام العنصـر المدنـي فـي الحكومـة الانتقاليـة مـن أجـل إحـداث التغييـر.

قامـت الحكومـة المُكوِّنـة أساسًـا مـن "التكنوقـراط"، بقيـادة الاقتصـادي السـابق بالأمـم المتحـدة عبـد اللـه حمـدوك، ببعـض الخطـوات المهمـة نحـو تحقيـق مطالـب الثـورة. نذكـر علـى وجـه الخصـوص تعديـل الميزانيـة وتوجيـه الإنفـاق أكثـر نحـو التعليـم والصحـة، عوضًـا عـن الأمـن والدفـاع. إضافـة إلـى ذلـك، عملـت الحكومـة عبـر "لجنـة إزالـة التمكيـن" علـى كسـر هيمنـة حـزب المؤتمـر الوطنـي المنهـار علـى مؤسسـات الدولـة وأملاكهـا. تـم إلغـاء القوانيـن القمعيـة الرئيسـة، مثـل قوانيـن النظـام العـام وحُـلَّ الحـزب الحاكـم بموجـب القانـون. إلا أنـه، فيمـا نحـن بصـدد كتابـة هـذه السـطور (أغسـطس 2020)، يمكـن ملاحظـة أن صبـر النـاس بـدأ فـي النفـاد وقـد انفجـر ذلـك عبـر احتجاجـات علـى مواصلـة

47- قوى الحرية والتغيير. 2019. بيان حول لقاء القوات المسلحة ووفد الارتباط الممثل للقوات المسلحة الموقعة على الحوار. 14 أبريل.

العسكر لعب دور غير مقبول في الحكم. وما يزال الناس في المناطق المتضررة من الحرب يعيشون في ظل عنف المليشيات، وقد تدهور الوضع الاقتصادي أكثر ولم تنتهِ بعد مفاوضات السلام مع الحركات المسلحة، ولم يتم تشكيل المجلس التشريعي الانتقالي - "الرِّجْلُ" الثالثة للحكومة الانتقالية - بعد مرور عامٍ تقريبًا من بداية الفترة الانتقالية.

جعلت جائحة كوفيد - 19 الوضع أكثر تفَجُّرًا، خاصة بالنسبة للفقراء الذين تعرضت سبل عيشهم المحفوفة بالمخاطر أصلاً إلى المزيد من الخطر. ومع ذلك، هناك مؤشرات قوية على استمرار حيوية الحراك الثوري. شهدت السنة المنقضية منذ دخول اتفاق تقاسم السلطة حيز التنفيذ انتشارًا للمنظمات والائتلافات "القائمة على المطالبة"، فضلاً عن إعادة هيكلة النقابات على نطاق واسع.

وكما كتب جلبير الأشقر، كانت هناك أيضًا "إعادة هيكلة واسعة النطاق للحركة العمالية وجمعيات المزارعين. ضغط اليسار من أجل تشريعٍ يسمح باستبدال الاتحادات المهنية ومجالس النقابات التي فُرضت في ظل نظام البشير، بنقابات مهنية[48]".

منذ الثورة، تعزز دور لجان المقاومة الموجودة بالآلاف على الأرجح. وشكَّل العديد منها هيئات تنسيقية. بهذه الكيانات تتم مواجهة الكارثة الثلاثية: كوفيد - 19، الانهيار الاقتصادي، والعنف المتواصل من المليشيات وأمن الدولة. رفضت هذه اللجان كذلك السماح للمدنيين أو العسكريين بتهميش قضية العدالة لضحايا عنف نظام الإنقاذ". في بعض المناطق المتضررة من الحرب واجهت لجان المقاومة المحبطة من قلة فاعلية الحكومة المركزية، المفوضين المحليين والمحافظين.

بعد مرور عام تقريبًا على بداية الفترة الانتقالية، استبدل حمدوك حُكام البشير العسكريين في المحافظات بحكام مدنيين. احتجت المجموعات النسائية باستمرار على عدم اعتماد مبدأ التكافؤ بين الجنسين في الهياكل الانتقالية. وكما حدث في

48- Achcar, G., 2020

مصـر وغيرهـا، عملـت بنـى السـلطة البطريركيـة، المدنيـة والعسـكرية علـى حـد سـواء، علـى اسـتبعاد النسـاء بعـد الانتفاضـة. المقاومـة الشرسـة مـن قبـل الناشـطات هـي السـبب الرئيـس وراء نجاحهـن الجزئـي.

وفـي الآونـة الأخيـرة، اندلعـت اعتصامـات بقيـادة لجـان المقاومـة ولجـان النازحيـن والإدارة المدنيـة (القبليـة) فـي بلـدة نِيرتتـي بوسـط دارفـور. ويطالـب المتظاهـرون هنـاك حكومـة الخرطـوم بإزالـة الإدارة المحليـة التابعـة لعهـد البشـير، وتأميـن سـلامة وأمـن سـكان المنطقـة مـن مداهمـة الميليشـيات، وحمايـة الزراعـة والرعـي، ووضـع عمليـات التعديـن تحـت سـيطرة الحكومـة. ألهمـت نيرتتـي اعتصامـات أخـرى فـي مـدنٍ عديـدة، فُـرِّق بعضهـا بوحشـية فـي تذكيـر بـأن الجهـاز القمعـي للدولـة قـد وقـع تفكيكـه جزئيًّـا فحسـب. تُعقِّـدُ حقيقـة أن الثـورة تمـر بموجـة جديـدة مـن الاحتجاجـات روايـة الاحتجـاج المفضـي إلـى الانتقـال وبنـاء الدولـة، التـي يـروج لهـا المجتمـع الدولـي والنخبـة السـودانية. إذا كان هنـاك مـن شـيء تبينـه هـذه الموجـة مـن الاحتجاجـات فهـو إظهارهـا لملامـح أقـوى للصـراع الطبقـي. فـي حيـن أنـه قـد يكـون مـن السـابق لأوانـه الحديـث عـن دروس ثـورة ديسـمبر فـي السـودان، إلا أنـه مـن الجديـر التفكيـر فيمـا تعلمنـاه حتـى الآن. فـي بلـدان متنوعـة ومتشـعبة ومنقسـمة مثـل السـودان، والعـراق، ولبنـان، يتَّسـم الجانـب البـارز لهـذه الموجـة مـن الانتفاضـات بشـقين.

أولًا، لا تقـع هـذه الاحتجاجـات ضمـن أنمـاط التعبئـة السياسـية المتعارفـة/ المعتـاد عليهـا، القائمـة علـى هويـات مبنيـة مثـل "الإثنيّـة" أو "الطائفـة" أو "الديـن". علـى العكـس مـن ذلـك، لدينـا مجموعـات متنوعـة، تقليديًّـا لـم تكـن لتتحـرك معًـا أو نـادرًا مـا فعَلـت، قـد تجمَّعـت حـول مطالـب مشـتركة.

ثانيًـا، يبـدو أن هنالـك فهـم واضـح، اكتسـبه الفاعلـون مـن موجـة الانتفاضـات الأولـى، للحاجـة إلـى أن تكـون هـذه الحِـراكات مسـتدامة علـى المـدى الطويـل حتـى تكـون فعالـة. فمطالـب حِـراكات اليـوم أمضـى وأوضـح فيمـا يتعلـق بجـذور اللامسـاواة والطـرق التـي تعمـل بهـا الثـورة المضـادة.

تـدرك هـذه الحِـراكات، بمـا فيهـا حـراك السـودان، دروس 2011 و2012: كان علـى

تلك الحِراكات ألا تتوقف باكرًا. إذ بينما فتح الهاتف الذكي عالمًا جديدًا من التنظيم المحتمل والقدرة على التواصل والتشبيك والتوثيق، فإن للأنظمة القدرة على التصدي لذلك عبر قطع الإنترنت.

تُظهر هذه التكنولوجيات الجديدة، التي تم الحديث عنها بشكل سطحي إلى حد ما خلال الموجة الأولى من انتفاضات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، أن الهياكل الثورية الشعبية ذات الحضور الفعلي والتنظيم الميداني ضرورية أكثر من أي وقت مضى. في العديد من محطات ثورة ديسمبر في السودان، ليس آخرها في يوليو 2019، كان من الممكن سحق الحركة لولا وجود لجان المقاومة وقدرتها على التعبئة من دون الإنترنت.

وبدلًا من ثنائية الانتفاضات بلا قيادة أو "ذات القيادة الواضحة"، يُظهر السودان أن القيادة يمكن (وينبغي أن تكون قادرة) على التحول حسب ما تتطلبه مقتضيات النضال الثوري. يمكن قول الشيء نفسه عن الثقافة في النضال: فدون استخدام الشعر والفن والموسيقى واللهجة المحلية ورمزية النضالات الماضية، لكان من الصعب الحفاظ على استمرارية العصيان المدني لعدة أشهر في مواجهة القمع بوحشية ضاربة.

ببساطة، كان درس السودان الأساسي هو أهمية التنظيم والتواصل على مستوى القاعدة الشعبية بين المستويات المختلفة للحركة، وليس أهمية بناء نواة واحدة فقط للقيادة بل عدة نوى. كذلك تظهر أهمية الثقافة والفنون والشعر، والقدرة على الاستلهام من الرمزية السياسية والتقاليد الاجتماعية ومزجها بالابتكارات لخلق ثقافة احتجاجية جديدة.

بالإضافة إلى ذلك، يُظهر مسار تجمُّع المهنيين السودانيين والهيئات الأخرى التي انبثقت عن الاحتجاجات والنضالات الاجتماعية السابقة مدى ضرورة التنظم طويل الأمد. وذلك من أجل القدرة بتوجيه هذه الطاقات نحو المطالب والتكتيكات الملموسة في اللحظات التاريخية التي ينفجر فيها الشارع.

درس آخر من السودان هو أهمية بناء الصراع الطبقي والنضال النسوي من داخل النضال الوطني الأوسع. ففي حين أن التعبئة القائمة على القومية فعالة، يبين السودان أنه، اعتبارًا من أبريل 2019، لعبت المصالح الطبقية داخل قوى الحرية والتغيير دورًا قويًّا في المسار الذي اتبعه هذا الائتلاف – أي تحديدًا السعي إلى "هبوط ناعم"/أنعم بمعيَّة الجيش!.

وضعت الطبقة السياسة جانبًا ابتكارات الثورة من حوْكمة لا مركزية وتشاركية في فضاءات كالاعتصامات، لصالح ما تعرفه: طريق وطئه كل خف وحافر، هو الديمقراطية الليبرالية التقليدية التي أثبتت عدم رغبتها أو عدم قدرتها على تحقيق العدالة الاجتماعية والإنصاف.

تُعَدُّ نضالات الطبقة العاملة التي نراها منذ بدأ الانتقال - لجان المقاومة والنشاط العمالي وانتشار المجموعات المطلبية والاعتصامات - مدعاةً للتفاؤل ودليلًا إضافيًّا على أهمية التنظيم القاعدي لحماية وتوسيع المكاسب الثورية. لكن ينبغي ألا ننظر إلى الأمر برومانسية، إذ يجب أن تصبح لجان المقاومة مساحات تشاركية للتثقيف السياسي وتنمية الوعي، بدلًا من التفكير فيها كأدوات (ما يشبه "صمام الأمان").

سنكتشف مع الوقت مدى تماسك (ق. ح. ت)، وهل أن رهانها على اتفاق تقاسم السلطة مع الجيش سيؤتي ثماره. في ظل افتقادها لآلية لتفكيك الجيش، يعتمد جزء كبير من التسوية السياسية الانتقالية على دعم المجتمع الدولي، وخاصة الدول الغربية مثل ألمانيا، والولايات المتحدة. ومع ذلك، فإن تجارب الماضي تدعونا إلى توخي الحذر. وكما أوضحت السنوات التي أعقبت اتفاق السلام الشامل، فإن المجتمع الدولي متلون. فبمجرد تحقيقه أهدافه أو تغير أولوياته يمكنه إهمال بلدان مثل السودان وجنوب السودان أو تهميشها. وبالتالي، فإن الاعتماد على الضمانات الدولية لا يمكن أن يمثل استراتيجية رئيسية، رغم أنه يمكن فهمه بالنظر إلى الانهيار البنيوي الذي ورثته الحكومة الانتقالية.

عادةً ما يكون للدعم الدولي مقابل باهظ. في ظل عبء الدين الخارجي الثقيل

الذي تراكم خلال عقود من الديكتاتورية ومع تدهور الاقتصاد، أصبح السودان ضعيفًا أمام صندوق النقد الدولي وداعميه الغربيين. حتى الآن، أظهرت حكومة حمدوك نزعة نيوليبرالية قد لا تبشر بالخير للبلاد.

إحدى السُبُل التي يمكن من خلالها البدء في معالجة عجز الدولة هي ملاحقة المليارات التي نهبها النظام السابق والمخبأة أو المستثمرة في الخارج. ينبغي كذلك اتخاذ خطوات جادة لإبعاد الذهب والموارد الأخرى عن قوات الدعم السريع والشركات العسكرية التابعة لأعضاء النظام السابق، ووضع تلك الموارد تحت السيطرة المدنية والحكومية وتحت الإشراف المجتمعي. يعتبر ذلك أمرًا مُلحًّا بالنسبة للعديد من المجتمعات المفقرة في جميع أنحاء البلاد، لا سيما بالنظر إلى التأثير المدمر لهذه العمليات على الصحة العامة والبيئة.

فيما يتعلق بالجيش، بدأت إعادة الهيكلة داخليًّا في أكتوبر 2019؛ حيث اتخذ رئيس المجلس العسكري الانتقالي البرهان خطوات لتهميش أو عزل الجنرالات الإسلاميين. ومع ذلك، بغض النظر عمن هو المسؤول عن الجيش الحالي، فمن الحكمة دائمًا الافتراض -بالنظر إلى تاريخ السودان- أنه ستكون هناك محاولات من قِبَلِ الجيش أو بعض العناصر داخله للاستيلاء على السلطة.

يُعَقِّدُ ذلك الوضع لكل من المدنيين في الحكومة وكذلك للحراك الاحتجاجي. فهناك من يحاج بأن تحدي الحكومة المدنية يعني إضعافها وجعلها فريسة أسهل لبقايا النظام، الجيش وقوات الدعم السريع.

تُمارس العديد من الكيانات في الحركة سياسة مزدوجة بدعم الحكومة في جهودها؛ لتفكيك النظام وإرثه، مع تحديها لها في الوقت نفسه؛ كي تقوم بعمل أفضل وتتحرك بشكل أسرع فيما يخص قضايا السلام والعدالة والاقتصاد.

أشار تغيير حصل حديثًا في حكومة حمدوك، وكذلك معركة داخل تجمع المهنيين إثر انتخاباته الداخلية الأخيرة، إلى هشاشة قوى الحرية والتغيير. من غير الواضح الاتجاه الذي يسير فيه الخلاف داخل هياكل السلطة المدنية، ولكن

كما ذكرت الجماهير المدنيين والعسكريين مؤخرًا، فإن الحراك الثوري ما زال حيًّا وسليمًا.

بالنسبة لدول مثل السودان والجزائر ومصر، حيث يتواجد الجيش في السلطة، هناك درس صغير ولكنه مهم، يمكن استخلاصه من مواجهات أبريل 2019، وهو وجوب النظر إلى الجيش من خلال عدسة طبقية. ففي تلك الأحداث وقف العديد من الجنود من الرتب الدنيا إلى جانب المتظاهرين، ودافعوا عنهم ضد قوات الدعم السريع والأجهزة الأمنية. هؤلاء الجنود هم في الغالب من خلفيات فقيرة وعمالية ولا يستفيدون من نعم المستويات العليا للمؤسسة العسكرية. وبدورهم يتعين عليهم الوقوف في طوابير الخبز وتلبية احتياجاتهم. مهما كان الأمر صعبًا، يبدو أن التنظيم داخل الرتب العسكرية الدنيا يمثل استراتيجية هامة يجب أخذها بعين الاعتبار في تلك البلدان.

علاوة على ذلك، وفيما كانت النساء تتحركن خلال الثورة بشكل أخَّاذ، بدأت محاولات تهميشهن. وهو ما يشير إلى أن تحركهن في حد ذاته ليس كافيًا لضمان حقوقهن. بموازاة ذلك، هنالك حاجة أيضًا للتنظيم النسوي التقاطعي على نطاق واسع. وهو أمر لم يقع تجسيده خلال ثورة ديسمبر. مَثَّل اعتصام نيرتتي تحديًا لنخبوية الحركة النسوية في الخرطوم. إذ تطمح الريفيات والنازحات في هذه الموجة من الاحتجاجات إلى ما هو أهم من التمثيلية في الهياكل السياسية. تطالبن بالأمن الأساسي والقدرة على ممارسة معيشتهن والحياة دون خوف.

أخيرًا، نود أن نلاحظ أنه بالنسبة لنا كسودانيين تمثل كُل من انتفاضات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وإفريقيا جنوب الصحراء -التي لم تحظَ بالقدر الكافي من الاهتمام- مفتاحًا لنضالاتنا. ونريد طرح سؤال: كيف يمكننا دعم حركات بعضنا البعض عبر الحدود؟ هذا ليس مهمًّا فقط من أجل استخلاص الدروس والتضامن، بل لأننا نواجه العديد من الأعداء أنفُسِهم: الأمبريالية، العسكرة، الرأسمالية، العنصرية، والبطرياركية.

لا يمكننا هزيمة هذه البُنَى العالمية فرادى ومتفرقين. لماذا لم نبنِ بعد وسائل إعلامنا الخاصة وشبكاتنا للنشطاء والثوريين في المنطقة؟ هل يمكننا بناء حركات عابرة للحدود أيضا؟ هذا هو التحدي الذي نطرحه على النشطاء والباحثين في مناطقنا وخارجها.

تقدير وعرفان:

لذكرى العزيزة شامة الخليفة مكي التي دعمت الثورة كما دعمت دائمًا أولئك الذين يحتاجون إلى مساعدتها وتضامنها -بهدوء ودون ادعاء- كما كانت طبيعتها.

الثورة الجزائرية:

الكفاح من أجل إنهاء الاستعمار متواصل

حمزة حموشان وسلمى عماري

يونيو 2020

5 يوليو (تموز) 1830	بداية الاستعمار الاستيطاني الفرنسي القائم على الإبادة الجماعية.
1 نوفمبر (تشرين الثاني) 1954	بداية الحرب الجزائرية بسلسلة هجومات عُرِفت بـ "توسان الأحمر".
5 يوليو (تموز) 1962	نيل الجزائر استقلالها من المحتل الفرنسي.
أبريل (نيسان) 1980	اندلاع أحداث " الربيع الأمازيغي" في منطقة القبائل، مُطالبة بالاعتراف الثقافي والانفتاح الديمقراطي.
أكتوبر (تشرين الأول) 1988	انتفاضة الشباب ضد اللاعدالة الاجتماعية والفساد والاستبداد تنهي حقبة دولة الحزب الواحد.
12 يناير (كانون الثاني) 1992	انقلاب عسكري. أدى الانقلاب إلى حرب أهلية دامية أسفرت عن 200000 قتيل و10000 حالة اختفاء.
27 أبريل (نيسان) 1999	انتخاب بوتفليقة رئيسًا للبلاد.
22 فبراير (شباط) 2019	**اندلاع المظاهرات في عدّة مدن من البلاد ضد العهدة الخامسة المزمعة لبوتفليقة.**
10 مارس (آذار) 2019	مشاركة واسعة بالإضراب العام الذي أُعْلِنَ، دون أسماء معروفة وراءه، عبر شبكات التواصل الاجتماعي.
11 مارس (آذار) 2019	إعلان بوتفليقة عدم ترشحه لعهدة خامسة، مع نيّته تمديد عهدته الرابعة لمدة عام

2 أبريل (نيسان) 2019	استقالة بوتفليقة بعد ستة أسابيع من الاحتجاجات وإنذار من رئيس أركان القيادة العليا العسكرية.
4 مايو (أيّار) 2019	اعتقال سعيد بوتفليقة شقيق الرئيس المخلوع واثنان من رؤساء المخابرات (أحدهما سابق).
يونيو (حزيران) 2019	انطلاق حملة اعتقالات قمعية تستهدف بشكل خاص أولئك الذين يلوحون بالعلم الثقافي الأمازيغي/ البربري.
12 ديسمبر (كانون الأول) 2019	إجراء الانتخابات، رغم المخالفات والمقاطعة الواسعة، وانتخاب تبون رئيسًا جديدًا للبلاد.
17 مارس (آذار) 2020	قرار الحركة الشعبية الجزائرية "الحِراك" وقف احتجاجاتها الأسبوعية بسبب جائحة كوفيد 19.



مقدمة

تمـر الجزائـر بمرحلـة ثوريـة. اسـتمرت الانتفاضـة -واسـعة النطـاق- التـي انطلقـت فـي فبرايـر 2019، لأكثـر مـن عـام وأظهـرت صمـودًا رائعًـا. فقـد جـاب ملاييـن النـاس الشـوارع فـي مظاهـرات أسـبوعية ضخمـة كل ثلاثـاء وجمعـة، وأحيانـا كل سـبتٍ وأحـد، مطالبيـن بتغييـر ديمقراطـي جـذري وإلغـاء الطابـع العسـكري للجمهوريـة.

الأحـداث فـي الجزائـر حقًّـا تاريخيـة. لقـد انتصـر الشـعب فـي المعركـة الأولـى مـن نضالـه لأجـل تغييـر النظـام جذريًّـا. أجبـرت الحشـود المتظاهـرة طيلـة أكثـر مـن سـتة أسـابيع الرئيـس عبـد العزيـز بوتفليقـة علـى التنحـي بعـد عشـرين عامًـا فـي سـدة الحكـم. وذلـك بعـد أن أعاد الشـارع خلـط الأوراق فـي بيـت النظـام وتسـبب فـي قطيعـة بيـن مؤسسـة الرئاسـة وقيـادة أركان الجيـش.

منـذ الثانـي والعشـرين مـن فبرايـر 2019، جـاب كل جمعـة ملاييـن مـن البشـر، كبـارًا وصغـارًا نسـاءً ورجـالًا، ومـن مختلـف الطبقـات الاجتماعيـة أنحـاء البـلاد فـي لحظـة ثوريـة جامعـة، مسـترجعين الفضـاء العـام المُصـادر لسـنين طويلـة. وآزرت الاحتجاجـات القطاعيـة مسـيرات الجمعـة موحـدة النـاس فـي رفضهـم النظـام الحاكـم ومطالبتهـم بتغييـر ديمقراطـي جـذري.

"يتنحـاو ڤـاع" و"البـلاد بلادنـا وانديـروا راينـا" شـعاران يرمـزان للتطـور الجـذري للحـراك الشـعبي السـلمي، الـذي انطلـق إثـر إعـلان بوتفليقـة ترشـحه لولايـة خامسـة علـى الرغـم مـن عجـزه وفقدانـه القـدرة علـى الـكلام. والـذي يجـدر التذكيـر بأنـه لـم يُلـقِ أي خطـاب، أو يجـري أي لقـاء صحفـي، منـذ سـنة 2013.

ثـلاث ميـزات تجعـل هـذا الحـراك حقًّـا فريـدًا مـن نوعـه: حجمـه الضخـم وطابعـه السـلمي وانتشـاره الوطنـي. إذ شـمل الجنـوب المهمـش وشـهد مشـاركة واسـعة للنسـاء، وخاصـة للشـباب الذيـن يشـكلون أغلبيـة سـكان الجزائـر. وهـو أمـر لـم تشـهده الجزائـر فـي تاريخهـا المعاصـر، باسـتثناء سـنة 1962 حيـن خـرج الجزائريـون للشـارع احتفـالًا باسـتقلال دفعـوا ثمنـه باهظًـا.

فـي 22 فبرايـر 2020 إحيـاء للذكـرى السـنوية الأولـى لظهـور الحركـة الشـعبية علـى السـاحة السياسـية، جـدد ملاييـن النـاس إيمانهـم بالثـورة وعبـروا عـن تصميمهـم علـى مواصلـة النضـال مـن خـلال تنظيـم مسـيرات ضخمـة فـي أنحـاء مختلفـة مـن البـلاد.

وردًا علـى إعـلان الرئيـس الحالـي تبـون تاريـخ 22 فبرايـر يومًـا وطنيًّـا "للتلاحـم بيـن الشـعب والجيـش"، هتـف المحتجـون "لـم نـأتِ للاحتفـال؛ جئنـا لطـردك!" أعـاد النـاس تأكيـد مطالبهـم بدولـة مدنيـة فـي شـعار قـوي أصبـح رمـزًا لهـدف الانتفاضـة الأساسـي، خاصـة منـذ المهزلـة الانتخابيـة فـي ديسـمبر 2019: "تبـون رئيـس زائـف. لقـد فُـرِض مـن قبـل الجيـش وليسـت لـه شـرعية.. لقـد تحـرر الشـعب ومـا زالـوا هـم المقـررون ... نريـد دولـة مدنيـة الآن!".

سـيبحث التحليـل فـي هـذا الفصـل بالضـرورة فـي بنـى السـلطة العالميـة والإقليميـة الحاليـة، التـي يجسـدها الاقتصـاد السياسـي الدولـي والمتجـذرة فـي الإرث التاريخـي للاسـتعمار والاسـتعمار الجديـد، خاصـة فـي بلـدان الجنـوب العالمـي.

إن الرؤيـة طويلـة الأمـد ليسـت تمرينًـا اعتباطيًّـا، فـي ظـل مـا أوضحتـه الانتفاضـة بجـلاء مـن ارتباطهـا بمسـار إنهـاء الاسـتعمار الـذي انـزاح عـن سـكته قبـل بضعـة عقـود.

الفترة الاستعمارية (1830 - 1962).

مثَّـل الكفـاح الجزائـري التحـرري ضـد الاسـتعمار الفرنسـي إحـدى أكثـر الثـورات المعاديـة للإمبرياليـة إلهامًـا خـلال القـرن العشـرين. إذ كان جـزءًا مـن موجـة إنهـاء الاسـتعمار/ التحـرر التـي بـدأت بُعيـد الحـرب العالميـة الثانيـة فـي الهنـد والصيـن وكوبـا وفيتنـام وبلـدان كثيـرة أخـرى فـي إفريقيـا. لقـد أدرجـت الثـورة نفسـها فـي روح مؤتمـر "باندونـج" وعصـر "اسـتفاقة الجنـوب"؛ جنـوب ظـل لعقـود (وفـي بعـض الحـالات لأكثـر مـن قـرنٍ) خاضِعًـا للهيمنـة الإمبرياليـة والرأسـمالية تحـت عـدة أشـكال: مـن المحميـات إلـى المسـتعمرات الاسـتيطانية كمـا كان الحـال مـع الجزائـر.

صـادر الاحتـلال الفرنسـي للجزائـر وسـائل الإنتـاج الأساسـية والأرض مـن الفلاحيـن

الأصليين ثم أعاد توزيعها على المستوطنين، مُطلِقًا بذلك العنان لتدهور اقتصاد الكفاف الريفي[1]. إلا أن الفلاحين لم يستسلموا، فصمدوا وقاوموا بطرق منظمة طيلة عقود من الزمن. قاتلت الجماهير الريفية زحف الجيش الاستعماري حتى سنة 1884، لكن قلب المقاومة الجزائرية الريفية دُمِّرَ سنة 1871 حين سُحِق التمرد السياسي الزراعي الكبير المُنتشر على ثلاثة أرباع البلاد. تشير التقديرات إلى مقتل عدة ملايين بين سنتي1830 و1870[2].

يُمكن تلخيص الفترة الاستعمارية بالآتي: مُصادرة ملكية، وبلتَرَة، وتوطين قسري، واستغلال مَحض، وعنف وحشي. يصف فرانز فانون ذلك بدقة في كتابه المميز "معذبو الأرض"، وهو نص مُعتمَد حول نضال شعوب العالم الثالث ضد الاستعمار وآليات العنف التي وضعها هذا الأخير لإخضاع المضطهدين. إذ يقول: "الاستعمار ليس آلة تفكير ولا هو هيئة تتمتع بِمَلَكَات تفكير... هو العنف في حالته الطبيعية..." بالنسبة لفانون، العالم الاستعماري هو عالم مانَوِي. وهذا ما يدفع المستعمر إلى نهاية استنتاجه المنطقي ويجعله "يجرد الساكن الأصلي من إنسانيته، أو للحديث بصراحة: يحوله إلى حيوان"[3].

بأثر رجعي، كان الاستعمار الفرنسي للجزائر فريدًا، لأنه جعل من البلاد مستوطنة. وهي أول دولة ناطقة بالعربية يتم ضمها من قبل الغرب وواحدة من أوائل البلدان الإفريقية التي خضعت لإمبراطورية غربية، قبل حتى مؤتمر برلين عام 1884، عندما اجتمعت إمبراطوريات أوروبية مختلفة (بريطانية، وفرنسية، وألمانية، وبلجيكية، وإيطالية، وإسبانية، وبرتغالية..) لتقسيم القارة فيما بينها.

في عام 1881 أُديرت الجزائر لأول مرة كجزء لا يتجزأ من فرنسا. استمر الحكم الفرنسي في الجزائر لمدة 132 سنة، مقابل 75 سنة في تونس و44 سنة في المغرب.

1- Lacheraf, M., 1965. Algérie, nation et société. 2nd ed. Algiers : Casbah-Editions.

2- Bennoune, M., 1988. The Making of Contemporary Algeria, 1830-1987: Colonial upheavals and post-independence development. Cambridge: Cambridge University Press. See also: Davis, D., 2007. Resurrecting the Granary of Rome: Environmental History and French Colonial Expansion in North Africa. 1st ed. Athens: Ohio University Press.

3- Fanon, F., 1961. The Wretched of the Earth. London: Penguin Books.

أي أن الأمـر يتعلـق بتجربـة اسـتعمارية عميقـة اسـتغرقت فتـرة طويلـة وجعلـت مـن الحالـة الجزائريـة حالـة فريـدة مـن نوعهـا داخـل إفريقيـا والعالـم العربـي.

مـا أعقـب إعـلان حـرب الاسـتقلال فـي 1 نوفمبـر 1954، كان أحـد أطـول حـروب إنهـاء الاسـتعمار وأكثرهـا دمويـة. شـهدت الحـرب انخراطًـا هائـلاً للفقـراء الريفييـن والطبقـات الشـعبية الحضريـة، مـع مشـاركة ملحوظـة مـن النسـاء اللاتـي رأيـن فـي التحـرر الوطنـي طريقـة لتحقيـق مكانـة متسـاوية مـع الرجـال.

تزعـم التقديـرات الرسـمية أن مليـون ونصـف جزائـري قُتِلـوا فـي حـرب الثمانـي سـنوات التـي انتهـت عـام 1962، وهـي الحـرب التـي أصبحـت أسـاس السياسـات الجزائريـة الحديثـة.

نظـرًا للطبيعـة المسـلحة للنضـال الجزائـري ضـد الاسـتعمار كانـت القـوة المنظمـة الوحيـدة فـي المجتمـع، لحظـة الاسـتقلال، هـي جيـش التحريـر الوطنـي الـذي تـم الاسـتيلاء علـى قيادتـه مـن قبـل مجموعـة مـن الضبـاط المُتمركزيـن علـى الحـدود عشـية الاسـتقلال.

أبعـدت هـذه المجموعـة مـن الضبـاط القيـادة التـي أدارت النضـال داخـل البـلاد، كمـا أطاحت بعنـف بالحكومـة المدنيـة (الحكومـة المؤقتـة للجمهوريـة الجزائريـة أو GPRA)، وذلـك بالتواطـؤ النشـط لبعـض القـادة المدنييـن، مثـل أحمـد بـن بلـة، أول رئيـس جزائـري بعـد الاسـتعمار[4].

صاغـت هـذه الأحـداث الحمـض النـووي للدولـة الوليـدة علـى نحـو مأسَـسَ لأسـبقية الضبـاط العسـكريين علـى الساسـة المدنييـن، ممـا تسـبب لاحقًـا فـي الحـد مـن إمكانـات السياسـات الديمقراطيـة.

الاستقلال و "مكة الثوّار" (1962 - 1978)

سـنة 1962، لـم يحتفـل الجزائريـون بالسـيادة التـي حصلـوا عليهـا حديثًـا فحسـب، بـل عبـروا عـن أحلامهـم وتطلعاتهـم إلـى مجتمـع مختلـف، أكثـر عدالـة ومسـاواة. خـلال

4- Abbas, F., 1984. L'Indépendance Confisquée. Paris: Flammarion.

الستينات والسبعينات، أي خلال فترتي بن بلة وبومدين، شكَّل رأس المال الثوري المكتسب في سياق النضال ضد الاستعمار، إلى جانب صعود الحركات العالم ثالثية (صعود حركات العالم الثالث) والقومية العربية، أفعال الدولة الناشئة وسلوكياتها.

لعب نشاط الدولة الجزائرية على الساحة الدولية، بما في ذلك دعم الحركات المناهضة للاستعمار بجميع أنحاء القارة الأفريقية وخارجها، دورًا رئيسًا في تعزيز الدور القيادي للجزائر في حركة عدم الانحياز، حيث يتم الدفاع عن المعايير الدولية مثل السيادة وتقرير المصير.

تقاطع دور الجزائر في العالم الثالث دوليًّا مع سياسات اجتماعية تقدمية داخليًّا، مثل تأميم المحروقات، وإعادة توزيع الأراضي، وبدء ثورة زراعية، وتعميم الرعاية الصحية والتعليم. كانت السياسات المذكورة أعلاه جزءًا لا يتجزأ من المشروع التنموي الرأسمالي للدولة، الذي يهدف إلى ما يصفه سمير أمين بـ "فصل" الاقتصاد الوطني عن النظام الرأسمالي الإمبريالي العالمي[5].

ومع ذلك، لم يكن هذا المشروع مُحصَّنًا ضد التناقضات الداخلية، إذ "أعاد إنتاج... الرأسمالية على المستوى المحلي، جزئيًّا بالاشتراك مع رأس المال الدولي، وجدد مكانة الجزائر ضمن التقسيم الدولي للعمل". اتسم هذا الموقف بالاعتماد الكبير للبلاد على صادرات النفط والغاز، وهو ما يجعلها عرضة لتقلبات الأسعار الدورية[6].

شكَّل التصنيع جانبًا رئيسًا من مشروع التطوير هذا، والذي كان مدفوعًا بمن يشير إليها بِلُّوفي بـ "كتلة اجتماعية مهيمنة" تقودها برجوازية دولة ناشئة. رسَّخ التحالف بين الجيش والتكنوقراط من أجل مشروعهم الطموح للتنمية الصناعية هيمنة هذه الشرائح الطبقية خلال العقدين التاليين للاستقلال[7].

5- Amin, S., 1990. Delinking : towards a polycentric world. London: Zed Books.

6- Belalloufi, H., 2012. La Démocratie en Algérie: réforme ou révolution? Algiers: Lazhari Labter Editions/Les Editions Apic. See also: Rebah, A., 2011. Économie Algérienne: Le Développement National Contrarié. Algeria: INAS Editions.

7- El Kenz, A., 2009. Ecrit d'Exile. Alger: Casbah Editions

بحلول منتصف الثمانينيات، ومع انخفاض أسعار النفط وتغير السياق الإقليمي والدولي، أُعتُبِرَ برنامج التنمية الوطنية الجزائري فاشلاً، وتم إيقاف محاولته لفك الارتباط عن النظام الرأسمالي العالمي واستبداله باقتصاد السوق. استلزم هذا التوجه الجديد تفكيك الصناعة وتفكيك وخصخصة الشركات العامة وإعادة هيكلة الاقتصاد على نطاق أوسع. ونتيجة لذلك، ترافقت الإجراءات المذكورة بتعديل للتحالفات بين المكونات الرئيسة للكتلة الاجتماعية المهيمنة، دشن نهاية التحالف بين الجيش والتكنوقراط واستبداله بعلاقة عسكرية - أوليغارشية مدعومة بسياق عالمي تميز بعقيدة نيوليبرالية صاعدة[8].

دفع تخلي الدولة عن توفير خدمات عامة وفشل الحركة الوطنية العلمانية، المتصورة أو الحقيقية، في تحقيق الازدهار والاستقلال الموعودين إلى صعود الحركة الإسلامية لسطح المشهد السياسي الجزائري، مستفيدة من جاذبية الثورة الإيرانية. بلغت الحركة الإسلامية ذروة شعبيتها خلال الثمانينات، وكانت لها قاعدة وأنصار من البروليتاريا، والبروليتاريا الرثة، والطبقات الفقيرة. استفادت هذه الحركة، المعتمدة على العمل الخيري والوعظ الديني، من بعض السياسات الاجتماعية الرجعية للدولة. وعلى الرغم من المقاومة الشعبية، سَنَّتْ الطبقة الحاكمة سنة 1984 قانون الأسرة الرجعي الذي وضع النساء تحت وصاية الرجال.

كانت هذه انتكاسة كبيرة للديناميكيات التحررية التي دفعتها مشاركة المرأة في حركة التحرير الوطنية. علاوة على ذلك، تم تجاهل التنوع الثقافي لصالح مفهوم ضيق للهوية الجزائرية، فهُمِّش البعد الأمازيغي/ البربري للتراث الثقافي الجزائري واُختُزِل في مظاهر فولكلورية. انخرط "لوبوفوار" Le pouvoir (هكذا ينادي الجزائريون من يمسكون بالسلطة) في سياسة تعريب متعجلة ومتصلبة، كما طور تأويلاً محافظًا للدين.

حافظت انتفاضة أكتوبر 1988 على وعود السياسات التحررية: توزيع متساوي

8- Belalloufi, H., 2012.

للثروة، حريات ديمقراطية، اعتراف بالثقافة الأمازيغية، وكذلك حقوق متساوية للنساء. لكن الجيش سحق هذه الانتفاضة وأغرقها بالدماء، من خلال حملة اعتقالات كبيرة وقتل أكثر من 500 شخص. على الرغم من القمع الوحشي، فتحت انتفاضة أكتوبر 1988 الطريق أمام التحرر السياسي والتخلي عن نظام الحزب الواحد. إذ اضطر هذا الأخير إلى السماح بإنشاء أحزاب سياسية جديدة وصحافة مستقلة.

عندما اندلعت حرب الخليج سنة 1990، أفاد هذا السياق الحركة الإسلامية، في وقت كانت فيه المشاعر المعادية للإمبريالية والمشاعر القومية العربية في تصاعد من خلال المظاهرات الضخمة. بدا أن الإسلاميين يقدمون إجابة عن أسئلة الفساد ويملؤون خانة الهوية المُرتبكة التي لا تزال مشبوكة في التراث الثقافي الفرنسي.

عشرية سوداء فظيعة وعلاج بالصدمة (1991 ـ 1999)

فتح الانقلاب العسكري على نتائج الانتخابات البرلمانية لسنة 1992، والتي كانت جبهة الإنقاذ الإسلامية تتجه للفوز بها بأغلبية ساحقة، أبواب جهنم على الجزائريين. فأعاد العنف تجاه المدنيين إلى الذاكرة فترة الاستعمار الفرنسي، كما أدى إلى أزمة حادة للنظام الذي حاول جاهدًا كسب قبول ورضا العواصم الغربية، كتعويض عن مشروعيته شبه المفقودة، معتمدًا في ذلك على سياسة فتح الأسواق. حينها ـ أي التسعينات ـ تركزت اهتمامات الغرب الجيوسياسية في الخوف من إيران جديدة في شمال إفريقيا، وهو ما وفر دعمًا غربيًّا ضمنيًّا للنظام الجزائري حتى في أكثر السنوات دموية.

لم تقتصر التجربة الجزائرية في التسعينات على حرب أهلية مروعة، بل رافقتها عملية لَبْرَلَة اقتصادية قسرية إذعانًا من النظام لإملاءات صندوق النقد الدولي والبنك العالمي. حان دور الجزائر آنذاك لخوض تجربة "عقيدة الصدمة" من خلال تطبيق سياسات مؤلمة ومثيرة للجدل. مسار اقتضى تفكيك الشركات العمومية والاقتراض من صندوق النقد والتحضير لاقتصاد الاستيراد، علاوة على إخضاع الجزائريين لسياسة تقشف قاسية ومزيد التفريط في السيادة الوطنية[9].

9- Hamouchene, H., 2014. "Algeria, an Immense Bazaar: The Politics and Economic Consequences of Infitah." Jadaliyya.

هكـذا إذًا فتحـت الجزائـر أبوابهـا للأسـواق العالميـة مـن جديـد؛ فخففـت مـن القيـود القانونيـة والمُنظِّمـة لقطاعـات الطاقـة المهمـة، مسـهلة بذلـك سـباق النفـوذ والاسـتحواذ علـى الغـاز والنفـط. وَقَّعَـتْ الشـركات الغربيـة سلسـلة مـن العقـود الربحيـة التـي ضمنـت لهـا حصـة معتبـرة مـن مـوارد البـلاد الثمينـة. سـاهمت عمليـة إعـادة ربـط الاقتصـاد الوطنـي بـرأس المـال العالمـي فـي تحويـل النخـب الحاكمـة إلـى برجوازيـة كمبرادوريـة مـن خـلال ربـط مصالحهـا، ورهـن المصالـح الوطنيـة، بمصالـح رأس المـال العالمـي.

مهـدت هـذه الخطـوات الطريـق إلـى المزيـد مـن "الانفتـاح" (اللبرلَـة الاقتصاديـة) والتحكـم الخارجـي. بحلـول منتصـف تسـعينات القـرن الماضـي، خضـع النظـام الجزائـري، اليائـس مـن الحصـول علـى الائتمـان الدولـي، إلـى البنـك العالمـي وصنـدوق النقـد الدولـي. ومـن أجـل جـذب المسـتثمرين المحتمليـن، أنشـأت الحكومـة منطقـة عازلـة خاصـة حـول حقـول النفـط والغـاز جنـوب البـلاد.

وهكـذا، فـي 23 ديسـمبر 1995، أبرمـت شـركة البتـرول البريطانيـة (BP) عقـدًا بقيمـة 3 مليـارات دولار، ممـا منحهـا الحـق فـي اسـتغلال مخـزون الغـاز فـي عيـن صالـح فـي الصحـراء طيلـة السـنوات الثلاثيـن التاليـة. أتمـت توتـال صفقـة مماثلـة بقيمـة 1.5 مليـار دولار بعـد شـهر واحـد، وفـي 16 فبرايـر 1996، أمضـت الشـركة الأمريكيـة أركـو عقـدًا لمشـروع مشـترك للتنقيـب فـي حقـل رورد البـا ڤـل النفطـي.

فـي نوفمبـر 1996، تـم افتتـاح خـط أنابيـب جديـد لتزويـد الاتحـاد الأوروبـي بالغـاز، يمـر خط أنابيـب "المغـرب- أوروبـا" عبـر إسـبانيا والبرتغـال[10]. لا شـك أن هـذه العقـود سـاندت النظـام خـلال عزلتـه الدوليـة حيـن مـارس العنـف الممنهـج فـي جميـع أنحـاء البـلاد. كان لهـذه الشـركات المرتبطـة بالجزائـر مـن خـلال الاسـتثمارات الضخمـة والاتحـاد الأوروبـي مصلحـة واضحـة فـي ضمـان عـدم سـقوط النظـام القمعـي. مَكَّنَـتْ عائـدات النفـط والغـاز مـن عسـكرة شـديدة كمـا دعمـت عمليـات الشـرطة وأجهـزة المخابـرات القمعيـة.

10- Hamouchene, H. et al, 2013. Reinforcing Dictatorships – Britain's Gas Grab and Human Rights Abuses in Algeria. London: Platform.

ومع ذلك، أدت حرب النظام القذرة إلى عزلته الدبلوماسية في نهاية التسعينات. ليست صدفة أن الرئيس الجديد الذي أتى به العسكر سنة 1999 (بوتفليقة) كان وزير خارجية خلال رئاسة بومدين للبلاد. بالاعتماد على تجربته الدبلوماسية وعلى مهاراته في المناورة السياسية، استطاع بوتفليقة أن يتمايز وينأى بنفسه عن همجية العسكر أمام الرأي العام الوطني والعالمي، كما استغلَّ الوضع ودفع نحو اتفاق سلام تضمن عفوًا شاملاً للجيش والأجهزة الأمنية والإسلاميين الذين شاركوا في المذابح والقتل والاختفاء القسري.

لم تتعلق المُصالحة والعفو لا بالعدالة ولا بالحقيقة، بل بالأحرى بحماية النظام العسكري الفاقد للمصداقية وإعطائه فرصة جديدة للحياة رغم العزلة الدولية. مُحِيَتْ الجرائم والفظائع التي ارتُكِبَتْ خلال التسعينات ولم تُفْتَحْ لحد الساعة أي تحقيقات جدية.

مَثَّلَ إعلان الإدارة الأمريكية "حربًا عالمية على الإرهاب" بعد هجمات 11 سبتمبر فُرصة مثالية لحكام الجزائر للحصول على دعم غربي جديد (أمريكي على وجه الخصوص). تحت عنوان "صديق في الجزائر" نشرت صحيفة "واشنطن تايمز" رسالة للرئيس عبد العزيز بوتفليقة بتاريخ 25 نوفمبر 2002 تعهد فيها بتعاون استخباراتي كامل وتوفير أمن طاقي للولايات المتحدة[11] وهو ما ساعد على شراء قبول الأمريكيين. مقابل دعمها، تلقت الحكومات والشركات الغربية امتيازات غير مسبوقة. اقتصاديًّا وعلى سبيل الذكر لا الحصر، تم منح عقود تقدر بعديد المليارات إلى شركات هاليبرتون، رينو، آس آن سي لافالان، سايبام، آلستوم، جنرال الكتريك، وغيرها.

سياسيًّا، دفع النظام ثمن الدعم الخارجي عبر فتح المجال الجوي أمام فرنسا لمهاجمة مالي، وتشارك المعلومات الاستخباراتية بلا قيود. فضلاً عن غَضِّ الطرف عن القضايا التي يعتبرها جزء كبير من شعب الجزائر عادلة مثل: القضية الفلسطينية، برنامج إيران النووي، غزو العراق... إلخ.

11- Bouteflika, A., 2002. “A Friend in Algeria.” Washington Times.

فـي أوائـل عقـد الــ 2000، تمحـورت كل خطـب بوتفليقـة حـول إعـادة الجزائريين إلـى العمل. إذ انتقـد الجزائريـيـن فـي إحـدى التجمعـات قائـلًا: "أنتـم كسـالى وتعتمـدون بشـكل كبيـر علـى الدولـة. لقـد انتهـت دولـة الرعايـة الاجتماعيـة، كفاكـم قيلولـة!" كانـت السـنوات الخمسـة عشـرة الأولـى مـن حكـم بوتفليقـة عبـارة عـن رخـاء بترولـي، فقـد سـمحت أسـعار النفـط والغـاز للنظـام بشـراء سـلم اجتماعـي داخلـي وضمـان القبـول الدولـي.

شـجع بوتفليقـة الاسـتثمار الخـاص، وسـاعد فـي إفسـاح الطريـق لطبقـة الأثريـاء الجـدد مـن خـلال منحهـم عقـودًا ضخمـة؛ لتشـييد البنيـة التحتيـة مـن الطـرق السـريعة إلـى مشـاريع الإسـكان، فـي جميـع أنحـاء البـلاد. سـاعده هـذا الخيـار فـي تعزيـز شـبكة المنتفعيـن المحيطـة بـه وفـي صراعـه ضـد بعـض الجنـرالات ورؤسـاء الأجهـزة الأمنيـة.

اعتمـد النظـام الجزائـري خـلال العقديـن المواليـن لانقـلاب 1992 علـى الخـارج كبديـل عـن الشـرعية الشـعبية، وتحـول ذلـك إلـى أسـلوب عملـه بامتيـاز.

الجذور السياسية والاقتصادية للحراك

كُثُرٌ هـم مـن فاجأهـم الحِـراك؛ فقـد اتسـم المنـاخ السياسـي فـي بدايـة شـهر فبرايـر 2019 بنـوع مـن اليـأس والعُـزوف عـن الانتخابـات التـي كانـت السـلطة تُعِـدُ لهـا، وتعتـزم عقدهـا فـي أبريـل الموالـي (حيـث كان مـن المقـرر أن يترشـح بوتفليقـة لولايـة خامسـة). وهـو مـا يمكننـا تفسـيره كنتيجـة لإفـراغ السـاحة السياسـية مـن أي معارضـة حقيقيـة، إضافـة إلـى قمـع أو تدجيـن الاتحـادات العماليـة ومختلـف مكونـات المجتمـع المدنـي؛ مـا أدى إلـى غلـق المجـال فـي وجـه أي مشـروع بديـل وخلـق فـي المقابـل مناخًـا سياسـيًّا قاحـلًا فـي عمومـه. بـدأت التظاهـرات الحاشـدة فـي أواخـر فبرايـر، فأربكـت الوضـع القائـم وفتحـت بابـي التغييـر والمقاومـة علـى مصراعيهمـا. إذ تشـير الحناجـر الصادحـة "أحنـا صحينـا وباصيتـوا بينـا" إلـى اكتشـاف هـذه الجماهيـر إرادتهـا السياسـية.

تبشـر الصحـوة الشـعبية والوعـي السياسـي المتعاظـم المرافـق لهـا منـذ فبرايـر 2019 بأشـياء جيـدة، كمـا تنـذر بأيـام عاصفـة للفئـة الحاكمـة، ولداعميهـا الأجانـب، التـي اسـتغلت موقعهـا لتُثـري بطريقـة فاضحـة. فـي خضـم ارتفـاع معـدلات الفقـر والبطالـة والضغـط علـى الإنفـاق العـام مـن خـلال تدابيـر التقشـف، وفـي ظـل نهـب المـوارد والتنميـة غيـر المتوازنـة

أساسًا وانتشار الفساد، تصبح أسباب الثورة والتمرد الراهنَيْن واضحة ومنطقية.

الحراك كنتيجة لتراكم عقود من النضال

علينا في البداية أن نُنَوِّهَ إلى أن حالة الغليان هذه لم تأتِ من العدم ولم تسقط من السماء. بل هي نتيجة لتراكم نضالات تعود لثمانينات القرن المنصرم. كان "الربيع البربري" أول تحد سياسي واسع النطاق للنظام منذ أوائل الستينيات، إذ عبر البربر/ الأمازيغ في منطقة القبائل عن شكاويهم ضد استبداد النظام وازدرائه للهوية الأمازيغية/ البربرية الثقافية، واللغوية الثرية، وكذلك إهماله لاقتصاد المنطقة.

ألهمت هذه الحركة الجماهيرية الديمقراطية الحقيقية عقدًا من الصراع والثورات المستمرة. إذ مَثَّلَ انفجار المظاهرات الضخمة في الشوارع في أكتوبر 1988، بالتزامن مع الإضرابات في القطاع العام، مثالًا آخر عَبَّرَ فيه آلاف الشباب عن رفضهم للنظام إلى أن أجبروه على الانفتاح، وإقرار التعددية السياسية.

بعد "العشرية السوداء" (في إشارة إلى الحرب الأهلية في التسعينات) وفي مطلع عقد الـ 2000، شهدنا ازدهارًا للسياسات غير المؤسسية. وتجسدت في الإضرابات المستمرة المترافقة مع إنشاء نقابات مستقلة، إحياء الحركة النسوية، إحياء ثقافي، فضلاً عن التمرد القوي للشباب ضد وحشية الشرطة سنة 2001.

في أبريل من ذلك العام، اندلعت انتفاضة في منطقة القبائل. خلال سنة ونصف، احتلت حركة شعبية قوية صفوف المشهد السياسي وأعادت مسألة الديمقراطية إلى جدول الأعمال. نظمت هذه الحركة في 14 يونيو مسيرة مهيبة بالجزائر العاصمة وألهمت العديد من المواطنين في غير مناطق الانتفاض ضد الحُقْرَة (الإذلال والظلم الاجتماعي).

على الرغم من وحشية القمع، وصعوبة إعادة تنشيط الضغط الاجتماعي من الأسفل، حُصِّلَتْ مكاسب ثمينة للمستقبل، من بينها تضامن وطني أكبر والاعتراف بالجذور الأمازيغية للبلاد حتى من قِبَلِ الدولة؛ إذ تم الاعتراف بالأمازيغية كلغة "وطنية" وأصبحت لغة رسمية سنة 2011، كجزء من الإجراءات الساعية لاسترضاء

المخالفين في خضم السياق الثوري الإقليمي.

ساعدت هذه المكاسب المتأتية من النشاطوية الاجتماعية والثقافية مزيدًا من الجزائريين على تعريف أنفسهم كأمازيغ. كما ساهم التضامن بين مناطق متنوعة؛ من شرق الشاوية إلى جنوب زناتة أو الطوارق، في إزالة التهميش عن هذه الثقافة وإبرازها على نطاق أوسع. صار من الحس السليم اليوم اعتبار أن الثقافة الأمازيغية ليست محصورة بمنطقة واحدة، بل تضم هويات عبر وطنية أوسع.

يُنظَرُ الآن إلى كل المناطق، بما في ذلك الصحراء الجزائرية المهمشة التي طالما نُبِذَتْ بسبب العنصرية المعادية للسود، على أنها جزء من مصير مشترك. في 2015، أثارت الحركة المناهضة لاستخراج الغاز الصخري الإعجاب، وذلك لنجاح عدة مناطق في الجنوب تفصل بينها آلاف الكيلومترات وتختلف تمامًا عن بعضها البعض، في التنسيق سوية ومنع خطط التكسير. لم تقابل انتفاضة الغاز الصخري واحتجاجات المفتقدين للعمل منذ عام 2012 بالتضامن العالمي فحسب، بل أمست أيضًا مصادر إلهام للمستقبل.

أثارت الحركة المناهضة للغاز الصخري مخاطر التضحية بمورد طبيعي حيوي، ألا وهو الماء، باسم جذب رأس المال الدولي. يعني التكسير تشريد الناس ومحو تاريخ يعود لآلاف السنين، فضلاً عن إضعاف المنظومة البيئية الصحراوية عبر النمط الاستخراجي. بالتالي، لم يكن الأمر يتعلق بالتشغيل فحسب، بل بوجود هذه المجتمعات نفسها، وهو ما يفسر المشاركة الكثيفة للنساء وسلمية الاحتجاجات والمظاهرات في الشوارع.

تمكنت الحركات النسائية من الحصول على إصلاحات حول قانون الأسرة. لقد تغلبن على ما حدث من انقسام حول مسألة الحجاب خلال الحرب الأهلية. وقد وقعت مسألة الحجاب وقتئذٍ في فخ الرؤية الاستعمارية، إذ نظم جنرالات فرنسيون حملات لنزع الحجاب قسريًّا في الفضاء العام أثناء حرب التحرير بهدف إذلال الجزائريين.

من ناحية أخرى، كان هناك هجوم إسلاموي في الثمانينات سعى لاستخدام هذا الإرث الاستعماري في دعوته للعودة إلى تقليد "محتجب". مَثَّلَتْ حقوق المرأة إحدى

جبهـات الصـراع الرئيسـة خـلال الحـرب الأهليـة، لأن مثـل هـذه الخطابـات كانـت شـديدة الاسـتقطاب بيـن الجماعـات المتعارضـة.

لعبـت الدولـة علـى كلتـا الحجتيـن: مـن جهـة الاعتمـاد علـى قانـون الأسـرة للدعـوة إلـى الحفـاظ علـى التقاليـد، ومـن جهـة ثانيـة دعـم الشـخصيات العلمانيـة النسـائية؛ حتـى تظهـر كبطـل مدافـع عـن حقـوق المـرأة ضـد الإسـلاميين فـي محاولـة منهـا لفـرض وصايتهـا علـى الحركـة النسـوية.

وصلـت نفـس المكونـات التـي وُجِـدَتْ فـي التجـارب المتراكمـة منـذ سـنة 1980، مـن حقـوق المـرأة إلـى الحقـوق الثقافيـة والديمقراطيـة وكذلـك إعـادة التوزيـع الاجتماعـي للثـروة، إلـى الأجيـال الجديـدة مـن متظاهـري وثـوار الحـراك.

الموجة الثانية من مسار ثوري إقليمي

ينبغـي تحليـل الانتفاضـة الجزائريـة فـي سـياق المسـار الثـوري المتواصـل الـذي اجتـاح فـي العقـد الأخيـر شـمال إفريقيـا وغـرب آسـيا، بدايـة مـن تونـس ومصـر منتشـرًا ببقيـة الأقطـار. مـن الواضـح أن هـذا المسـار مُثْقَـلٌ بتناقضـات وتقلبـات ومكاسـب ونكسـات. علـى سـبيل الذكـر، تجسـدت هـذه الأخيـرة فـي تونـس بانتقـال ديمقراطـي ليبرالـي، وثـورات مضـادة دمويـة وتدخـلات إمبرياليـة سـافرة فـي بقيـة البلـدان التـي شـهدت انتفاضـات شـعبية. فـي التسـع السـنوات الماضيـة قُدِّمَـتْ الجزائـر "كاسـتثناء"، وبـدت منيعـة أمـام ريـاح الثـورة رغـم احتوائهـا علـى نفـس أسـباب الانتفـاض.

اقتصـر خطـاب الحكومـة آنـذاك علـى أن الجزائـر قـد شـهدت "ربيعهـا" الخـاص قبـل عشـرين سـنة مـن بدايـة مـا سُـميَّ بـ "الربيـع العربـي". وذلـك فـي إشـارة ضمنيـة إلـى فتـرة الانتقـال الديمقراطـي القصيـرة المواليـة لأسـابيع مـن المظاهـرات فـي أكتوبـر1988، والتـي أجبـرت حينهـا النظـام علـى إفسـاح المجـال لتعدديـة سياسـية وصحافـة مسـتقلة.

غيـر أن هـذه المكاسـب فـي الحريـات المدنيـة و"الانتقـال الديمقراطـي" قـد أُجْهِضَـتْ بانقـلاب عسـكري وحـربٍ علـى المدنييـن فـي التسـعينات. ويمكـن تفسـير فشـل الانتفاضـة

فـي ترسـيخ جذورهـا فـي الجزائـر خـلال الفتـرة 2010- 2011 بشـبح الحـرب الأهليـة المخيـم علـى الذاكـرة الجماعيـة: مئـات الآلاف مـن القتلـى وعنـف وحشـي مـن الدولـة للقضـاء علـى المعارضـة الإسـلامية فيمـا يُعـرف بالعشـرية السـوداء، إضافـة إلـى تواصـل مختلـف أشـكال القمـع. تعـززت هـذه المخـاوف بالتدخـل فـي ليبيـا ونجـاح الثـورة المضـادة فـي مصـر وأخبـار المجـازر مـن سـوريا والتدخـلات الأجنبيـة فيهـا.

كذلـك اسـتعمل النظـام عائـدات النفـط والغـاز لشـراء سـلم اجتماعـي داخلـي ولضمـان قبـول دولـي. سـاهم الرخـاء البترولـي محليًّـا فـي "تهدئـة" المواطنيـن وفـي منـع أي غضـب شـعبي مـن التحـول إلـى حـراك جـذري، علـى الأقـل حتـى انخفـاض أسـعار المحروقـات فـي 2014. أمـا خارجيًّـا، ولكـون البلـد أكبـر ثالـث مصـدر للغـاز نحـو الاتحـاد الأوروبـي، بعـد روسـيا والنرويـج، ونظـرًا لتضـاؤل إنتـاج بحـر الشـمال والأزمـة الأوكرانيـة، أمـل النظـام فـي اسـتغلال الموقـف للعـب دور أكثـر أهميـة فـي تأميـن احتياجـات الاتحـاد مـن الطاقـة، وبالتالـي ضمـان الموافقـة والتواطـؤ الغربيين.

رغـم خصوصيـة الأحـداث الجاريـة فـي الجزائـر إلا أنهـا ليسـت الوحيـدة أو الأولـى فـي تاريـخ النضـالات والثـورات. لـذا مـن الضـروري اسـتخلاص الـدروس مـن التجـارب السـابقة، ومـن الـدول المجـاورة كتونـس ومصـر.

أزمة اقتصادية وصراع قوى داخلي

تشـهد الجزائـر منـذ فتـرة أزمـة حـادة متعـددة الأبعـاد. فقـد عاشـت البـلاد علـى وقـع أزمـة سياسـية امتـدت لعقـود، خاصـة فـي الفتـرة المواليـة للانقـلاب العسـكري سـنة 1992 ومـا أعقبـه مـن حـرب شـنيعة علـى المدنييـن. تعـود جـذور الأزمـة إلـى فتـرة الاسـتعمار الفرنسـي، رغـم كـون أحـدث مظاهرهـا هـو نتيجـة مباشـرة لسياسـة التراكـم الطفيلـي وترسـيخ الفسـاد: طغمـة مـن الجنـرالات والأوليغاركيّيـن ترفـض حـق الشـعب الجزائـري فـي تقريـر مصيـره والتحكـم فـي ثرواتـه وتسـتبدل الشـرعية الشـعبية بدعـم رأس المـال المحلـي والدولـي. سـاهمت عـدة أسـباب فـي تفاقـم الأزمـة؛ منهـا مـرض الرئيـس عبـد العزيـز بوتفليقـة وغيابـه عـن المجـال العـام منـذ سـنة 2013. مـأزق كبيـر، زاد الصـراع الداخلـي لنخبتـه الحاكمـة

الطيـن بَلَّـة، وقـد بلـغ ذروتـه سـنة 2015 مـع سـقوط الرجـل القـوي، الجنـرال توفيـق، رئيـس وكالـة الاسـتخبارات العسـكرية. يُضَـافُ إلـى ذلـك فضيحـة الكوكاييـن سـنة 2018 (تـم ضبـط 701 كلـغ مـن الكوكاييـن فـي مينـاء وهـران، غـرب الجزائـر) التـي أودت بمنصـب قائـد الشـرطة وبعـض الجنـرالات وموظفيـن سـامين مـن وزارة الدفـاع.

حيـن قـدم بوتفليقـة لمسـاعدة الدولـة، لـم يقبـل بـأن يكـون "ثلاثـة أربـاع رئيـس" علـى حـد تعبيـره. بـدأت تظهـر بعـض الشـقوق فـي هيـكل الدولـة كنتيجـة لجهـوده فـي سـحب السـلطة ونقـل ثقلهـا بعيـدًا عـن الجيـش، وخاصـة عـن أجهـزة المخابـرات.

غيـر الحـراك الشـعبي شـكل العلاقـة بيـن صنـاع القـرار الجزائرييـن. فبعـد تحالـف مؤسسـتي الرئاسـة ورئاسـة الأركان وانفصالهمـا التدريجـي عـن المخابـرات العسـكرية سـنوات 2008 - 2015 (بسـبب اعتـراض الأخيـرة علـى التعديـل الدسـتوري الـذي خَـوَّلَ لبوتفليقـة الترشـح لولايـة ثالثـة وكشـفها سلسـلة فضائـح فسـاد، تلتهـا إقالـة مديـر المخابـرات العسـكرية)، تغيـر المشـهد تمامـا فـي 2019 باقتحـام الشـعب الحاسـم للسـاحة السياسـية. إذا أحـدث ذلـك فـي البدايـة تصدعًـا بيـن مؤسسـة الرئاسـة وقيـادة الأركان، ثـم سـرعان مـا تعمـق؛ ليتحـول فـي غضـون أسـابيع إلـى انفصال. فـلا يخفـى علـى أحـد أن تدخـل المؤسسـة العسـكرية لوضـع حـد لحكـم بوتفليقـة كان مـن أجـل الحفـاظ علـى النظـام. وإن دل هـذا علـى شـيء فهـو يـدل علـى عمـق التناقضـات وعـدم الاسـتقرار داخـل الكتلـة الحاكمـة وصـراع الهيمنـة داخلهـا، مـا فتـح مجـالات جديـدة للمقاومـة.

فـي سياق فشـل المعارضـة المؤسسـية والحـركات الاجتماعيـة فـي صياغـة بديـل واقعـي، كان مُتوقَّعـا منـذ سـنة 2016 أنّ "تدهـور أسـعار النفـط سـيدق المسـمار الأخيـر فـي نعـش اقتصـاد ريعـي غيـر مُنْتَجٍ وغيـر مُصَنَّعٍ ومُعتمـد أساسًـا علـى عائـدات النفـط والغـاز كمصـادر أساسـية للعملـة الصعبـة... فمَـع انخفـاض أسـعار النفـط واحتياطـي عملـة صعبـة (قُـدِّر بــ 179 مليـار دولار نهايـة سـنة 2014) مرشـح للانخفـاض بعـد 2016ـ 2017، تظهـر هكـذا مُعطيـات سـهولة تكـرار أزمـة 1988، وإمكانيـة تفاقمهـا، مؤديـة إلـى انفجـار كامـل مهـدد لأمـن البـلاد القومـي وسـلامة أراضيـه"[12].

12- Hamouchene, H. & Rouabah, B., 2016. The political economy of regime survival: Algeria in the context of the African and Arab uprisings, Review of African Political Economy

تأتـي الأحـداث الأخيـرة فـي وقـت تعانـي فيـه البـلاد مـن أزمـة اقتصاديّـة خانقـة -مـن أبـرز مظاهرهـا سياسـة تقشـف ناتجـة عـن تراجـع عائـدات النفـط والغـاز- تزامنـت مـع اشـتداد الخلافـات والانقسـامات وسـط النخبـة الحاكمـة حـول ترشـح بوتفليقـة مـن عدمـه لعهـدة خامسـة.

إن نظـرة حـذرة للاقتصـاد الجزائـري خـلال العقـود الثلاثـة الأخيـرة، وخاصـة تحـت حكـم بوتفليقـة، تُظْهِـرُ سـيطرة بورجوازيـة لا وطنيـة عقيمـة وغيـر منتجـة علـى شـؤون الدولـة وعلـى تحديـد خياراتهـا الاقتصاديـة. لـم تتوقـف هـذه الطغمـة "الأوليغارشـية الكمبرادوريـة" الحاكمـة عـن بيـع البـلاد لـرأس المـال الأجنبـي وللشـركات متعـددة الجنسـيات. تمثـل هـذه النخبـة التابعـة لنظـام الهيمنـة الاقتصاديـة والسياسـية والعسـكرية العالميـة الوكيـل الفعلـي للإمبرياليـة وأداتهـا الناجعـة. مثـال آخـر علـى نزعتهـم تلـك: سـيعطي قانـون المحروقـات الجديـد، الـذي دخـل حيـز التنفيـذ فـي ينايـر 2020، الشـركات متعـددة الجنسـيات حوافـز أكثـر (اقـرأ امتيـازات) وسـيفتح الطريـق لمشـاريع مدمـرة كاسـتغلال الغـاز الصخـري فـي الصحـراء والمـوارد البحريـة فـي البحـر الأبيـض المتوسـط.

الحراك: حركة شعبية تاريخيّة

منـذ الثانـي والعشـرين مـن فبرايـر 2019، يخـوض شـعب الجزائـر ثـورة ملهمـة ضـد النظـام الديكتاتـوري وسياسـاته الرأسـمالية المحسـوبية. بعـد أن أنزلـت المظاهـرات الضخمـة ضـد اسـتمرار بوتفليقـة فـي الحكـم الملاييـن إلـى الشـوارع، سـرعان مـا تشـكلت حركـة شـعبية (الحـراك) أطاحـت بـه فـي أوائـل أبريـل 2019. تواصلـت منـذ ذلـك الحيـن المظاهـرات معارضـة للجيـش الـذي حافـظ علـى السـلطة الفعليـة.

أحبطـت المظاهـرات الأسـبوعية الضخمـة والتهديـدات بالعصيـان المدنـي مسـاعي السـلطة لإجـراء انتخابـات سـابقة لأوانهـا صيـف 2019، لكـن ظـل الحِـراك مُحتاطًـا مـن رئيـس أركان الجيش قايـد صالـح حتـى وفاتـه فـي ديسـمبر مـن نفـس السـنة. تحـدى الحـراك درجـات حـرارة الصيـف الحارقـة فواصـل ضغطـه الأسـبوعي حتـى توقفـه فـي مـارس 2020 بسـبب الجائحـة العالميـة. قبـل ذلـك جـاب ملاييـن الجزائرييـن شـوارع البـلاد كل يـوم جمعـة مطالبيـن بتغييـر ديمقراطـي جـذري. كذلـك نظمـت الحركـة الطلابيـة احتجاجـات ومسـيرات كل ثلاثـاء.

مثلما بَيَّنَتْهُ شعاراتهم، أصر الجزائريون على مواصلة ثورتهم ووضع حد لحيل وألاعيب قوى الثورة المضادة التي أدارتها القيادة العسكرية العليا (ق. ع. ع)، وخاصة الجنرال قايد صالح. كانت الشعارات واضحة وصريحة: "دولة مدنية لا دولة عسكرية"، "جمهورية لا ثكنة عسكرية"، "قايد صالح مع الخونة"، علاوة على شعارات أخرى معادية لقايد صالح وإصراره على إجراء انتخابات رئاسية في أقرب فرصة. فهم الجزائريون أن انتخابات دون فترة انتقالية تعني عودة إلى الوضع السابق وانتصارًا للثورة المضادة.

الدور الرجعي للعسكر

للجيش مكانة خاصة في الحياة السياسية الجزائرية منذ الاستقلال سنة 1962. حكم البلاد دومًا نظام عسكري، سواء بطريقة مباشرة أو عبر واجهة مدنية، أو عبر تحالف مع المدنيين مثلما حدث خلال عهد بوتفليقة. لا تزال المؤسسة العسكرية محتفظة بنوع من المشروعية في المخيال الشعبي كـ "سليل مباشر" لجيش التحرير الوطني الذي حارب ضد المحتل الفرنسي. إلا أن الواقع أكثر تعقيدًا بكثير، كما طعنت تأويلات أخرى في الوقائع التاريخية للحرب وما بعدها في هذه السردية الطاغية[13].

خلقت عسكرة المجتمع ثقافة خوف وأجواء من عدم ثقة عامة بين الجزائريين. زِدْ على ذلك تاريخ من الانتفاضات المقموعة وقسوة وهمجية حرب التسعينات البغيضة. صار من المفهوم إذًا لماذا أرادت الحركة الشعبية تجنب المواجهة مع الجيش. غير أن المشاركين في الحراك يميزون بين القيادة العسكرية العُليا (ق. ع. ع) والرتب الأخرى القادمة من الطبقات الشعبية. لم تتورط هذه البرجوازية العسكرية في نهب ثروة البلاد ومواردها فقط، بل هي كذلك لاعب نشط في الإثراء الفاضح والطفيلي لقلة من الجزائريين.

كان هناك في الأسابيع الأولى من الحِراك ما يشبه الأمل الساذج بأن الجيش سيرافق

13- Mohammad, H., 1980. Le F.L.N. Mirage et réalité. Des origines à la prise du pouvoir (1945-1962), Paris: Éd. Jeune Afrique.

الحركـة فـي مطالبهـا. كان المحتجـون علـى اسـتعداد لمنـح قايـد صالـح فرصـة لافتـداء نفسـه. اسـتغل صالـح الفرصـة لفـرض أجندتـه وتعزيـز موقعـه داخـل النظـام. رفـض الجنـرال الدكتاتـور أيـة تنـازلات، بمـا فـي ذلـك إطـلاق المسـاجين السياسـيين وضمـان الحريـات الفرديـة والعامـة للتعبيـر والتنظُّـم أو السـماح بفتـرة انتقاليـة.

لقـد اتهـم أي شـخص ذو رأي مختلـف بالخيانـة وزعزعـة الاسـتقرار. صحيـح بأنـه وعلـى عكـس بلـدان أخـرى فـي المنطقـة لـم يطلـق الجيـش الرصـاص حتـى الآن، إلا أنـه واصـل فـي تبريـر الإجـراءات القمعيـة مثـل منـع الدخـول إلـى العاصمـة أيـام الجمعـة واعتقـال النشـطاء الذيـن يرفعـون العلـم الأمازيغـي والتضييـق علـى الصحفييـن. أدارت القيـادة العسـكرية العليـا (ق. ع. ع) ظهرهـا لـكل خريطـة طريـق اقترحهـا فاعلـون مـن الحـراك وتجاهلـوا كل النـداءات لحـوار حقيقـي.

كشـرّت الثـورة المضـادة عـن أنيابهـا عبـر أجهزتهـا الأمنيـة القمعيـة فـي الشـوارع، وكذلـك مـن خـلال هجماتهـا المتزايـدة فـي وسـائل الإعـلام. تـم ترويـض كل وسـائل الإعـلام السـمعية، والبصريـة، وجـل الصحافـة المكتوبـة العامـة والخاصـة. لـم تُغـطِّ تلفـزة جزائريـة واحـدة (تبـث مـن الجزائـر) الاحتجاجـات أو مطالـب ملاييـن الجزائرييـن الذيـن يجوبـون الشـوارع.

فـي أكتوبـر، علـق مـزود القمـر الاصطناعـي الأوروبـي "أوتلسـات"، ومقـره باريـس، عمـل القنـاة الوحيـدة التـي غطـت الأحـداث: المغاربيـة. وذلـك اسـتجابة لطلـب الحكومـة الجزائريـة وبتواطـؤ مـن المؤسسـة السياسـية الفرنسـية.

نشـطت حمـلات وسـائل التواصـل الاجتماعـي بقيـادة جيـش إلكترونـي مـن المتصيديـن، الذيـن يعملـون مـن الجزائـر ومصـر والإمـارات العربيـة المتحـدة وأماكـن أخـرى، علـى مـدار السـاعة للتضليـل ونشـر الأخبـار الزائفـة والدعايـة المؤيّـدة لــ (ق. ع. ع).

لقـد عملـوا علـى إسـكات الحسـابات المعارضـة علـى موقعـي تويتـر وفيسـبوك، وعلـى

تشـويه سـمعة الرمـوز التاريخيـة والشـخصيات المعارضـة الشـعبية[14]. أدارت (ق. ع. ع). مـا يشـبه الحـوار مـع فاعليـن سياسـيين ذوي ارتبـاط وثيـق بالأوليغارشـية. فعينـت هيئـة انتخابـات "مُسـتقلة" عدلـت القانـون الانتخابـي وحـددت تاريـخ 12 ديسـمبر كموعـد للانتخابـات الرئاسـية. زادت مثـل هـذه الاسـتفزازات فـي تحفيـز الحركـة الشـعبية. بحلـول منتصـف أكتوبـر اسـتعادت أرقـام المتظاهريـن فـي الشـارع مسـتويات مـارس وأبريـل. انتشـرت الشـعارات المسـتهدفة للقيـادة العسـكرية ولقائـد القـوات المسـلحة. ونذكـر منهـا:

" سـتتحرر الجزائـر وليذهـب الجنـرالات إلـى المزبلـة" و" اسـمع يـا قايـد: نريـد دولـة مدنيـة لا دولـة عسـكرية" و" يـا قايـد أنـت مخـادع، توقـف عـن اللعـب بنـا؛ قلنـا مـن الأوِّل يتنحـاو قـاع".

اسـتمرت هـذه المعارضـة للإبقـاء علـى الوضـع القائـم بـلا هـوادة، حتـى بعـد وفـاة قايـد صالـح والانتخابـات الرئاسـية المفروضـة كأمـر واقـع فـي 12 ديسـمبر 2019، وذلـك إلـى حـدود الأشـهر الأولـى مـن عـام 2020 حيـن أجبـرت الأزمـة الصحيـة العالميـة الحـراك علـى إيقـاف المسـيرات والاحتجاجـات مؤقتًـا.

إنجازات وانتصارات

حققـت الحركـة الشـعبية الكثيـر خـلال العـام المنقضـي. إذ أجبـر الحـراك القيـادة العسـكرية العليـا علـى النـأي بنفسـها عـن زمـرة الرئاسـة وعزلـت فعليًّـا بوتفليقـة الـذي حكـم طيلة العشـرين سـنة الأخيـرة. كمـا أن الحـراك أجهـض الانتخابـات الرئاسـية المزمعـة مرتيـن: الأولـى التـي ترشـح لهـا بوتفليقـة سـعيًا لعهـدة خامسـة فـي أبريـل والثانيـة فـي الرابـع مـن يوليـو، والتـي اُعتبـرت كسـتار للحفـاظ علـى هيمنـة الــ (ق. ع. ع).

بغـض النظـر عـن الحملـة الإعلاميـة المركـزة ضـد الفسـاد التـي قـام بهـا النظـام، والتـي تمثـل إلـى حـد كبيـر عمليـة ذر رمـادٍ علـى العيـون وتصفيـة حسـابات بيـن مختلـف أجنحـة

14- For more details, read Rouabah's excellent account on the different facets of the counter-revolution: The people's movement in Algeria, eight months on. Africa is a country, 1 November 2019.

النظـام، إلا أن رؤيـة وجـوه أوليغارشـية عليـا ومتنفذيـن سـابقين فـي السـجن، مـن بينهـم رؤسـاء وزراء سـابقون ورؤسـاء أجهـزة أمنيـة وشـقيق الرئيـس المخلـوع، لهـو فـي حـد ذاتـه إنجـاز عظيـم.

لـم يكـن ليحـدث أمـر كهـذا مـن دون التحـركات الشـعبية ومطالبـات المحاسـبة والقضـاء علـى الفسـاد: "كليتـوا البـلاد يـا السـرَّاقين" و"ستحاسـبون جميعًا".

رغـم كل العراقيـل التـي تكدسـت علـى طريـق الحـراك، ورغـم جهـود الدولـة لتقسـيمه واسـتمالته وإجهـاده، إلا أنـه حافـظ بمثاليـة علـى وحدتـه وسـلميته. يظهـر هـذا فـي عديـد مـن الشـعارات مثـل: "الجزائريـون أخـوة، الشـعب موحـد يـا خونـة".

يمكـن القـول أن الوعـي السياسـي والعـزم علـى الكفـاح مـن أجـل تغييـر ديمقراطـي حقيقـي مثـلاً أهـم إنجـازات الانتفاضـة الشـعبية. لقـد اكتشـف النـاس إرادتهـم السياسـية وأدركـوا أنهـم المتحكميـن فـي مصائرهـم. أطلـق هـذا المسـار التحـرري العنـان لكميـة طاقـة وثقـة وإبـداع وانتفـاض غيـر مسـبوقة.

بعـد عقـود مـن محاصـرة المجتمـع المدنـي وإسـكات المعارضيـن وتفتيـت المعارضـة، مـن الملهـم حقًّـا أن تـرى الحـراك فـي قـوة متصاعـدة علـى مـدى سـنة كاملـة، دون تراجع ولا انحسـار، بـل بدفـع دائـم نحـو الأمـام. نجـح الحـراك فـي الكشـف عـن شـبكات الخـداع التـي نشـرتها (ق. ع). وماكينتهـا الدعائيَّـة. فضـلاً عـن ذلـك، يُبيِّـن تطـوُّر الشـعارات والأناشـيد وأشـكال المقاومـة مسـار التسـيس والتعليـم الشـعبي. خلـق اسـترجاع الفضـاء العـام نوعًـا مـن "الأغـورا" أيـن تناقـش النـاس وتبادلـوا آراءهـم وتحدثـوا عـن الاسـتراتيجيات والأفـاق. انتقـدوا كذلـك بعضهـم البعـض أو عَبَّـرُوا ببسـاطة عـن أنفسـهم بطـرق شـتى، مـن بينهـا الفـن والموسـيقى. لقـد فتـح هـذا آفاقًـا جديـدةً للمقاومـة وللبنـاء الجماعـي. وقـد تلقـى أولئـك الذيـن أعلنـوا مـوت الحـراك الجـواب: الحركـة الشـعبية هنـا لتبقـى (رغـم التوقـف المؤقـت نتيجـة للجائحـة العالميـة) مشـيرين إلـى عزمهـم علـى إجبـار النظـام علـى الخضـوع: "الشـعب يريـد الاسـتقلال!"، "يـا احنـا يـا أنتـم واللـه مانـاش موقفيـن!".

اتخــذ الإنتــاج الثقافــي معنًــى آخــر لأنــه ارتبــط بالتحــرر وصــار يُعتَبَــر أحــد أشــكال الفعــل السياســي والتضامــن. بعيــدًا عــن الإنتاجــات الفلكلوريــة والعقيمــة الســابقة تحــت

"الرعاية" الخانقة لبعض النخب السلطوية، نشهد الآن ثقافة موجهة للناس، تعكس مقاومتهم وصراعاتهم من خلال الشعر والموسيقى والمسرح والرسوم المتحركة وفن الشارع.

لعبت النساء كذلك -وما زالت- دورًا مُهمًّا في الانتفاضة من الممكن ملاحظته في حضورهن القوي في المسيرات والاحتجاجات في مختلف أرجاء البلاد، بما في ذلك المناطق المحافظة. هن نشطات كذلك في الحركة الطلابية التي استطاعت المحافظة على مسيراتها الأسبوعية لأكثر من سنة. واجهت بعضهن القمع، وحتى السجن، ولكنهن يواصلن إظهار تفانيهن الثابت في سبيل النضال.

تبذل بعض المنظمات النسوية قصارى جهدها لوضع قضية تحرير المرأة في قلب الثورة الديمقراطية. إذ تُعَامَلُ النساء كمواطنات من درجة ثانية، ليس فقط على مستوى المساواة في الحقوق وإنما كذلك على مستوى العدل الاقتصادي. استلهمت بعضهن من التونسيات اللاتي يطالبن بالمساواة في الإرث، فيسعين الآن لتحقيق نفس المطالب. أما سؤال البطالة فهو أكثر تعقيدًا، لأن النساء يمثلن 18% فقط من القوة العاملة.

استخلصت النساء الدروس ممن سَبِقْنَهُنَّ في الكفاح لأجل التحرير الوطني، ويرفضن اليوم أن تُرجَعَ مسألة انعتاق النساء إلى الخلف وأن تعتبر كقضية ثانوية. لهذا تنظم بعض المجموعات النسوية صفوف نسوية في المظاهرات أو تتصدر بعض الاحتجاجات تثبيتا لحضورها. تعزز ذلك بحضور وجوه ثورية مثل جميلة بوحيرد ولويزة إغيل أحريز، مما يدل على أن النضالات من أجل السيادة الشعبية وتحرير المرأة مترابطة ومستمرة. "لسنا هنا للاحتفال، نحن هنا لاقتلاعكم!" هكذا أنشدت السيدات الجزائريات خلال اليوم العالمي للنساء (8 مارس 2020) في شوارع البلاد.

هي ليست مجرد انتفاضة للطبقة الوسطى. شاركت الطبقات الشعبية من الأحياء المهمشة والمعطلون عن العمل الشبان والعمال الفقراء في المسيرات مطالبين بالحرية ومعبرين عن استيائهم من الإقصاء الاجتماعي والاقتصادي وعن غضبهم من عمليات التفقير التي يتعرضون لها. وقد هتفوا: "انتوما أسبابنا"، أي أنتم المتسببين

فـي معاناتنـا. كانـت الكثيـر مـن الشـعارات والأناشـيد الشـهيرة اللاذعـة مـن اختـراع وابتـكار هـذا "الشـباب بـلا آفـاق" الـذي رأى فجـأة بصيـص النـور فـي نهايـة النفـق. وقـد مَثَّـلَ "لاكازا دي المراديـة" (فـي إشـارة إلـى المسلسـل التلفزيونـي الشـهير "لاكازا دي بابـل") أحـد أناشـيد/ ترنيمـات الثـورة الـذي نشـأ فـي مـدارج الملاعـب علـى يـد مشـجعي كـرة القـدم ثـم تجاوزهـا ليصبـح نشـيدًا حاضِنًـا ومُحفـزًا للحـراك.

فاعلو الحراك وتكتيكاته

مثلمـا حـدث فـي مصـر، قـاد الشـباب الحـراك الفضفـاض نسـبيًّا، إذ لا يوجـد قـادة أو هيـاكل منظمـة يمكـن تحديدهـا بشـكل واضـح. إنهـا انتفاضـة شـعبية تحشـد القـوى الجماهيريـة مـن الطبقـات الوسـطى ومـن الطبقـات المهمشـة فـي المناطـق الحضريـة والريفيـة. وعلـى عكـس السـودان، حيـث لعـب تجمـع المهنييـن السـودانيين دورًا قياديًّـا وتنظيميًّـا، فـي الجزائـر يحصـل التنظيـم أفقيًّـا وبشـكل رئيسـي مـن خـلال وسـائل التواصـل الاجتماعـي. تـم تنظيـم الإضـراب العـام فـي الأسـابيع القليلـة الأولـى مـن الانتفاضـة، بشـكل عفـوي إثـر نـداءات مجهولـة المصـدر علـى وسـائل التواصـل الاجتماعـي. كان لهـذا الإضـراب دور أساسـي فـي إجبـار بوتفليقـة علـى التنـازل وفي زعزعـة التحالفـات داخـل الطبقـة الحاكمـة.

تُسـمى هـذه الحالـة بِــ "ثـورة دون ثـوَّار" أو "ثـورة دون تنظيـم". تتسـم هـذه الديناميكيـات والحـركات غيـر المهيْكلـة، والتـي لا شـكل ولا قيـادة لهـا، بالهشاشـة. ورغـم مـا تتيحـه هـذه الخاصيـة مـن قـدرة علـى حشـد أعـداد ضخمـة مـن النـاس مـن مختلـف الطبقـات الاجتماعيـة وصعوبـة قمـع أو احتـواء قادتهـا، غيـر أنهـا وعلـى المـدى الطويـل تمثـل ضعفًـا فتَّـاكًا. هنـاك عـدم ثقـة كبيـر فـي الأحـزاب السياسـية وفـي الطبقـة السياسـية عمومًـا، لعـدة أسـباب منهـا عمـل بعـض الأحـزاب السياسـية مـع النظـام أو تدجينـه لهـا. ينبغـي كذلـك التذكيـر بـأن النظـام، بعـد انقـلاب سـنة 1992، قـد روع المجتمـع ودمـر نسـيج المسـاحات الحيويـة المدنيـة. إذ تواصـل خـلال سـنوات بوتفليقـة تقييـد وإضعـاف الأحـزاب السياسـية المعارضـة، ممـا جعـل المشـهد السياسـي قاحـلاً فـي الواقـع.

هُنـاك بعـض المبـادرات مـن منظمـات مجتمـع مدنـي والنقابـات والأحـزاب السياسـية

(تجمعات المجتمع المدني، ندوة 6 يوليو التي أقامها دبلوماسي سابق، القطب الديمقراطي البديل...) التي حاولت إعطاء تعبير سياسي للحراك. لكن ولحد هذه اللحظة تبدو هذه المحاولات محتشمة وقصيرة العمر، كما أنها تجاهد من أجل الانغراس في الطبقات المهمشة مما يعكس أزمة القيادة والمشروعية الحادة التي تعيشها البلاد.

تُمثل هذه "اللاقيادة والطابع الفضفاض" للانتفاضات كعب أخيلها وضعفا خطيرًا لموجة الثورات العربية الأولى (2010ـ 2011) ولهذه الموجة الثانية أيضًا (جنبًا إلى جنب مع السودان ولبنان والعراق). يجب أن يُفهم هذا النوع من التنظم في سياق نزع الراديكالية عن المعارضة في المنطقة. للتغلب على الثورة المضادة المنظمة والمحصنة هناك حاجة ماسة لمنظمات ثورية متماسكة، ذات قيادة قوية ورؤى استراتيجية.

لعب الاتحاد العام للعمال الجزائريين، أكبر نقابة في البلاد، دورًا رجعيًّا ضد مصالح العمال بحكم انتسابه إلى النظام. كانت هناك تحركات داخل الاتحاد في أولى مراحل الانتفاضة لإعادة "تملُّكه" وإخراج قياداته الفاسدة والموالية للنظام. احتج النقابيون في عدة مناطق على مدار الصيف مما اضطر الأمين العام إلى التنحي، لكن الذي أتى بعده لم يكن أفضل.

لعبت النقابات العمالية المستقلة دورًا وشاركت في الديناميكية الثورية الحالية، ولكن دورها، على عكس تونس والسودان، كان محدودًا للغاية. ويرجع ذلك في المقام الأول إلى إضعافها بشكل كبير على مدى العقود القليلة الماضية وتبني قياداتها مواقف إصلاحية متساهلة تجاه النظام القائم.

على سبيل المثال، في الوقت الذي كانت فيه القيادة العسكرية العليا ترفض أي فترة انتقالية وتصر على إجراء انتخابات رئاسية بشكل عاجل (أبريل- يوليو 2019)، لم تنظم هذه النقابات المستقلة نفسها أية حملة من أجل إضرابات تجبر العسكريين على التراجع، كما كان الحال مع السودان.

وبدلًا من ذلك، كان اتحاد النقابات المستقلة يدعو إلى انتقال ديمقراطي قصير

لمدة ستة أشهر فقط. فيما كان آخرون يطالبون بالحوار، وحتى أنهم اقترحوا قائمة أسماء للتفاوض مع النظام. لم تكن هذه الاستراتيجية مفيدة للعملية الثورية التي كانت بحاجة إلى المزيد من الجهود لتصعيد المقاومة من خلال زيادة مشاركة العمال في الانتفاضة.

على الرغم من كل هذه العيوب، أضربت النقابات المستقلة وخرجت في مسيرات خاصة بها. نظمت النقابات في قطاعي الصحة والتعليم العديد من الإضرابات والاحتجاجات تضامنًا مع الحركة الشعبية وللمطالبة بحقوق العاملين فيها. وقد بدا واضحًا دعم مسيرة غُرَّة مايو 2019 الضخمة للديناميكية الثورية. ومع ذلك، لم تتم الاستجابة للدعوة إلى الإضراب العام في أكتوبر، باستثناء بعض الإدارات في منطقة القبائل. كما دعمت نقابات المحامين والقضاة الحراك من خلال رفض الإشراف على انتخابات يوليو 2019 (الملغاة) في ظل النظام الحالي. لقد كان الطلاب فاعلين في الحراك، إذ واصلوا تنظيم مسيراتهم الأسبوعية، وبالتالي تأكيد حضورهم في الحركة الشعبية كقوة نشطة يمكنها أن تأخذ زمام المبادرة والقيادة.

إنها ثورة!

لم تشهد الجزائر، منذ الاستقلال عن المستعمر الفرنسي سنة 1962، أحداثًا مصيرية كهذه، مما يجعل هذه اللحظة ثورية ومليئة باحتمالات التجذر وتصعيد الكفاح. من الممكن ألا "ترقى" الثورة الجزائرية المتواصلة إلى صورة الثورة المتعارف عليها: تمردات جماهيرية يقودها حزب ثوري طليعي يطيح بالنظام ويسيطر على السلطة، ما يؤدي إلى نوع من القطيعة مع الماضي وإلى إقامة نظام سياسي واقتصادي جديد بطبقات حاكمة مختلفة. يميل مسار كهذا إلى العنف، إذ يتشكل من خلال مواجهات دامية مع أجهزة الدولة القمعية، وأحيانًا من خلال الكفاح المسلح.

يقول لينين: " حتى تقع ثورة، لا يكفي ألّا تريد الطبقات السفلى العيش بالطريقة القديمة؛ بل من الضروري ألا تقدر الطبقات العليا على الاستمرار بالطريقة

القديمـة"[15]. تنطبـق هـذه المقولـة علـى الحالـة الجزائريـة: لـم يعُـد النـاس قابليـن للوضـع القائم وتصـارع الطبقـة الحاكمـة الحاليـة كـي تسـيطر علـى الحـراك. رغـم كل الوسـائل التـي تمتلكهـا هـذه الطبقـة للعـودة إلـى الوضـع القديـم: مـن قمـع وعنـف جسـدي واعتقـالات وسـجن وتضييـق علـى حريـة التنقـل وقمـع لحريـات الإعـلام وتكتيـكات التقسـيم والحكـم عبـر دعايـة الكراهيـة، والحيـل الخادعـة لإعطـاء الانطبـاع بحـدوث التغييـر إلـخ، إلا أنهـا فشـلت فـي ذلـك. صحيـح أنـه لا يوجـد الآن أي حـزب ثـوري طليعـي يُمثّـلُ مصالـح الكادحيـن الفقـراء والجماهيـر الشـعبية، وصحيـح أيضًـا أن العمـال لا يشـاركون بنشـاط فـي الثـورة كعمـال بسـبب ضعـف وتفتـت الحركـة النقابيـة المسـتقلة. كمـا أنـه مـن الصـواب القـول إن الانتفاضـة لـم تقـم بعـدُ بإصـلاح النظـام أو لـم تتمكـن مـن خلـق انفصـال جـذري مـع النظـام القديـم، إذ لا تـزال النخـب العسـكرية الأوليغارشـية الحاكمـة ممسـكة بالسـلطة، وإن مـع بعـض التعديـل فـي بنيـة الطبقـات الحاكمـة. ومـع كل هـذا، فـإن الطابـع الثـوري للحركـة الشـعبية لا يخفـى علـى أحـد.

لقـد تجـاوز الحـراك خـلال أكثـر مـن سـنة العديـد مـن العراقيـل وتجنـب اسـتقطابًا خطيـرًا كما أظهـر عبقريـة لا يمكـن إنكارهـا فـي التفطـن لألاعيـب النظـام؛ يكـون الـرد دائمًـا عبـر تكتيـكات وشـعارات خلاقـة مبهـرة وذكيـة. عرقـل الشـباب، على سـبيل المثـال، الحمـلات الانتخابية لمرشـحي الرئاسـة فـي مختلـف مناطـق البـلاد وذلـك عبـر منعهـم مـن الوصـول إلـى مدنهـم وكذلـك بتعطيـل اجتماعاتهـم. قاطـع النـاس بنشـاط انتخابـات 12 ديسـمبر، إذ أغلقـوا بعـض المكاتـب الانتخابيـة فـي منطقـة القبائـل كمـا نظمـوا احتجاجـات يـوم الاقتـراع. فـي اليـوم الموالـي وبُعيـد إعـلان النتائـج خـرج النـاس للشـوارع مـرة أخـرى للتنديـد بالمهزلـة الانتخابيـة. بعـد الإعـلان عـن مناقشـة مشـروع قانـون النفـط والغـاز الملائـم للشـركات متعـددة الجنسـيات فـي البرلمـان فـي نوفمبـر 2019، خـرج النـاس تلقائيًّـا إلـى الشـوارع لأول مـرة يـوم الأحـد (بدايـة أسـبوع العمـل فـي الجزائـر) للاحتجـاج أمـام البرلمـان مسـتنكرين محـاولات النخـب الكومبرادوريـة إمعانهـا فـي تقويـض سـيادة البـلاد. بالإضافـة إلـى ذلـك، حـدث رد فعـل مماثـل عندمـا أعلـن الرئيـس تبّـون فـي ينايـر الماضـي أن الجزائـر سـوف تسـتغل إمكاناتهـا مـن الغـاز الصخـري. رد النـاس: "كسِـرْ فـي

15- V.I. Lenin, 1914. The Collapse of the Second International. Collected Works, Volume 21. Moscow: Progress Publishers.

باريس، مش هنا!" (أي عبر تقنية التكسير المائي) في إشارة إلى الشركات الفرنسية متعددة الجنسيات مثل توتال المهتمة باستغلال الموارد الصخرية في الجزائر.

يعرف الجزائريون ما يستطيع العسكر فعله، وعلى الرغم من آثار صدمة العشرية السوداء ما زالوا مصرين بكل شجاعة على "دولة مدنية لا عسكرية! ". وهم بذلك يُعِرُّون حقيقة النظام الجزائري: ديكتاتورية عسكرية مُختفية وراء واجهة "ديمقراطية".

في جوهره سيادي ومُعادٍ للاستعمار

بعيدًا عن الجدل الدلالي حول ما إذا كانت حركة أو انتفاضة أو تمرد أو ثورة، يمكن للمرء أن يقول على وجه اليقين أن ما يحدث في الجزائر هو مسار تحول يحمل في أحشائه ممكنات الانعتاق. فتطور الحركة ومطالبها، خاصة فيما يتعلق بالـ "استقلال" و"السيادة" و"إنهاء نهب ثروات البلاد"، يمثل أرضًا خصبة لأفكارٍ معادية للاستعمار وللرأسمالية ومعادية للإمبريالية، وحتى إيكولوجية. كما يمكنها أن تفتح الطريق أمام صراع تقدمي من خلال تعبئة القوى الاجتماعية ذات الصلة: العمال (النظاميين وغير النظاميين)، الفلاحون، الشباب المعطلون عن العمل، الجماهير الشعبية، إلخ.

ما يعزز هذا التأكيد هو معاداة هذه الثورة الجزائرية، مثل سابقتها في الخمسينات، بشدة للاستعمار. إنها خصلة فريدة تميزها إلى حدٍّ ما عن الانتفاضات الأخرى في شمال إفريقيا وغرب آسيا، كما تستدعي المزيد من الاهتمام والتحليل. نظرًا لتجربتهم ومعاناتهم في ظل واحدة من أقسى الاستعمارات العنصرية الإبادية الاستيطانية، يجادل الكثيرون بأن الجزائريين قد ربوا داخلهم إحساسًا عميقًا بالعدالة الاجتماعية، ما يزال حاضرًا وملحوظًا إلى اليوم. يربط الجزائريون ربطًا مُباشرًا بين نضالهم الحالي ونضالهم ضد المستعمر الفرنسي في الخمسينات، كما يرون جهودهم كمواصلة لعملية محو الاستعمار. حين صدحت الحناجر: "الجنرالات إلى المزبلة

والجزائر ستحصل على استقلالها" فإنها تعري السردية الرسمية المفرغة حول الثورة المجيدة، وتكشف كيف استخدمتها البرجوازية اللاوطنية بوقاحة للمواصلة في سعيها للإثراء الذاتي بطريقة مخزية. هكذا يستعيد الجزائريون إذًا الاعتمادات الثورية ويؤكدون رغبتهم في أن يكونوا هم الورثة الحقيقيون للشهداء الذين ضحوا بحياتهم لتحرير هذه البلاد. لقد رأينا العديد من الشعارات والأناشيد التي تصور هذه الرغبة في إشارة إلى محاربين مناهضين للاستعمار مثل علي لابوانت وعميروش وبن مهيدي وعبان رمضان: "يا علي (لابوانت) ذريتك لن تتوقف أبدًا حتى تنتزع حريتها" و"نحن من ذرية عميروش ولن نتراجع أبدًا".

تزامن الاحتفال بالذكرى السابعة والخمسين لاستقلال الجزائر مع الجمعة 5 يوليو 2019. فشهد ذلك اليوم تحركات ضخمة مماثلة لتلك التي شوهدت في الأسبوع الأول من الثورة. تزامن 1 نوفمبر 2019، الذي كان أيضًا يوم جمعة، مع الذكرى الخامسة والستين لبدء حرب الاستقلال وكانت لحظة رمزية لثورة 2019.

أضافت رمزية هذين اليومين قوة للمطالب الشعبية بالحرية والسيادة والعدالة. ربط المتظاهرون الوضع الحالي مع الاستعمار ودعوا للاستقلال عن الاستعمار الجديد المفروض عليهم من قِبَلِ النخب الفاسدة التي تسهل نهب بلادهم. يقع تأكيد هذه المشاعر المعادية للاستعمار والمشددة على أن لا معنى للاستقلال الرسمي من دون سيادة شعبية ووطنية، من خلال العداء القوي لأي تطفل أجنبي أو تدخل إمبريالي. وينطبق ذلك على الجميع، بدءًا من القوى الغربية وصولًا إلى روسيا والصين والإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية، إلخ.

أخيرًا وليس آخرًا، شهدنا أيضًا تضامنًا لا يتزعزع مع الفلسطينيين: يفهم الجزائريون أن تحريرهم لن يكتمل دون تحرير فلسطين. هذا أمر فريد في العالم العربي ويمكن تفسيره بأن الجزائر وفلسطين هما البلدان الوحيدان في المنطقة اللذان عانيا من الاستعمار العنصري الإبادي الإستيطاني. ويمكننا أن نختصر بالقول أن الحراك الجزائري هو حركة مناهضة للنظام مع سياسات معادية للاستعمار.

كما يحدث في أي ثورة تحشد القوى المضادة لها لعرقلتها، سحقها أو احتوائها. ويحدث ذلك على مستويات عدة: سياسية واقتصادية، مادية وخطابية، محلية وإقليمية[16]. يمكن أن يستغل زمن الثورات والانتفاضات أيضًا لترسيخ السياسات الاقتصادية غير الشعبية ولتقديم المزيد من التنازلات للمستثمرين الأجانب، وهو ما تؤكده مشاريع تعديل قانون الميزانية لعام 2020 وقانون المحروقات الجديد. إذ من المقرر أن يعيد قانون الميزانية فتح باب الاقتراض الدولي وأن يفرض إجراءات تقشف قاسية من خلال إلغاء الإعانات المختلفة وخفض الإنفاق العام. باسم تشجيع الاستثمار الأجنبي المباشر يقع التخطيط لإعفاء الشركات متعددة الجنسيات من التعريفات والضرائب وزيادة حصتها في الاقتصاد الوطني. وذلك عن طريق إزالة قاعدة الاستثمار بنسبة 49/51 التي تحدد نصيب الاستثمار الأجنبي في أي مشروع بـ 49%، وهو ما سيقوض أكثر السيادة الوطنية.

فيما يتعلق بقانون المحروقات الجديد الذي دخل حيز التنفيذ في يناير 2020، لم يتوان وزير الطاقة السابق عن الإعلان في أكتوبر 2019 أن القانون المقترح وُضِعَ بعد "مفاوضات مباشرة مع شركات النفط الخمس الكبرى". هذا القانون "صديق" للشركات متعددة الجنسيات وسيسمح لشركات النفط بتأمين امتيازات طويلة الأجل وبترحيل أرباحها وإعفائها من المسؤوليات الضريبية ومن نقل التكنولوجيا.

في إشارة إيجابية أخرى تجاه الشركات متعددة الجنسيات عُيِّنَ وزير جديد للطاقة لعب دورًا فعالًا في صياغة القانون الجديد، والذي علاوة على ما سبق ذكره من حوافز وامتيازات يفتح الطريق أمام المشاريع المُدمِّرَة كاستغلال الغاز الصخري في الصحراء والموارد البحرية في البحر الأبيض المتوسط.

لذلك لا يمكن تقدير الوضع السياسي في الجزائر بشكل وافٍ من دون التدقيق في التأثيرات والتدخلات الخارجية، ومن دون استيعاب المسألة الاقتصادية من زاوية

16- Rouabah, B., 2019. The people's movement in Algeria, eight months on. Africa is a country.

الاستيلاء على الموارد الطبيعية والاستعمار الطاقي الجديد والاستخراجية [17].

ويشمل ذلك التنازلات الهائلة التي قُدِّمَتْ للشركات متعددة الجنسيات والضغوط الخارجية لإقرار المزيد من اللَبرَلة، وذلك من أجل إزالة جميع القيود المفروضة على رأس المال الدولي ودمج الجزائر بالكامل في الاقتصاد العالمي من موقعٍ تابِعٍ تمامًا. وفي هذا السياق يجدر الانتباه للزيارة الأخيرة (بداية 2020) لموظفي صندوق النقد الدولي إلى الجزائر.

إن الحملة المضادة للثورة الجارية حاليًا في الجزائر لا تُقادُ على المستوى المحلي فحسب، بل أيضًا من قِبَلِ تشكيلة من الفاعلين الإقليميين والدوليّين وكبرى الشركات: على الصعيد الإقليمي، تقود أنظمة الإمارات والسعودية ومصر الثورة المُضادّة مُستخدمَةً أموالها الطائلة ونفوذها لوقف وسحق موجات التمرد المُعدِيَة والمحتمل اندلاعها في باقي المنطقة. ومن المعروف أن القيادة الجزائرية العسكرية العليا تقيم علاقات جيدة بشكل استثنائي مع الإماراتيين. وقد سبق للحركة الشعبية أن انتقدت رئيس الأركان الراحل، الجنرال قايد صالح، بشدة لتلقيه الأوامر من الإمارات العربية المتحدة: "قايد صالح عميل الإمارات!". كما قام خليفته الجنرال شنقريحة بزيارة تلك الدولة في نهاية شهر فبراير 2020، حيث ظهر في العديد من معارض الأسلحة.

من الكاشف أيضًا لهذا الاصطفاف اختيار الرئيس تبّون التوجه إلى المملكة العربية السعودية في أول زيارة رسمية له بعد انتخابه. أما فيما يخص مصر، فإن التواطؤ واضح بين "الشقيقتين في الجريمة". إذ يُذكَر أن أول زيارة دولة قام بها السيسي بعد انقلابه كانت إلى الجزائر في يونيو 2014، بهدف مناقشة التنسيق حول الأمن والطاقة. وإلى جانب السعوديين والإماراتيين، رد المصريون الجميل عبر "مصانع المتصيدين" على الإنترنت وحملات التضليل لتشويه الحراك الجزائري. وعلى المستوى الدولي، تشترك القوى الغربية فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا وكندا، إلى جانب شركاتهم الكبرى، في تواطؤها ودعمها للنظام الجزائري، إذ لا تريد أي تهديدٍ لمصالحها الاقتصادية والجيوستراتيجية. زِدْ على ذلك الأحداث الجارية في

17- Hamouchene, H., 2019. Extractivism and Resistance in North Africa. Amsterdam: Transnational Institute.

الجارة ليبيا حيث تدور حرب بالوكالة تشمل العديد من الأطراف الفاعلة: فرنسا، إيطاليا، السعودية، الإمارات، مصر، تركيا، روسيا، الأردن والسودان... ما يحدث هناك مقلق للغاية بالنسبة للمسار الثوري الجزائري وما أبعد منه: لن يزعزع أي تصعيد في الحرب هناك كل المنطقة فحسب، بل من المرجح أن يكبح فرامل الحراك الشعبي الجزائري.

هناك تحد آخر يواجه الحراك ألا وهو احتمال المزيد من الانقسامات التي يجب مطلقًا تجنبها. لقد نجح هذا الأخير في تجاوز الانقسامات المدعومة من النظام لعقود، فرأينا الناس ينشدون: "عرب وأمازيغ كلنا خاوة!" كردٍّ على محاولات إشعال نار الخلاف والكراهية ضد القبائليين عبر قرار منع التلويح بالعلم الرامز للثقافة الأمازيغية. على الحراك أن يظهر مرة أخرى نفس الرفض للاستقطاب القديم "إسلاميون ضد علمانيون"، الذي يميل إلى فرضه الاستئصاليون: أولئك "اللائكاويون"(laïcards بالفرنسية) و"الديمقراطيون" الذين وقفوا إلى جانب النظام العسكري الدموي في حملته الاستئصالية ضد كل "الإسلاميين" والمتعاطفين معهم، خلال التسعينات إثر الانقلاب العسكري. أولًا ليس كل الإسلاميين متطابقين ولا يدعو كلهم إلى العنف. لقد تعلم بعضهم من أخطاء الماضي وتطوروا في اتجاه قبول المبادئ الديمقراطية، مثلما هو حال حركة النهضة في تونس، كما لم يتورط بعضهم قط في التعامل مع النظام القائم. ويبدو أن الذين يرفضون التزحزح عن آرائهم هم أولئك "الديمقراطيون" الاستئصاليون، وهم عمومًا نخب فرنكفونية مُسْتَعْمَرَة استوعبت العلمانية كمفهوم مناهض للدين (حاليًا إسلاموفوبي أو معادي للإسلام). وينبغي عليهم عوض ذلك إدراك الخطأ السياسي الكبير الذي اقترفوه حين انحازوا إلى الجيش في ذلك الوقت.

يجب أن يكون السياق الحالي، حيث يقاوم الناس ويناضلون معًا رغم تعدد خلفياتهم الاجتماعية وأيديولوجياتهم، فضاء يمكن فيه التغلب على هذا النوع من الاستقطابات التقسيمية. وقد ظهر ذلك مرة أخرى من خلال شعار جديد صائب: "ليس الإسلاميون ولا العلمانيون...وإنما العصابة هي التي تسرقنا علنًا".

في غياب قوة سياسية مهيمنة قادرة على قيادة الحركة وتحويل مطالبها إلى مشروع سياسي واقتصادي متسق، يصبح من الضروري لجميع قوى المعارضة،

سـواء الإسـلامية منهـا أو العلمانيـة، اليميـن أو اليسـار، خلـق جبهـة تكتيكيـة واسـعة مـن أجـل تحويـل ميـزان القـوى بشـكل ملمـوس علـى الأرض لصالـح الحركـة الشـعبية وحتـى تجبـر النظـام العسـكري علـى التفـاوض والتنـازل.

درس كهـذا يمكـن للانتفاضـة الجزائريـة تعلمـه مـن نظيرتهـا فـي السـودان. إذ يسـمح الفـراغ الناجـم عـن عقـود مـن القمـع والتشـظي السياسـي واحتـواء الفاعليـن السياسـيين، للنظـام بالاسـتمرار فـي اتخـاذ المبـادرات وحتـى فـي خلـق حقائـق معينـة علـى الأرض. يجـب تجـاوز ذلك عبـر الالتفـاف حـول كتلـة معارضـة موحـدة قـادرة علـى تقديـم خريطـة طريـق انتقاليـة بديلـة.

يجـب أن يكـون شـرط الانضمـام إلـى مثـل هـذه الجبهـة/ التحالـف هـو الإيمـان بانتقـال ديمقراطـي حقيقـي سـيفتح إمكانيـات التغييـر الجـذري. طبعًـا مـن نافلـة القـول أن القـوى التقدميـة والوطنيـة بحاجـة إلـى الحفـاظ علـى اسـتقلاليتها ومواصلـة النضـال علـى المسـتوى الاجتماعـي والاقتصـادي ضـد الليبرالييـن، سـواء كانـوا علمانييـن أو إسـلاميين، وضـد جميـع القـوى المحافظـة التـي تحمـل برنامجًـا اجتماعيًّـا رجعيًّـا. إن القـوى ذات العقليـة الثوريـة بحاجـة إلـى أن ترتقـي إلـى مسـتوى التحـدي وتتحمـل مسـؤوليتها التاريخيـة.

الاستعداد للنضال الطويل القادم - الحراك في زمن كوفيد 19:

دخلـت الانتفاضـة الجزائريـة عامهـا الثانـي، وعلـى الرغـم مـن الصعوبـات والتحديـات الهائلـة التـي واجهتهـا خـلال السـنة الأولـى صمـدت الحركـة ولـم تختـفِ. نحـن فـي وضـع تعـادل نسـبي لميـزان القـوى علـى الأرض. لـم يسـتطع الحـراك الإطاحـة بالنظـام ولـم ينجـح هـذا الأخيـر فـي إجهـاد الحـراك.

بسـبب الأزمـة الصحيـة العالميـة التـي سـببها وبـاء الفيـروس التاجـي، قـرر الحـراك وقـف احتجاجاتـه ومسـيراته الأسـبوعية بحلـول منتصـف مـارس 2020، بعـد أن احتفـل بذكـراه السـنوية الأولـى فـي 22 فبرايـر 2020. اسـتمرت الاحتجاجـات خـلال الأسـابيع الأولـى مـن مـارس مدفوعـة برغبـة لا تتزعـزع للتخلـص مـن النظـام، وكذلـك بانعـدام ثقـة

عميق في دعوات السلطات للناس إلى تجنب التجمعات الغفيرة.

ومع ذلك، ساد صوت الحكمة وأوقفت الحركة الشعبية مؤقتًا تحركاتها في الشوارع في 17 مارس 2020. لكن الطاقة المذهلة والديناميكية التي خلقتها هذه الثورة الرائعة لم تختفِ. لقد تحولت في الواقع إلى حملات صحية وأنشطة تضامنية مع المحتاجين والفئات الأكثر ضعفًا في المجتمع خلال هذه الأوقات الصعبة.

لقد شهدنا العديد من المبادرات لتنظيف وتعقيم الأماكن العامة، وقوافل التضامن مع ولاية بليدة - مركز الجائحة في البلاد في الأشهر الأولى. كما شهدنا حملات لرفع مستوى الوعي بالوباء وإجراءات إبداعية أخرى ساهمت في الحفاظ على شعلة الحراك متقدة. في غضون ذلك، يضاعف النظام الاستبدادي الرجعي إجراءاته لقمع وإخضاع الصحفيين والنشطاء. إذ يتعرض العديد من النشطاء للمضايقات القضائية فيما سجن العديد من الصحفيين منذ بدء الحجر الصحي. إجمالًا، يوجد عشرات المتظاهرين/ النشطاء السياسيين/ الصحفيين في السجن حاليًا. لقد اعْتُقِلَ العديد منهم بسبب منشوراتهم على مواقع التواصل الاجتماعي واتُّهِمُوا بـ "تهديد سلامة التراب الوطني".

لم يقف النظام عند هذا الحد، بل أصدر قانون عقوبات جديد من أجل توطيد قمعه للحريات الأساسية. تهدف التعديلات الجديدة إلى مزيد من خنق المعارضة، كما يراد منها تجريم بعض الأعمال التي يعتبر أنها "تقوض أمن الدولة والوحدة الوطنية". وهي اتهامات وُجِّهَتْ للعديد من النشطاء والصحفيين في الحراك منذ يونيو 2019.

ووِفقًا لقانون العقوبات الجديد، يمكن أن يُسجن النشطاء طيلة 3 سنوات بتهمة "نشر معلومات كاذبة"؛ كما يمكن معاقبتهم على "تلقي تمويل أجنبي". علاوة على ذلك، يواصل النظام تشديد القيود على وسائل الإعلام عبر الإنترنت من خلال منع الوصول إلى العديد من المواقع المخالفة مثل راديو آم، ومغرب آمرجنت وأنتارلينيْ.

نوعًا ما، نزَلت جائحة كوفيد 19 بردًا وسلامًا على الطبقات الحاكمة في الجزائر. لكن الحركة الشعبية لم تقل كلمتها الأخيرة بعد. يجب أن تُستَغَلَّ فترة الحجر وهذه الهدنة المؤقتة كفرصة متاحة للتفكير الجماعي والتعرف على إنجازات الانتفاضة

الشعبية، وكذلك على عيوبها وأخطائها. لن يستسلم النظام بسهولة. لهذا السبب، يجب أن يميل ميزان القوى بشكل ملحوظ نحو الجماهير عبر الحفاظ على المقاومة (أعمال العصيان المدني التي لا تُعَرِّضُ صحة الناس وحياتهم في الأوقات الاستثنائية لكوفيد 19 أو التحضيرات لأنشطة ما بعد كوفيد 19) لإجبار النظام على الاستجابة لمطالب الناس من أجل التغيير الديمقراطي الجذري وتكريس الحقوق والحريات الفردية والجماعية.

ليس هناك شك في أن الحراك سيستأنف نشاطه مع انحسار هذا الوباء، فنفس الظروف التي تسببت فيه ما زالت موجودة. هذا إن لم تتفاقم بسبب الأزمة الصحية الناجمة عن انتشار فيروس كورونا (أزمة تكشف عن الحالة الأليمة لقطاع الصحة العمومية الذي تأخر بسبب عقود من نقص التمويل وسوء الإدارة)، إضافة إلى أسعار النفط المتداعية (المتقلبة حاليًا بين 20 و30 دولارًا للبرميل الواحد).

لتعزيز نفسه، يحتاج الحراك إلى تحقيق مكاسب وانتصارات أخرى من خلال:

1. هيكلة الحركة على المستوى الشعبي من خلال دفع وتشجيع التنظيم الذاتي المحلي في أماكن العمل وعبر لجان الأحياء ومجموعات الطلاب والنساء والتمثيليات المحلية المستقلة. كذلك عبر فتح المزيد من المساحات للنقاش والمناظرة والتفكير بغاية التوصل إلى أرضية صلبة أو برنامج متناسق. سيعطي ذلك لديناميكية الحراك قدرة على الاستمرار في الأمَدَيْن المتوسط والطويل، بما قد يفرض حالة من ازدواجية السلطة.

2. الإصرار على حريات التعبير الفردية والجماعية وتسخير كل الوقت، دون كلَل، لتنظيم الحملات من أجل الإفراج عن جميع السجناء السياسيين. لا يمكن للحراك تَحَمُّل انتكاسة، في الوقت الذي يتقلص فيه الفضاء الديمقراطي أسبوعًا بعد أسبوع.

3. وأخيرًا، ربط العدالة الاجتماعية والحقوق الاجتماعية والاقتصادية بالمطالب الديمقراطية. لأنه إذا استمرت الجزائر على طريق اللبرلَة والخصخصة هذا، فبالتأكيد سيشهد الجزائريون المزيد من الانفجارات الاجتماعية والسخط. إذ

لا يمكن تحقيق التوافق الاجتماعي بينما يستمر ما تنتجه تلك السياسة من فقر وبطالة ولا مساواة. قد يؤدي التراجع الأخير في أسعار النفط إلى ضرب المسمار الأخير في نعش نظام الريع الذي يعتمد بشكل كبير على صادرات النفط والغاز من أجل بقائه.

في هذا السياق، الشبيه بهدوء ما قبل العاصفة، لن يحفر الجزائريون قبورهم بأيديهم ويوقفون ثورتهم في منتصف الطريق. إذا اعتقد النظام الرجعي الجزائري أنه قادر على دفن الحراك أثناء الوباء، فهو واهم ولا يعرف أن الشباب الثوري مثل البذور التي تنتظر النمو مجددًا، على أمل أن تزداد قوة وحيوية. النضال من أجل الدمقرطة سيكون مديدًا، لكنه سيستمر.

إهداء

لذكرى إيدير عاشور، الناشط السياسي والنقابي الذي لم يكل ولم يمل، وتوفي للأسف في الأسابيع الأولى للثورة.

نُهدي كذلك هذا الفصل لجميع المعتقلين السياسيين وثوار الحراك الذين يعتقدون بضرورة نهوض الجزائريين من جديد بعد انحسار الوباء.

انتفاضة أكتوبر في العراق:

السياق التاريخي، الأسباب المباشرة، الخطاب، التحديات والاحتمالات

زيدون الكِناني

مايو 2020

22 سبتمبر (أيلول) 1980	الحرب العراقية الإيرانية، التي دامت ثماني سنوات.
17 يناير (كانون الثاني) 1991	بداية عملية "عاصفة الصحراء"، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لطرد القوات العراقية من الكويت، متبوعة بفرض العقوبات.
20 مارس (آذار) 2003	احتلال العراق، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.
22 فبراير (شباط) 2006	تنظيم "القاعدة" يفجر مرقد الإمامين العسكريين بسامراء، أحد أكثر المواقع الشيعيّة قداسَة، واندلاع مواجهات طائفية.
10 يونيو (حزيران) 2014	تنظيم "داعش" يسيطر على الموصل، ثاني أكبر مدينة بالعراق.
أواخر سبتمبر (أيلول) 2019	استياء واسع إثر إقالة الفريق الركن عبد الوهاب الساعدي، نائب رئيس جهاز مكافحة الإرهاب، المحبوب شعبيًّا، من منصبه.
1 أكتوبر (تشرين الأول) 2019	**بداية الانتفاضة بتنظيم مظاهرة جماهيرية نحو ميدان التحرير ببغداد.**
25 أكتوبر (تشرين الأول) 2019	القمع العنيف للاحتجاجات يدفع بحشود أكبر إلى ميادين بغداد والمحافظات الجنوبية.
29 نوفمبر (تشرين الثاني) 2019	عادل عبد المهدي، رئيس الوزراء، يعلن استقالته والمتظاهرون يحتفلون بذلك.
26 ديسمبر (كانون الأول) 2019	بُرهم صالح، رئيس الدولة، يلوح بالاستقالة.
3 يناير (كانون الثاني) 2020	اغتيال الجنرال الإيراني قاسم سليماني والقيادي بالحشد الشعبي العراقي أبو مهدي المهندس بضربة جوية أمريكية.
1 فبراير (شباط) 2020	تعيين محمد توفيق علاوي لرئاسة الوزراء، والمحتجون يرفضون ذلك.

17 مارس (آذار) 2020	اختيار عدنان الزرفي كمرشح لرئاسة الوزراء، إثر فشل ترشيح علاوي، والمحتجون يصرون على إصلاح شامل للنظام.
7 مايو (أيّار) 2020	التوافق على مصطفى الكاظمي رئيسًا للوزراء ينهي مأزقًا سياسيًّا دام خمسة شهور.



مقدمة

فـي غـرة أكتوبـر (تشـرين الأول) 2019، اجتـاح المحتجـون العراقيـون شـوارع بغـداد والمحافظـات الجنوبيـة مُتَحَدِّيـنَ الواقـع المفـروض عليهـم: ديمقراطيـة فاشـلة، دولـة فاسـدة، الميليشـيات، الطائفيـة، البطالـة والخدمـات العموميـة المترديـة. ولـم يكـن هـذا الحِـراك الاحتجاجـي الأول فـي تاريـخ العـراق الحديـث، ولا فـي عهـد مـا بعـد الغـزو الأمريكـي، إلا أنـه كان مختلفًـا عمـا سـبقه مـن تجـارب. فقـد خلـق الإحبـاط قـدرة علـى التأقلـم، وتحـول الخـوف إلـى الشـجاعة، وحـل الغضـب محـل خيبـة الأمـل. وسَـمَّى الحـراك القاعـدي، ذو القيـادة الشـبابية، نفسـه بـ"ثـورة تشـرين".

لـن يكـون منصفًـا أن نناقـش الصراعـات التـي يخوضهـا الشـعب العراقـي دون التمهيـد لذلـك بإطلالـة معقولـة علـى الأحـداث التاريخيـة التـي كان لهـا تداعيـات ملموسـة علـى بعـض الوقائـع الراهنـة. وحتـى يفهـم المـرء الدوافـع الكامنـة وراء انتفاضـة العراقييـن علـى منظومتهـم السياسـية فـي أكتوبـر (تشـرين الأول) 2019، مـن الضـروري أن يتعـرف أولًا علـى مسـار تشـكله والبيئـة المحيطـة بـه. وبنـاء عليـه، سـوف تُفهَـم هـذه الاحتجاجـات علـى أنهـا ضـد العـراق "الديمقراطـي الجديـد"، المعـروف عمومًـا بعـراق مـا بعـد 2003، وضـد الشـعار الديمقراطـي الـذي فشـل فـي تجسـيد النتائـج المتوقّعـة مـن اجتيـاح العـراق، بقيـادة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة.

العلاقة بين الطوائف قبل 2003:

الإمبراطورية العثمانية والانتداب البريطاني وحزب البعث

كان العــراق خــلال الحقبــة العثمانيــة (1831 – 1918) مُقسَّــمًا إلــى محافظــات، تســمى بالولايــات: ولايــة بغــداد، ولايــة الموصــل، وولايــة البصــرة. كانــت الإمبراطوريــة العثمانيــة محكومــة بنظــام خلافــة يعتمــد المذهــب الســني، وقــد ســيطرت علــى أغلــب جنــوب شــرق أوروبــا، غــرب آســيا وشــمال إفريقيــا مــن القــرن الرابــع عشــر إلــى بدايــات القــرن

العشرين. قادت الهوية السنية للحكم العثماني إلى إدماج السكان العرب السنة في الإدارة المحلية لهذه الولايات وإقصاء العرب الشيعة والأكراد من أية أدوار سياسية أو اقتصادية -اجتماعية ذات قيمة، فأجج هذا الإقصاء تمرد القيادات الدينية والقبلية للشيعة على العثمانيين[1].

إلى جانب الاختلافات الفقهية بين الشيعة والسنة، طالما نظر العثمانيون إلى الجار الإيراني كتهديد لإمبراطوريتهم. وقد حافظت إيران دومًا على علاقات مميزة مع المجتهدين الشيعة (المرجعيات الدينية) في المدن المقدسة بالنجف وكربلاء في العراق. ونجد في وثائق أرشيف الإدارة العثمانية للعراق أن العثمانيين كانوا يتعاملون مع الأغلبية الشعبية على أنها "المشكل الشيعي" و"جيش طبيعي موالٍ لإيران[2]".

دمَج الانتداب البريطاني، الذي هزم العثمانيين في بلاد الرافدين سنة 1918، الولايات الثلاث في دولة واحدة. وبدلًا من التحالف مع الإمبراطورية البريطانية ضد العثمانيين، مضطهديهم السابقين، قاد الزعماء الدينيون للشيعة تمردًا ذا طابع ديني على الغزو البريطاني معتبرين إياه احتلالًا أجنبيًّا كافرًا. نجح البريطانيون في إخماد التمرد وأضاع الشيعة فرصة أخرى للتحول إلى نخبة حاكمة، عندما سمح المحتلون الجدد للسُنَّة بالحفاظ على سيطرتهم السياسية من خلال المملكة الهاشمية التي نصَّبوها في 1921. حدد هذا التنظيم المؤسساتي للدولة العراقية الحديثة البنى السياسية والإثنيّة - الطائفية للبلاد طيلة العقود التالية[3]، بما في ذلك مرحلة استقلال العراق عن الانتداب البريطاني سنة 1932.

سقطت الملكية، في نهاية المطاف، بانقلاب عسكري قاده العميد عبد الكريم قاسم ليؤسس الجمهورية العراقية في يوليو (تموز) 1958[4]. وفي حين احتفظ قاسم، بموقع الوزير الأول، بالجزء الأكبر من السلطة، شغل محمد نجيب الربيعي منصبي

1- Tripp, C., 2007. A history of Iraq. Cambridge: Cambridge University Pres. p11-12

2- Çetinsaya, G., 2006, Ottoman Administration of Iraq, 1890-1908. Routledge

3- Tripp, C., 2007. A history of Iraq. Cambridge: Cambridge University Press. p28-44

4-4 Rubin, A.H., 2007. 'Abd al-Karim Qasim and the kurds of Iraq: Centralization, resistance and revolt, 1958–63'. Middle Eastern Studies.

رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس السيادة المشكل من ممثلٍ عن كل طائفة بالعراق.

لـم يـألُ قاسـم جهـدًا فـي محاولـة التأليـف بيـن التياريـن القومييـن الكـردي والعربـي مـن أجل تأسـيس هويـة عراقيـة منفتحـة ومدنيـة، إلا أنـه فشـل فـي الحفـاظ علـى ولاء الأكـراد لحكومتـه، بالرغـم مـن ترحيبـه بعـودة الزعيـم الكـردي مصطفـى البرزانـي مـن المنفـى.

يُنْظَرُ إلـى حكـم قاسـم علـى أنـه الحقبـة التـي شـهدت التأثيـر الأقـل للطائفيـة فـي السـلوك المؤسسـاتي والعسـكري. وحتـى الحركـة القوميـة العربيـة، التـي وجـدت فيهـا النخـب السـنية العربيـة فرصـة لمواصلـة هيمنتهـا مـن خـلال تبريـر "تجـاوز الطائفيـة"، فشـلت فـي اسـتهواء قاسـم الـذي كان يعـرف تهديدهـا مـن خـلال منافسِـيه البعثييـن والناصرييـن فـي بغـداد. وقـد دافـع قاسـم عـن تطويـر سياسـات العـراق الداخليـة وتنميتـه قبـل الانضمـام إلـى الجمهوريـة العربيـة المتحـدة التـي جمعـت بيـن سـوريا ومصـر[5].

أودى انقـلاب عسـكري بعثـي بحكـم قاسـم وحياتـه فـي 8 فبرايـر (شـباط) 1963. سـيطر الضبـاط العـرب السـنة علـى السـلطة البعثيـة (1963- 2003). اشـتدت الهيمنـة السياسـية غيـر الرسـمية للعـرب السـنة خـلال حكـم صـدام حسـين (1979 – 2003). تـم ربـط الإقصـاء المتعمـد للشـيعة عـن السـلطة مـن قِبَـلِ نظـام صـدام، والصـدام مـع الأكـراد، بالتهديـد الإيرانـي، إذ لطالمـا تلقـت المجموعـات المعارضـة مـن هذيـن الفريقيـن دعمًـا مـن إيـران[6].

نجـح النظـام البعثـي التسـلطي خـلال سـبعينات القـرن العشـرين فـي الرفـع مـن مسـتويات المعيشـة والتعليـم والبنيـة التحتيـة، عندمـا كان ينتـج 3.5 ملاييـن برميـل مـن النفـط يوميًـا[7]. بيـد أن الازدهـار الاقتصـادي لـم يـدم طويـلًا بسـبب الحـرب العراقيـة الإيرانيـة (سـبتمبر/ أيلـول 1980 – أغسـطس/ آب 1988) التـي أججـت التوتـرات

5- Davis, E., 2003. Taking Democracy Seriously in Iraq. Foreign Policy Research Institute

6- Haddad, F., 2014 Sectarianism in Iraq: Antagonistic visions of unity. Oxford: Oxford University Press, p186-193

7- Calamur, K., 2018. Oil Was Supposed to Rebuild Iraq: Conflict and politics got in the way. The Atlantic

الطائفية بالعراق[8]. وقد واجه صدام حسين خلال هذا النزاع تحديات داخلية كبيرة:

- قمع تنامي التمرد الكردي والأحزاب الإسلامية الشيعية[9].
- استفادت إيران من كفاح الشيعة العراقيين عبر خلق وكلاء لها مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الذي تأسس على أراضيها سنة 1982.
- كما انطلق المجلس التشريعي لحكومة إقليم كردستان سنة 1970 نتيجة لاتفاق بين الزعماء الأكراد وبغداد.
- اندلعت انتفاضة شيعية ضد نظام صدام إثر هزيمته أمام التحالف الأمريكي بعد غزوه، الذي دام ستة شهور، للكويت في 1991. عُرِفَتْ تلك الأحداث بـ "انتفاضة 1991". وقد وقعت بمناطق ذات غالبية شيعية وكردية. دفع ذلك صدام حسين إلى تكثيف النفوذ الاجتماعي والسياسي للقبائل العربية السنية[10]. أخمد النظام البعثي هذه التمردات من خلال المروحيات العسكرية وإطلاق النار العشوائي، الأمر الذي لقي إدانة شديدة من الأمم المتحدة.
- ساندت الولايات المتحدة الأمريكية نظام صدام سياسيًّا وماليًّا عندما كان يستعمل الأسلحة الكيمياوية في حربه ضد إيران وضد مواطنيه من الأكراد في حملة الأنفال سنة 1983 والهجمات على حلبجة 1988. أسفرت هذه العمليات عن مقتل الآلاف من العائلات الكردية البريئة. لم ينزعج دونالد رامسفيلد كثيرًا من استعمال النظام للأسلحة الكيمياوية خلال زيارته للعراق في 1983، كمبعوث خاص للشرق الأوسط من الرئيس الأمريكي دونالد ريجان. إلا أن هذه الشراكة بين الولايات المتحدة ونظام صدام خلال الأحداث سابقة الذكر، لم تمنع رامسفيلد

8- Kagan, F.W., Majidyar, A.K., Pletka, D. and Sullivan, M.C., 2012. Iranian Influence in the Levant, Egypt, Iraq, and Afghanistan. Washington D.C.: American Enterprise Institute and the Institute for the Study of War.

9- Tripp, C., 2007. A history of Iraq. Cambridge: Cambridge University Press p239

10- Alaaldin, R., 2018. Sectarianism, Governance, and Iraq's Future, Brookings Doha Center, P13

من تأكيد امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل[11].

- عـزت هجمـات 11 سـبتمبر 2011 بقـوة مطالبـة وزارة الدفـاع الأمريكيـة بمهاجمة العـراق[12]. إلا أن فشـل الولايـات المتحـدة وبريطانيـا فـي إيجـاد تبريـرات قانونيـة للتدخـل العسـكري، لم يمنعهمـا مـن التوظيـف السياسـي لفكـرة إرسـاء ديمقراطيـة فـي العـراق كغطـاء لغزوهما.

الغزو الأمريكي:

مأسَسَة ديمقراطية المُحَاصَصَة

احتلـت الولايـات المتحـدة العـراق رسـميًّا فـي 9 أبريـل (نيسـان) 2003 عقـب أسـابيع مـن المقاومـة. رسـم التخلـص مـن نظـام قمعـي آمـالًا كبيـرة بإرسـاء مجتمـع مدنـي ديمقراطـي جديـد وفتـح بـاب المشـاركة السياسـية، غيـر أن الفـراغ فـي السـلطة وغيـاب حكـم القانـون والنظـام سـهَّلا تصاعـد الصدامـات ذات الخلفيـة الإثنيـة والطائفيـة[13].

كانــت الخطــة الأمريكيــة الأصليــة تقضــي اســتبدال المعــارض المنفــي أحمــد الجلبــي بصــدام حســين، وهــو مــا عكــس فتــور إرادة الولايــات المتحــدة لتنظيــم انتخابــات ديمقراطيــة فــي العــراق. تغيــرت تمامًــا اســتراتيجيات "ســلطة الائتــلاف المؤقتــة" (ســإم) – قــوة الاحتــلال الحاكمــة للعــراق – بوصــول الدبلوماســي الأمريكــي الســابق بــول بريمــر. فعلــى عكــس ســلفه جــاي غارنــر، الــذي اســتنكر علنًــا تدميــر البنيــة التحتيــة الماديــة والدولتيــة وأكــد علــى ضــرورة الحفــاظ علــى أجهــزة الدولــة، أصــر بريمــر علــى حــل الجيــش العراقــي وأطلــق مســار "اجتثــاث البعــث". وبالرغــم مــن ضعــف خبرتــه الشــرق الأوســطية، اعتقــد بريمــر أن هــذا المســار سيســاعد علــى قطــع دابــر حــزب البعــث اجتماعيًّــا وسياســيًّا مــن

11- Duelfer, C.A., 2002. What Saddam Wants Weapons of Mass Destruction', Sifry, M.L. and Christopher Cerf, C, (eds.) The Iraq War Reader: History, Documents, Opinions. New York: Simon and Schuster. pp.412-414.

12- Beetham, D., 2009. The contradictions of democratization by force: the case of Iraq. Democratization 16 (3) pp.443-454.

13- Diamond, L., 2005. 'Building Democracy After Conflict: Lessons from Iraq, Journal of Democracy16 (1) pp.9-23.

العـراق. وتبيـن هـذه المناكفـات داخـل النخبـة الحاكمـة بواشـنطن مـدى افتقارهـا إلـى خطـة لمرحلـة مـا بعـد صـدام حسـين.

شـكلت الولايـات المتحـدة مجلـس الحكـم العراقـي (محـع) فـي يوليـو (تمـوز) 2003، الـذي تـوزع أعضـاؤه الخمسـة والعشـرون حسـب نسـب إثنيـة وطائفيـة، واتبعـوا دسـتورًا مؤقتًـا صاغـه الأمريكيـون – "قانـون إدارة الدولـة المؤقـت". قـاد اعتمـاد التناسـبية الطائفيـة، إضافـة إلـى مقاطعـة السُـنَّة للانتخابـات، إلـى فـوز أغلبيـة شـيعية.

مَثَّـلَ (محـع) أول منظومـة سياسـية قائمـة علـى الهويـة فـي العـراق. كمـا غـاب الحـس الوحـدوي عـن مسـودّة الدسـتور العراقـي. تمـت إضافـة مفـردة "الطائفـة"، بمـا عـزز موقـف المجموعـات الخلافيـة المطالبـة بنظـام حصـص أوسـع فـي توزيـع المقاعـد البرلمانيـة والحقائـب الوزاريـة[14].

عُـرِفَ توزيـع الحصـص حسـب الطائفـة أو الإثنيَّـة، المفـروض أمريكيًّـا، بنظـام المُحَاصَصَـةِ الطائفيـة. وقـد وضعـت أسسـه المعارضـة السـابقة التـي كانـت بالمنفـى خـلال عقـد التسـعينات. عـوَّض المجلـس الوطنـي المؤقـت (مـوم) الحكومـة الانتقاليـة فـي مايـو (آيـار) 2005. تمثلـت مهمـة المجلـس الوطنـي المؤقـت فـي وضـع دسـتور جديـد يعـوض قانـون إدارة الدولـة المؤقـت. غيـر أن المرجـع الدينـي الشـيعي المرمـوق، آيـة اللـه العظمـى علـي السيسـتاني، أصـدر فتـوى أعلـن فيهـا عـدم جـواز أن يعيـن أعضـاء المجلـس مـن قِبَـلِ قـوات الاحتـلال وحلفائهـا مـن معارضـي المنفـى سـابقًا.

أسـفرت ضغـوط السيسـتاني عـن تنظيـم انتخابـات برلمانيـة فـي ينايـر (كانـون الثانـي) 2005 لاختيـار أعضـاء المجلـس الوطنـي المؤقـت. حُلَّـتْ سـلطة الائتـلاف المؤقتـة رمزيًّـا وبـدأ المجلـس فـي صياغـة مسـودة الدسـتور الجديـد فـي ظـل اتهامـات مـن جماعـات معارضـة حـول دور التدخـل الأمريكـي فـي العمليـة. وهـي جماعـات تشـتمل علـى عراقييـن مـن خلفيـات متنوعـة ولا ثقـة لهـم بالقـوة المحتلـة التـي أبانـت عـن وجههـا المدمـر. وقـع اختيـار الأعضـاء الـ 275 لمجلـس النـواب فـي انتخابـات 15 ديسـمبر (كانـون الثانـي) مـن

14- Jawad, S., 2013 The Iraqi constitution: structural flaws and political implications. London: London School of Economics Middle East Centre.

السنة نفسها [15].

أدى ذلـك بوضـوح إلـى منظومـة سياسـية وثقافيـة قائمـة علـى الاسـتقطاب الهوياتـي فـي عراق مـا بعـد 2003 [16]. إذ انتخـب مجلـس النـواب الـوزراء وكبـار المسـؤولين عبـر نظـام المُحَاصَصَـةِ: رئاسـة الحكومـة للعـرب الشـيعة، رئاسـة الدولـة للأكـراد، ورئاسـة البرلمـان للعـرب السـنة[17].

دفـع فشـل نظـام المحاصصـة بالبـلاد نحـو أحـداث عنـف طائفـي جسـيمة بيـن 2006 و2008. كمـا ووجـه الغـزو الأجنبـي بمقاومـة مسـلحة، وكذلـك بمقاومـة غيـر مسـلحة، مـن قِبَـلِ مجموعات مختلفـة، بمـا فـي ذلـك غيـر الطائفيـة منهـا. وقـد عـرف منتـدى "جلوبـال بوليسـي فـوروم" (منتـدى السياسـة العالميـة)، وهـو مركـز مسـتقل لرقابـة السياسـات ممـن رصـدوا عمـل الأمـم المتحـدة، هـذه المعارضـة غيـر العنيفـة بأنهـا "متكونـة مـن أحـزاب سياسـية، مثقفيـن، مجموعات دينيـة واتحـادات نقابيـة – بمـا فـي ذلـك نقابـة عمـال قطـاع النفـط القويـة – أكثـر علمانيـة مـن المقاومـة المسـلحة وأكثـر قابليـة للانخـراط فـي السياسـات الانتخابيـة". ومـع ذلـك، طغـى الاسـتغلال الإقليمـي المُسَـيَّس للخطـاب الطائفـي الجديـد علـى أي خطـوة مناهضـة للاحتـلال. معنـى ذلـك أنـه تـم تصنيـف كل مقاومـة غيـر عنيفـة علـى أنهـا خطـاب مسـاند للتمـرد المسـلح، وقـد تكفـل الإعـلام الدولـي والغربـي بـأن يربطهـا الـرأي العـام مباشـرة بالتطـرف السُـنِّي.

لا يمكـن الحديـث عـن الميليشـيات الشـيعية فـي عـراق مـا بعـد 2003 دون التطـرق إلـى الـدور الحاسـم للحركـة الصدريـة، بالنظـر إلـى صلتهـا المباشـرة بالديناميَّـات الراهنـة. انبثقـت هـذه الحركـة إثـر اغتيـال نظـام صـدام للمرجـع الشـيعي محمـد صـادق صـدر وأفـراد مـن عائلتـه فـي فبرايـر/ شـباط 1999، بعـد أن طالـب الحكومـة بـأن تعـدل مـع

15- Mozaffar, S. 2006. 'Elections, Violence and Democracy in Iraq', Bridgewater Review 25 (1). pp.5-9.

16- Dawisha, A.I. and Diamond, L.J., 2006. Iraq's year of voting dangerously. Journal of Democracy 17 (2). pp.89-103.

17- Rubin, A.J. and Al-Salhy, S., 2014. Iraqi Parliament Elects Speaker in Effort to Form New Government. The New York Times

الشيعة العراقيين وتعاملهم بشكل أفضل[18]. وقد نظر النظام إلى هذه المواقف كنتيجة لأرضية بدأت تنمو تدريجيًّا في صفوف الشيعة الفقراء والريفيين. بدا أن صادق الصدر بصدد إبعاد النفوذ الإيراني عن النجف، أقدس مدينة شيعية بالعراق، عبر انخراط الدين في القضايا الداخلية. بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، عاد مقتدى الصدر، ناجي العائلة الوحيد، من منفاه في إيران للاستفادة من نفوذ والده[19].

استغل الصدريون ما تبع الاحتلال الأمريكي من غياب مفاجئ للقانون والنظام لإعادة بعث مدارسهم ومساجدهم وباقي مؤسساتهم التي منعها النظام السابق. كما أنشأ الزعيم الصدري ميليشيته الخاصة، وسماها "جيش المهدي"، التي انخرطت في مواجهات مباشرة مع القوات الأمريكية في 2004. واجه الصدر ضغوط كل من الاحتلال الأمريكي والشخصيات الشيعية غير المتعاونة معه والنفوذ الإيراني. عملت إيران من أجل إحداث انقسام في صفوف الحركة الصدرية من خلال "فيلق القدس"، التابع للحرس الثوري الإيراني، والذي كان مناطًا بعهدته نشر الثورة الإسلامية الإيرانية خارج الحدود.[20] نجح فيلق القُدس في استقطاب قيس الخزعلي من الحركة الصدرية ودعمه في تأسيس وتسليح فصيله الخاص: "عصائب أهل الحق".

وبالرغم من أن الولايات المتحدة وإيران متنافسان أساسيان على الحلبة السياسية العراقية، إلا أنهما يتقاسمان بعض المصالح المشتركة: اجتثاث حزب البعث، وإضعاف الجيش العراقي، والحصول على صفقات مجزية في قطاع النفط العراقي.

وفيما تحتاج الولايات المتحدة لنشر جيشها في العراق من حين إلى آخر للتلويح بأهمية استمرار حضورها العسكري، تعتمد إيران على الميليشيات المسلحة التابعة لها لحماية مصالحها. ولا يحدث اشتباك بين الطرفين إلا عندما يكون هناك تداخل بين مصالحهما لا يحترم ما بينهما من اتفاق ضمني منذ 2003. اعتقدت إيران أنها تستطيع

18- Cockburn, P., 2008. Muqtada: Muqtada al-Sadr, the Shia revival, and the struggle for Iraq. New York: Scribner

19- Cochrane, M., 2009 The Fragmentation of the Sadrist Movement. Washington D.C.: Institute for the Study of War. p9-11

20- Miller, P.D., 2012. How to Exercise U.S. Leverage Over Pakistan. The Washington Quarterly. 35 (4) pp.37-52.

الهيمنة وحدها على المشهد العراقي، إثر تطييف الحياة السياسية كليًّا خلال حكم نوري المالكي (رئيس الوزراء من 2008 إلى 2014) وإدماج الميليشيات المنحازة لها في أجهزة الدولة. وذلك على شاكلة ما حققته من نفوذ في لبنان وسوريا واليمن.

وما إن بدأ العراق يستقر تدريجيًّا، من 2008 فصاعدًا، حتى شهدت محافظة الأنبار احتجاجات واسعة سنة 2011. وجدت هذه الاحتجاجات دوافعها في النسب العالية للبطالة والفساد وتهميش السُنَّةِ، نتيجة لسياسة "اجتثاث البعث"[21]. تتم إدارة المُحَاصَصة بين السياسيين الشيعة والأكراد والسُنَّةِ. إلا أن ذلك قد أخفى عيوبهم تجاه طوائفهم تحت شعار "تهميش السُنَّةِ".

اندلعت الاحتجاجات التي قادها السُنَّةُ عندما جنحت سياسات المالكي إلى التدمير التدريجي للمنهج التوافقي، وذلك عبر تشجيع منظومة حكم قائمة على الأغلبية من خلال المركزة المفرطة[22].

التجأت الأحزاب الشيعية العراقية كذلك إلى العزف على وتر المظلومية من خلال الترويج لفكرة حقها التاريخي أو أن دورها قد حان لحكم العراق. إلا أن هذا الوتر لم يصمد طويلاً في ظل نظام سياسي قائم على أغلبية شيعية؛ إذ لم يحمل هذا النظام حتى للمناطق التي تسكنها هذه الأغلبية أية دلائل على تحسن البُنَى التحتية أو الخدمات العمومية أو التعليم والرعاية الصحية والتشغيل.

بدَت المحاولات السابقة للاحتجاج في 2011 كما لو كانت "ربيعًا عراقيًّا"، احتشد خلاله نحو 10 آلاف شخص للمطالبة بإصلاحات جوهرية، مع تركيز طفيف على قضايا الطائفية والحريات. وقع الإجهاز على هذه الاحتجاجات بإجراءات عنيفة تراوحت بين الاعتقالات وعمليات القتل. وكان التصعيد الطائفي واضحًا في يناير 2012، عندما وجه المالكي اتهاماته الطائفية للاحتجاجات[23]. وعندما أظهرت

21- Rayburn, J., 2014. Iraq after America: strongmen, sectarians, resistance. California: Hoover Institution Press. p234-235

22- Jabar, F.A., Mansour, R., and Khaddaj, A., 2014. Iraq on the Brink: Unraveling Maliki's Unraveling.. Beirut: The Iraqi Institute for Strategic Studies. p9

23- Wyer, S., 2013. Political Update: Mapping the Iraqi Protests. Institute of the Study of War.. 11 Jan.

وسائل الإعلام رفع بعض الأعلام الجهادية السوداء وترديد بعض الأناشيد المعادية للشيعة[24]، استغل المالكي الفرصة ليأمر قوات الأمن العراقية بعزل الأنبار عن بقية المحافظات لمنع توسع الاحتجاجات وبالهجوم على المحتجين، ما تسبب في حصول صدامات بينهم وقوات الأمن. وفيما تصاعدت المواجهات حتى 2013، وقع عدد من التفجيرات في المناطق ذات الأغلبية الشيعية.

يوضح الرسم البياني أدناه كيف تحولت سنة 2013 إلى العام الأكثر دموية منذ انتهاء الحرب الأهلية الطائفية في 2008.[25]

الرسم 1.



24- BBC. 2013 Iraqi MP Ahmad al-Alwani arrested in deadly Ramadi raid.

25- See ‘UN Assistance Mission to Iraq’ chart on BBC. 2013.Iraqi MP Ahmed al-Alwani arrested in deadly Ramadi raid

ظهور داعش:

رد الفعل الطائفي، صعود التنظيمات شبه العسكرية وتعاظم النفوذ الإقليمي

سيطر تنظيم الدولة الإسلامية بالعراق والشام (داعش) على الموصل، ثاني أكبر مدينة عراقية، في 10 يونيو 2014، إثر حضوره القوي طيلة ستة شهور في الفلوجة[26]. أدى انسحاب الجيش العراقي وما تبعه من انهيار إلى تحول كبير وفراغ في القوة العسكرية[27]. ومع رجوع تنظيم "القاعدة" في نسخته الجديدة، تحت اسم داعش، عادت الحياة إلى التنظيمات شبه العسكرية الشيعية وإلى الخطاب الطائفي. تكرر سيناريو 2008-2006 مجددًا. قاتل المتمردون السُنَّةُ، بما في ذلك بعثيون سابقون، إلى جانب داعش[28].

من أجل قتال داعش، شُكِّلَتْ قُوَّاتُ "الحشد الشعبي" (ق.ح.ش). تُمثِّل (ق.ح.ش) بمثابة التنظيم المظلة لعدد من المجموعات شبه العسكرية غير الرسمية. قُدِّرَ عدد المقاتلين الميدانيين لـ"الحشد" بـ 140 ألفًا. زُعِمَ أن الدافع لتأسيس (ق.ح.ش) كان الفتوى التي أصدرها السيستاني، ودعا فيها جميع العراقيين إلى التطوع وإسناد قوات الأمن العراقي في الدفاع عن البلاد. إلا أن الأحزاب الموالية لإيران استغلت هذه الفتوى لإطلاق حملة شبه عسكرية شيعية. وبالنظر لحاجتها إلى تقوية جيشها، اضطرت الحكومة العراقية إلى القبول بهذه التنظيمات عبر الاعتراف بها وإدماجها في المؤسسة العسكرية. حاول رئيس الوزراء حيدر العبادي إبقاء سيطرة الحكومة على (ق.ح.ش) من خلال إصدار "الأمر الديواني عدد 91". وبالرغم من ذلك، أثار نمو وسيطرة قوات "الحشد الشعبي" مخاوف الكثير لدى السُنَّةِ، أكثر مما أقلق الحكومة نفسها.[29]

26- Chulov, M., 2014a. Isis insurgents seize control of Iraqi city of Mosul. The Guardian

27- Stansfield, G., 2014 Kurdistan Rising: To Acknowledge or Ignore the Unraveling of Iraq. P6 [Online]. Brookings Center: Middle East Memo.

28- Hassan, H., 2014. More Than ISIS, Iraq's Sunni Insurgency. Sada Journal – Carnegie Middle East Center.

29- Mansour, R., 2015. From Militia to State Force: the Transformation of al-Hashd al-Shaabi. Carnegie Middle East Center also See Jabar, F. and Mansour, R., 2017. The Popular Mobilization Forces and Iraq's Future. Carneige Middle East Center

ازدادت المخاوف السُّنِّيَّةُ المحلية من تنامي قوات الحشد الشعبي ومن الدور المتعاظم لقوات "البيشمركة" الكردية. اشتملت (ق.ح.ش) كذلك على مجموعات مختلفة، من العرب السُنَّةِ إلى المسيحيين والإيزيديين والتركمان.[30]

مَثَّلَتْ (ق.ح.ش) مشكلة بالنسبة للدولة، وذلك لكون العديد من التنظيمات التي تقود الأولى هي إما تابعة أو مُتَحَكَّمٌ فيها من قِبَلِ لاعبين إقليميين ومن كيانات مستقلة عن الدولة. إلى ذلك، تنقسم هذه الانتماءات الخارجة عن نطاق الدولة إلى ثلاث أجنحة مختلفة وهي: الموالون لـ خامنئي/ سليماني، والموالون للسيستاني، والموالون للصدر. يتكون الجناح الأول من المجموعات التي تدين بالولاء الروحي إلى المرشد الأعلى الإيراني علي خامنئي وممثله قاسم سليماني، قائد "فيلق القدس بالحرس الثوري"، بدلًا من السيستاني في العراق. وهو ما يجعل هذه المجموعات في تنسيق مباشر مع "فيلق القدس". وهي تعمل على تكريس النفوذ الإيراني في العراق وترفض الانضمام إلى قوات الأمن العراقية؛ لرغبتها في الاعتراف بها كجسم مستقل. بالمقابل مَثَّلَ الموالون للسيستاني والصدر عبئًا أقل على حكومة العبادي؛ إذ التزموا بأن يحلوا أنفسهم حالما يتحقق الانتصار على داعش أو أن يندمجوا في صفوف قوات الأمن العراقية. تحولت هذه التباينات داخل قوات الحشد الشعبي إلى أدوات للرقابة والتوازن. فعلى سبيل المثال، لن تسمح الوحدات الموالية للصدر والسيستاني للمجموعات المدعومة من إيران بأن تساعد المالكي على استغلال (ق.ح.ش) من أجل استرجاع نفوذه الموالي لطهران[31].

مثّلَ هجوم داعش في الآن نفسه تهديدًا ونفعًا استراتيجيين لحكومة إقليم كردستان، عندما استغلت الموقف وسيطرت على ما يعادل 40% من الأراضي خلال ساعات من استيلاء داعش على مدينة الموصل. من ذلك المناطق المحيطة بشمال

30- Saadoun, M., 2016. It's official: Sunnis joining Iraq's Popular Mobilization Units. Al-Monitor. and Bennett-Jones, O., 2016. The Christian militia fighting IS. British Broadcasting Corporation.

31- Jabar, F. and Mansour, R., 2017. The Popular Mobilization Forces and Iraq's Future. Carneige Middle East Center

وغرب الموصل، وعلى وجه الخصوص مدينة كركوك الغنية بالنفط[32].

حرم اتفاق سايكس بيكو الأكراد من حقهم في تقرير مصيرهم. إذ قسم أكبر أمة بلا دولة في العالم على الدول الأربع المعترف باستقلالها حديثًا وهي العراق وإيران وتركيا وسوريا. أعطت القوى المتحالفة المشروعية لهذه الخريطة الإقليمية من خلال معاهدة لوزان في 1923[33]، متراجعة بذلك عن الدولة الكردية التي أقرتها معاهدة سيفر في 1920. حطم الحلفاء الغربيون الحلم الكردي بعدما احتج حليفهم الجديد، الزعيم القومي التركي مصطفى كمال أتاتورك، على استقلال الأكراد[34]. وعلى عكس الوضع في تركيا وسوريا وإيران، تمتع الكرد العراقيون بحكم ذاتي فيدرالي منذ 1991، وتعزز أكثر بعد الغزو الأمريكي للعراق.

احترست واشنطن من تجزئة العراق ومن إمكانية أن يغذي الانفصال الكردي الآمال الانفصالية بالمنطقة، بما قد يؤدي إلى اضطرابات جديدة. صوت الأكراد بشكل واسع في 25 سبتمبر 2017 لصالح الاستقلال في استفتاء رسمي[35]. و ردًّا على ذلك، أرسلت بغداد قوات الأمن العراقي للمطالبة بالمناطق التي وضعت عليها حكومة إقليم كردستان يدها، بما في ذلك مدينة كركوك والحقول النفطية القريبة منها.[36]

ومع ذلك، يستحق هذا الاستفتاء أن يُفْهَم كأداة تمّ استعمالها للتغطية على إخفاقات الحزب الديمقراطي الكردستاني. إذ تم من خلال الخطاب القومي المصاحب للاستفتاء

32- Stansfield, G., 2014. Kurdistan Rising: To Acknowledge or Ignore the Unraveling of Iraq. P6. Brookings Center: Middle East Memo

33- Danforth, N., 2015. Forget Sykes-Picot. It's the Treaty of Sèvres That Explains the Modern Middle East. Foreign Policy

34- Alkinani, Z., 2020. Assessing the threat that Syria's Kurds pose to Turkey and the US. Middle East Monitor

35- Stansfield, G., 2014. Kurdistan Rising: To Acknowledge or Ignore the Unraveling of Iraq. P6. Brookings Center: Middle East Memo

36- Morris, L., 2017. How the Kurdish independence referendum backfired spectacularly. The Washington Post

التطبيع مع: الفساد المتفاقم، حكم العائلة الواحدة، قمع أي معارضة كانت، وبشكل أبرز التمديد غير المقبول شعبيًّا لفترة حكم رئاسية[37].

استفادت جميع الأحزاب السياسية العراقية من منظومة الاستقطاب الهُويَّاتِي، ومن الفساد المتعاظم والوضع الأمني الهش سياسيًّا واقتصاديًّا ووفرت ولادة مجتمع الميليشيات للسياسيين أداة ضغط أخرى على الدولة، فالعديد منهم بات من أغنى أثرياء العراق، ويمكن الزعم أنهم يستفيدون من انهيار مؤسسات الدولة وعجزها عن مراقبة هدر المال العام. وتفيد منظمة "الشفافية الدولية" بنهب ما يناهز 300 مليار دولار أمريكي من الدولة العراقية خلال فترة 2003- 2020. وتعتبر إيران أنه لأمر حيوي أن تحافظ الأحزاب الشيعية الموالية على نظام المحاصصة، إذ أنها تعتمد على الحكومة العراقية للحصول على عقود استثمار وبناء وإمدادات الطاقة، ولتسمح لها بتصدير منتوجاتها إلى العراق، على حساب المنتوجات المحلية، كوسيلة للصمود في وجه العقوبات الأمريكية[38].

الحراك الاحتجاجي العراقي 2015 - 2018:

في مواجهة الرعب المزدوج للتطرف والفساد.

لم يشهد أكتوبر 2019 ميلاد الحراك الاحتجاجي لعراق ما بعد 2003، إلا أنه كان مختلفًا في تكتيكاته وإنجازاته. إذ بدأ مجتمع ما بعد 2003 في التحرك من سياسات الهوية نحو سياسات المطالب منذ منتصف 2015. وقتئذٍ كان البلد بمواجهة أزمة اقتصادية عاصفة بعد دورتين انتخابيتين طغى عليهما الفساد لرئيس الوزراء السابق نوري المالكي، إلى جانب السيطرة المتزايدة لتنظيم داعش على الأراضي العراقية. في منتصف تموز (يوليو) 2015، اجتاحت الاحتجاجات المدن الجنوبية للعراق والعاصمة بغداد بسبب تردي الخدمات العامة.

37- Smith, C., 2017. Kurdish Referendum: Barzani's Dominance Threatens Future Stabiliy. Middle East Institute

38- Khalil, S., 2020. The Iraqi economy between corruption and politics. Rawabet Center for Research and Strategic Studies

”باسم الدين باكونا (سرقونا) الحرامية“. تعكس شعبية هذا الشعار كيف اندلع الحراك الاحتجاجي من مطالب اقتصادية، فيما استهدف في الآن نفسه مباشرةً توظيف الهويات الإثنيَّة والطائفيَّة. يَدُلُّ مُعطى أن الاحتجاجات كانت بالأساس في المناطق ذات الغالبية الشيعية، بقوة على محاولة الطائفة الشيعية تجاوز الهوية التي خلقتها لها الأحزاب الإسلامية الشيعية التي تقود الحكومة العراقية.

يعود أصل حركة أكتوبر (تشرين الأول) 2019 الاحتجاجية إلى ما حدث في منتصف يوليو (تموز) 2015 بالبصرة، عندما احتجت مجموعة من الشباب أمام محطة للطاقة على انقطاع الكهرباء في ظل حاجة الناس للهواء المكيف بالبيوت ومواقع العمل خلال فصل الصيف القائظ. وقد أثار القمع الشديد لهذه الاحتجاجات من قِبَلِ قوات الأمن العراقي، وتحديدًا اغتيال منتظر الحلفي ذي الثمانية عشر ربيعًا، الغضب ببقية البلاد ودفع مدنًا أخرى إلى الانضمام لحركة الاحتجاج التي توسعت من الجنوب حتى بغداد.

انتقلت الاحتجاجات من نقد تردي الخدمات إلى استهداف الفساد، مع التشديد على استبدال دولة علمانية بنظام المحاصصة. كانت الاحتجاجات تعيد شحن نفسها كل يوم جمعة، من خلال طريقة منظمة لجمع الناس في نفس المكان وفي نفس الوقت. ويُعْتَقَدُ أن عدد المتظاهرين قد بلغ ما بين 700 ألف إلى 800 ألف في الجمعة الثالثة[39].

في أوائل سبتمبر (أيلول) 2015، دعا مقتدى الصدر أتباعه إلى الانضمام للاحتجاجات في محاولة منه لِتَمَلُّكِ حِرَاكٍ ضم أكثر من مليون مشارك على الأرض. ببلوغ الاحتجاجات مدينة النجف، تعزز الخطاب العلماني والمعادي لرجال الدين بشكل ملحوظ. شهدت المظاهرات انتقادًا واسعًا لكيفية انبثاق الطائفية من توظيف السياسيين للدين خدمة لمآربهم الشخصية.

من جهتهم، كان السُنَّةُ أكثر حذرًا بالنسبة للمشاركة في الحِراك الاحتجاجي.

39- Jabar, F., 2018. The Iraqi Protest Movement: From Identity to Issue Politics. LSE Middle East Centre

وحسب استطلاع للآراء أجراه معهد الدراسات الاستراتيجية في العراق:

"أغلبية واسعة لم تشارك في الاحتجاجات. وعندما يُسألون عن السبب، يذكر 42% من المستجوبين خشيتهم الاعتقال بتهم إرهابية. وعن سؤال عما إذا كانوا يساندون المحتجين في مطالبهم، يجيب 79% بالإيجاب. أخيرًا، قال 87% منهم أنهم على استعداد للتظاهر ضد الفساد في المحافظات السُنِّيَّةِ."

ويضيف التقرير كيف يعتقد السُنَّةُ أن داعش حرمت حركة الاحتجاج من التوسع جغرافيًّا.

استهدفت الاحتجاجات أساسًا رئيس الوزراء السابق نوري الملكي، وحليفيه الموالين لإيران هادي العامري وأبو مهدي المهندس.

اندلعت الاحتجاجات مجددًا عام 2016 معتمدة تكتيكات ومقاربات هجومية أكثر، بوتيرة متكررة ومتتالية. اجتاح المحتجون المنطقة الخضراء واحتلوا مجلس النواب. أعقب ذلك مواجهات بين المتظاهرين وقوات الأمن العراقي. تعامل العبادي مع الاحتجاجات عبر تقديم وعود جوفاء حول محاربة الفساد، ومن خلال إصلاحات اقتصادية وتعيين تكنوقراط على رأس بعض الوزارات[40].

شهدت هذه الاحتجاجات تفاعلاً بين المجموعات اليسارية والعلمانية من جهة والحركة الصدرية من جهة، أثمر عن تشكيل تحالف "مستمرون". بدا هذا التحالف الديني – العلماني أكثر خطورة نظرًا للأدوار التي سبق للصدر لعبها في ما مضى من نزاعات طائفية وحكومات، وهو ما أدى إلى خصومة في صفوف العلمانيين، أفضت إلى تشكيل مجموعة جديدة تحت اسم "مدنيون". تُرْجِمَ التحالف العلماني الديني لاحقًا في ائتلاف "سائرون"، الذي تقدم إلى انتخابات 2018، وضم الحركة الصدرية والحزب الشيوعي العراقي ومرشحين مستقلين آخرين[41].

40- Raheem, K. and Kalin, S., 2016. Protesters storm Baghdad's Green Zone again, dozens hurt. Reuters

41- Aldouri, S., 2017. What to Know About Iraq's Protest Movement. Chatham House

بالرغم من النسبة العالية من الأصوات التي أحرزها "سائرون" في تلك الانتخابات إلا أنه فشل في تشكيل الحكومة، ما اضطره للرضوخ إلى مفاوضات "المُحَاصَصَة" ما بعد الانتخابية المعتادة والقبول بحكومة قائمة على أرضية مشتركة. إلى ذلك، كانت معدلات بطالة الشباب في ازدياد عندما قررت إيران وقف إمداداتها الطاقية لشبكة الكهرباء العراقية. وخلال محاربة قوات الأمن العراقي لـ "داعش" في فترة 2017-2014، وجه الإعلام الممول من الدولة انتقادات للحراك الاحتجاجي مفادها أنه مُعيقٌ لـ "الوحدة". والآن وقد تم التخلص من "داعش"، وفي ظل استمرار الفساد وضعف الاقتصاد والطائفية السياسية، لم يسجل أي تحسنٍ يُذْكَرُ قد يمنع المظاهرات العراقية من التجدد[42].

واصلت البصرة، حيث بدأت القصة، قيادة الاحتجاجات التي انتقلت إلى بغداد عبر الجنوب. كانت مقاومة البصرة أكثر زخمًا في ذلك الوقت، وهو ما أثار تضامن العراقيين بالداخل وفي الشتات، على شبكات التواصل الاجتماعي ووكالات الأنباء المختلفة[43]، مع هذه المدينة الساحلية الغنية بالنفط. استغل البصريون هذا الاهتمام كفرصة لمناقشة حقهم في الحكم الذاتي، الفكرة المستوحاة من مقارنتهم لتطور أوضاعهم إثر 2003 بأوضاع الحكم الذاتي في إقليم كردستان.

يُعَدُّ العراق ثاني أكبر منتج للنفط بمنظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك)، ويخرج من البصرة وحدها نحو 90% من الصادرات النفطية العراقية[44]. تثير مثل هذه الأرقام إحباط سكان المدينة. انتقلت المدينة، التي كانت تُوصف في الماضي بـ "فينيسيا الشرق الأوسط"، من مناقشة ندرة المياه وانقطاع الكهرباء والفقر إلى إضرام النيران في القنصلية الإيرانية ومكاتب الأحزاب الموالية لإيران وذات الميليشيات الطائفية البارزة. كان شباب البصرة على وعي تام بحاجتهم إلى تفكيك شبكة هذا النظام بجميع أركانها ومستوياتها: محليًّا، إقليميًّا، عسكريًّا، وغيره[45].

Aljazeera English, 2018. Iraq protests: What you should know -42

‘Aljazeera English, 2018. Iraq protests: What you should know -43

Ellen, R., 2019. View: Iraq may be the next flash point for crude oil market India Times -44

Williams, J., 2018. The violent protests in Iraq, explained. Vox -45

انتفاضة أكتوبر:

القتال من أجل عراق جديد

قبل أشهر عديدة من اندلاع انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) 2019، شرع المتخرجون من الجامعات وأصحاب الشهادات العليا، الذين لم يحصلوا على فرص عمل، في تنظيم اعتصامات مفتوحة. توزع المحتجون حسب اختصاص كل فئة وأقامت كل مجموعة اعتصامها الخاص قبالة الوزارة ذات العلاقة بمطالبها. فعلى سبيل المثال، اعتصم مهندسو البترول أمام وزارة النفط، والأطباء والممرضون والصيادلة قبالة وزارة الصحة، فيما رابط خريجو التعليم أمام وزارة التربية. تغذى الغضب في الشوارع كذلك من رفض الفساد. إذ نتحدث عن بلد يوجد في قائمة الدول العشرين الأكثر فسادًا حول العالم حسب منظمة "الشفافية الدولية" وعن نسبة رسمية للبطالة في صفوف الشباب يُعْتَقَدُ أنها تتجاوز 25% حسب أرقام صندوق النقد الدولي[46].

وكأنه لم يكن كافيًا ما يعيشه العراق من أزمة معيشية وإنسانية، إذ نشأ جيل من الأيتام المنسيين ضحايا حروب التدخل في الخارج وضحايا الإرهاب، لينضاف إليهم الآن 1.5 مليون من المُهَجَّرِينَ داخل البلاد نتيجة للحرب مع داعش. وبالرغم من نهري دجلة والفرات اللذين يخترقان البلاد من شمالها إلى جنوبها، إلاّ أنّ أغلب العراقيين محرومون من الماء النظيف الصالح للشرب. وحتى النقص في الكهرباء، يتم توظيفه بوسائل اقتصادية وسياسية احتكارية من طرف ما يسمى بـ "حلفاء" إيران. لا يتمتع 96.4% من الناس بتأمين صحي، فيما بلغت نسبة الأمية بين سكان الأرياف 40% في هذا البلد الذي كان يملك أحد الأنظمة التعليمية الأكثر شعبية وتقدمًا في العالم[47].

لم تمنع هذه الأسباب الدولة من التصدي بعنف للاعتصامات السلمية التي قادها

46- See Iraq index on Transparency International and Aljazeera, 2019. Iraqi youth fight unemployment with startups

47- Alkinani, Z., 2019. Iraqis rise up against everything and everyone. openDemocracy

الخريجـون العاطلـون عـن العمـل قـرب المقـرات الحكوميـة. فـي 24 سـبتمبر (أيلـول) 2019 هاجمـت قـوات مكافحـة الشـغب اعتصامًـا كان قـد بلـغ يومـه المائـة، وفُـرِّقَ المشـاركون فيـه باسـتعمال خراطيـم الميـاه، والغـاز المسـيل للدمـوع والقنابـل الدخانيـة. دفـع الانتشـار السـريع لمقاطـع فيديـو توثـق هـذه الهجمـات علـى شـبكات التواصـل الاجتماعـي وزارة الداخليـة إلـى فتـح تحقيـق حـول الممارسـات العنيفـة للشـرطة خـلال المظاهـرات السـلمية.

فـي سـبتمبر (أيلـول) 2019، أقـال عـادل عبـد المهـدي، رئيـس الحكومـة، الفريـق الركـن عبـد الوهـاب السـاعدي، وهـو نائـب قائـد جهـاز مكافحـة الإرهـاب سـابقًا وأحـد أبـرز الأبطـال العسـكريين للقتـال ضـد داعـش. يُزْعَـمُ أن هـذه الخطـوة قـد صبـت المزيـد مـن الزيـت علـى نـار الغضـب الشـعبي المتصاعـد ضـد الدولـة.

مَثَّـلَ تاريـخ 1 أكتوبـر (تشـرين الأول) 2019 الانطلاقـة الرسـمية للهبَّـةِ الشـعبية. وكان ذلـك ببغـداد، حيـث وقـع تنظيـم مظاهـرة دُعـيَ للمشـاركة فيهـا كافـة العراقييـن، علـى اختـلاف طوائفهـم وتنـوع خلفياتهـم التعليميـة والمهنيـة وانتماءاتهـم، بهـدف الاحتجـاج علـى الفسـاد والطائفيـة واللامسـاواة الاقتصاديـة والتدخـلات الأجنبيـة. ومـا بـدأ كمطالبـات بالحـق فـي العمـل فـي سـبتمبر (أيلـول)، تحـول إلـى انتفاضـة يقودهـا الشـباب الذيـن أغضبهـم الـرد العنيـف للدولة. سـار الآلاف مـن الشـباب نحـو سـاحة التحريـر، رافعيـن العلـم العراقـي وهاتفيـن ضـد الطبقـة السياسـية. وقـد أبـدوا احتـرازًا وريبـة قويـة جـدًّا تجـاه أي محاولـة لاسـتغلال زخـم حراكهـم مـن أي طـرف سياسـي، سـواء كان مـن السياسـيين العلمانييـن أو الحـزب الشـيوعي أو الحركـة الصدريـة.

كان هـذا التمـرد مسـتندًا بوضـوح إلـى تجربـة الحـراك الاحتجاجـي السـابق، إلّا أن هويتـه كانـت أكثـر تجـذرًا وصلابـة. لـم يكـن معنيًّـا بالتفـاوض، بـل يكتفـي بتحديـد القواعـد. لـم يَعُـدْ النـاس يطالبـون بفـرص عمـل أفضـل وبالمـاء أو الكهربـاء، بـل صـاروا ينـادون بإصـلاح النظـام برمتـه.

انتقـل زخـم بغـداد إلـى كامـل المنطقـة الجنوبيـة حتـى البصـرة. بوصولهـا إلـى مناطـق أم قصـر، خـور الزبيـر وصفـوان بلغـت الانتفاضـة أوجهـا علـى ضفـاف الخليـج العربـي. بدورهمـا، شـهدت المدينتـان المقدسـتان النجـف وكربـلاء مظاهـرات متفرقـة - وقـد مَثَّـلَ

ذلك أيضًا طريقة لضمان عدم خوف المؤسسة الدينية (المرجعية) من الحراك.

وفـي سـياق دعـم الاحتجاجـات الشـعبية، احتضنـت محافظـة القادسـية، ومركزهـا الديوانيـة، اعتصامًـا رئيسًـا بسـاحة صـارت تحمـل اسـم "سـاحة 25 أكتوبـر" بوسـط المدينـة. كمـا أغلـق المتظاهـرون عـددًا مـن المؤسسـات الحكوميـة، بمـا فـي ذلـك المديريـة العامـة للتربيـة بالمحافظـة. وقـد شـهدت بلـدة الشـامية احتجاجـات غاضبـة نـادت بإلغـاء كافـة الأحـزاب ومرشـحيها، كمـا قطـع المتظاهـرون السـاخطون الطريـق بيـن الديوانيـة والنجـف وحرقـوا فيهـا العجـلات المطاطيـة.

تصاعـدت الإضرابـات العماليـة البـارزة خـلال الشـهر الأول مـن الاحتجاجـات في مدينـة الكوت، مركـز محافظـة واسـط. قطـع المتظاهـرون الطـرق المؤديـة إلـى المحطـة الحراريـة لتوليـد الطاقـة بالمدينة وأحكمـوا سـد المنافـذ إليهـا، كمـا قطعـوا عـددًا مـن الطـرق التـي شـهدت مسـيرات احتجاجيـة رُفِعَـت فيهـا شـعارات مناهضـة للحكومـة وللأحـزاب الفاسـدة. مـن جهتهـا، عرفـت مدينـة السـماوة، مركـز محافظـة المُثنَّـى، إجـراءات أمنيـة مُشـدَّدَة فـي محيـط مجمّـع الدوائـر الحكوميـة إثـر مـا شـهدته مـن مسـيرات عارمـة. وقـد نـادت سـاحة التظاهـر بتنظيـم مسـيرات طلابيـة للتأكيـد علـى اسـتمرار الإضـراب العـام حتـى تحقيـق المطالـب[48].

ومَثَّلـتْ مدينـة الناصريـة إحـدى القصـص الثوريـة الرومانسـية الناشـئة عـن الانتفاضـة. إذ كان مركـز محافظـة ذي قـار، مسـرحًا لمظاهـرات بـارزة إلـى جانـب مـدن الغـراف والشـطرة والرفاعـي فـي المحافظـة نفسـها. منَـع المتظاهـرون النفـاذ إلـى العديـد مـن الطـرق والجسـور. وهتـف المتظاهـرون "لا للأحـزاب السياسـية" و "لا للذيـول"، اللذيـن مثَّـلا شـعارين ناشـئين فـي العلاقـة بالأحـزاب المرتبطـة بالمصالـح الإيرانيـة.

تصاعـد الخطـاب المناهـض لإيـران مـع تزايـد اسـتهداف الميليشـيات الموالـية لهـا - والتـي هـي جـزء مـن قـوات الحشـد الشـعبي - للمتظاهريـن علـى مـرأى ومسـمع مـن قـوات الأمـن العراقيـة وكاميـرات الإعـلام. عندمـا خرجـت الأمـور عـن السـيطرة فـي بغـداد، وتسـببت

48- Saif el Deen, A. and el-Jaff, S., 2019. The map of Iraqi protests in the southern and midland provinces. The New Arabic

المجموعات السياسية المرتبطة بالحكومة في إرباك كبير للمتظاهرين، طالب هؤلاء بأن يتم إعلان التوجيهات والإرشادات من العاصمة الجديدة للاحتجاجات العراقية: ساحة الحبوبي بالناصرية[49].

أمهل المتظاهرون الحكومة حتى تاريخ 25 أكتوبر للاستقالة ولتشكيل لجنة تحقيق في مقتل 149 وجرح 1287 من المحتجين السلميين[50]. وفيما لم تتوقف محاولات رئيس الحكومة عادل عبد المهدي إغراء الشباب العاطلين عن العمل بوعود التشغيل والفرص الاقتصادية، عاد عدَدٌ أكبر من المحتجين إلى الشوارع يوم 25 أكتوبر.

تجدُر الملاحظة أن هذا الحراك الاحتجاجي قد صنف نفسه كـ "ثورة" لجهة الخطاب، المطالب والأهداف: إصلاح شامل بدلًا من ترميم النظام. يعرف جاك غولدستون الثورة بكونها تعبئة جماهيرية تسعى لتغيير النظام السياسي. بيد أن غياب عدد من المحافظات عن المشاركة في الاحتجاج واستمرار روتين الحياة اليومية حالَا دون ظهور الانتفاضة العراقية كثورة[51]. إلا أن ذلك لا يُفقِدُ الانتفاضة طابعها الثوري روحًا وهوية.

49- Saadoun, M., 2019. Nasriyah becomes the Iraqi protest capital. Al-Monitor

50- Aljazeera Net, 2019. Tensions arise in prior to protests in Iraq

51- Goldstone, J. Towards a Fourth Generation of Revolutionary Theory. Annual Review of Political Science 4, 2001:139-87

الفاعلون الرئيسون

نُظِرَ إلى الاحتجاجات كتمرد من المواطنين الشيعة العاديين على الأوليغارشيين من نفس الطائفة، بسبب انحصارها في المحافظات ذات الغالبيّة الشيعيّة. إذ يُعَدُّ غياب المحافظات ذات الغالبية السُنيَّة، مثل الأنبار والموصل وغيرها، إحدى أهم نقاط التشابه الأساسية بين هذه الانتفاضة وما سبقها من احتجاجات منذ 2015. ومرد هذا الغياب هو الاستمرار الملحوظ لخوف السُنَّةِ من ظهور داعش مجددًا، ومن شن الحكومة حملات اعتقال في صفوفهم على خلفية اتهامهم بالتورط في الإرهاب. إلا أن ذلك لا يعني أن مطالب المحتجين لا تمثل إرادة وحاجات السنة العراقيين. إذ شارك الآلاف منهم في المسيرات بالمدن المختلطة طائفيًّا كبغداد والبصرة وغيرها. كما تعددت الوقفات الصامتة والتظاهرات المسائية التضامنية في الموصل والرمادي ومدن أخرى ذات غالبية سنيَّة، تأكيدًا على التضامن الأخوي والالتزام بهذه الانتفاضة.

من جهة أخرى، كان للوضع في كردستان سيناريو مختلف. إذ يخبرنا النضال الكردي والحركات الاحتجاجية ما بعد 2003، ضد السيطرة السياسية والاقتصادية للحزب الديمقراطي الكردستاني، والاتحاد الوطني الكردستاني، أنه بإمكانك خوض صراع ضد نخبتك السياسية المحلية، لكن دون أن تُعَرِّف بنفسك كعراقي. ويؤكد ذلك نماذج بارزة للمعارضات السياسية الكردية الصاعدة مثل حركة غوران من وسط اليسار أو حركة جيل جديد التي يقودها المعارض البارز لحكومة الإقليم، شَسوار عبد الواحد.

تزايد الانقطاع الكردي عن القضايا المجتمعيّة للعراقيين العرب على مرّ السنين بفعل تسييس الطبقة السياسية بكل من بغداد وأربيل للخلافات الأيديولوجية والإثنيَّة، وذلك في الوقت الذي استفادت به من الاتفاقات الدستورية والاقتصادية. وقد مَثَّلَتْ المدارس الفكرية اليسارية، والشيوعية الأرضية الرئيسة التي نجحت في الاندماج الوطني بين أكراد وعرب العراق. بالضبط كما الإسلام، الذي سمح للأكراد والعرب بإقامة روابط مشتركة تتجاوز الخلفيات الإثنية، وَحَّدَت السياسات اليسارية العديد من الناس من خلفيات هوياتية مغايرة.

بـكل الأحـوال، يمكـن النظـر إلـى المقاربـة الكرديّـة العامـة للقضايـا الأكثـر ارتباطًـا بالتجربـة العراقيـة الممركـزة مـن خـلال عدسـة سـيكولوجيا العلاقـات بيـن المجموعـات، حيث تقـود الذاكرة الجمعيـة إلـى اتخـاذ موقـف موحـد إزاء المجموعـات الأخـرى[52]. وقـد سـاهمت عـدة أحـداث فـي تعزيـز الانعزاليـة الوطنيـة للأكـراد عـن بقيـة العـراق، لعـل أهمهـا: تزايـد الاسـتقلالية الذاتيـة منـذ الاحتـلال الأمريكـي للعـراق فـي 2003؛ تقويـة التحالفـات الكرديـة العابـرة لحـدود الـدول بيـن أكـراد العـراق وتركيـا ومؤخـرًا سـوريا؛ طموحـات التوسـع الجغرافـي إثـر هجـوم داعـش علـى الموصـل فـي 2014؛ وأخيـرًا التجربـة القوميـة القويـة التـي مَثَّلَهَـا الاسـتفتاء مـن أجـل الاسـتقلال سـنة 2017.[53] مَثَّـلَ تحويـل العلاقـات المجتمعيـة الكرديـة العربيـة إلـى مسـألة توافقـات مؤقتـة عبـر شـراكات اقتصاديـة وسياسـية إحـدى الوسـائل التـي اسـتعمل مـن خلالهـا سياسـيُّو بغـداد وأربيـل الطائفيـة والإثنيـة علـى حسـاب الشـعب العراقـي.

ولئـن مَثَّلَـتْ انتفاضـة أكتوبـر 2019 نـداءً مـن أجـل تحسـين ظـروف عيـش البعـض وتعزيـز حقوقـه، فقـد مَثَّلَـتْ أيضًـا مصـدر قلـق وجـودي بالنسـبة للبعـض الآخـر. وقـد تحدثـت التقاريـر الإعلاميّـة عـن عـدم ارتيـاح عمـوم الأكـراد حيـال احتجاجـات 20-2019، لمـا حملتـه مـن تهديـد لـكل المزايـا الأمنيـة والاقتصاديـة لحكمهـم الذاتـي[54]. إذ منـح عـراق مـا بعـد 2003 حكومـة إقليـم كردسـتان أعلـى درجـات الاسـتقلالية فـي تاريخهـا، فشـهدت تنميـة مطـردة وجذبًـا للاسـتثمارات الدوليـة أكثـر مـن أي جـزء آخـر مـن العـراق، وأكثـر مـن بقيـة المناطـق الكرديـة بالبلـدان المجـاورة.

إذ أَمَّـنَ نظـام المحاصصـة، بعـد 2003، رئاسـة العـراق للأكـراد ومكنهـم مـن التفـاوض حـول العديـد مـن الـوزارات القويّـة فـي السـنوات الماضيـة، مثـل وزارتـي الشـؤون الخارجيـة والماليـة. ولهـذا السـبب نجـد أن العديـد مـن السـفارات العراقيـة تـدار مـن قِبَـلِ أكـراد عراقييـن. ولـذا، وعلـى عكـس بقيـة العراقييـن الذيـن لـن يخسـروا الكثيـر مـن الإصـلاح الشـامل للنظـام،

52- Finkel, J. Baumeister, R., 2019. Advanced Social Psychology: The State of the Science by Eli J. Finkel and Roy. F Baumeister'. Oxford University Press.

53- Taspinar, Ö., 2019. ISIS and the false dawn of Kurdish statehood. Brookings

54- See 'Why are Iraqi Kurds not taking part in protests?' by Mariya Petkova on Aljazeera. Nov. 2019

يخشى الأكراد أكثر على ما حققوه من مكاسب من ديمقراطية المحاصصة التوافقية.

وبالنظر إلى كل ما سبق ذكره، فإن ذلك لا يعني أن الأكراد يحملون تعاطفًا أقل تجاه بقية العراق. ففي الواقع، لطالما اشترك الأكراد والشيعة العراقيون في خوضهم نضالات متشابهة جدًّا ضد نفس الحكام وفي نفس المراحل من تاريخ عراق ما قبل 2003. إلا أن التمايز الطبيعي، إثنيًّا وثقافيًّا ولغويًّا، بين الأكراد والعرب قد دفعهم إلى تبني صِلات مختلفة بالهوية الجمعية للعراق الحديث.

وبالرغم من أن ثمة قلقًا من أن تحد الأعباء الإثنية - الطائفية والجيوسياسية من إمكانية تشكيل موجة احتجاج جماهيري تشمل كافة المحافظات، ولكن ذلك لا ينفي أن الحراك الاحتجاجي ظل مدفوعًا من منتمين لكل مكونات المجتمع. إذ كان السُنَّة والمسيحيون والأكراد ومنتمون لطوائف أخرى حاضرين، على الإنترنت وفي الشارع، في مناطق كبغداد والبصرة. تجاهل الحراك بثقة التنوع الإثني والطائفي بصفوفه ليركز أكثر على التعددية الجندرية والعمرية والمهنية.

عكس سواق التكتك بساحة التحرير وسواق الستوتة بساحة الحبوبي دور العمال في النشاطات الاحتجاجية. ودفعت المشاركة النسائية المعتبَرة مقتدى الصدر إلى إطلاق "حملة تحذيرية" دعا خلالها المحتجين إلى عدم اختلاط الجنسين، تجنبًا لـ "الأفعال غير المقبولة". فشل النداء المتعجرف للصدر في جني التأييد، وتم التعبير عن إدانته من خلال ارتفاع عدد النساء المشاركات في المظاهرات.

شاعَ احتلال الساحات المركزية للمدن، والجسور والعمارات خصوصًا، ومنها "المطعم التركي"، المطل على ساحة التحرير ببغداد[55]، الذي اكتسب رمزية عالية. كان هناك ما يقارب 1500 خيمة بساحة التحرير، أشرفت عليها مجموعات متنوعة: علمانية، يسارية، مستقلة، قبل أن تلتحق بها كيانات سياسية قائمة مثل الصدريين والحزب الشيوعي.

وبالرغم من النداءات المستمرة للمحتجين ضد الاعتراف بأي طرف سياسي أو لجنة كممثل رسمي للانتفاضة، ظهر عدد من اللجان المنتظمة ببيانات تتحدث عن

55- See ‘Iraq’s Tahrir: Finishing What We Started’ by Sami Adnan on Rampant. April 2020

الخطـوات التاليـة. انتشـرت هـذه البيانـات عبـر شـبكات التواصـل الاجتماعـي مـن دون خلفيـة واضحـة حـول قيـادة وأجنـدة أصحابهـا. ومـن هـذه اللجـان:

اللجنــة المنظمــة لمظاهــرات ثــورة تشــرين، اتحــاد تنســيقيات الثــورة العراقيــة، اتحــاد تنسـيقيات ثـورة تشـرين، لفيـف – اللجنـة التنظيميـة لـكل المحافظـات العراقيـة، ولجـان أخـرى كثيـرة.

ظاهريًّـا، تشـكلت العديـد مـن هـذه اللجـان مـن قِبَـلِ ناشـطين مسـتقلين، طلبـة، يسـاريين، شـيوعيين، علمانييـن، صدرييـن وبعثييـن سـابقين (مـع الإشـارة إلـى أن هـؤلاء لـم يُعرِّفُـوا أنفسـهم قـط كبعثييـن لوعيهـم بالمسـافة التـي سـيخلقها ذلـك مـع الحـراك الاحتجاجـي). ومـن المحتمـل أن وجـود بعـض هـذه المجموعـات قـد يكـون أحبـط المتظاهريـن ومنعهـم مـن المضـي فـي تشـكيل لجنـة جامعـة.

بـرزَ كل مـن البيـان العراقـي الموحـد، معتصمـو سـاحة التحريـر، كمجموعـات قائـدة لسـاحة التحريـر. وتتكـون الأخيـرة مـن شـباب متنـوع مـن أعضـاء الحـزب الشـيوعي وعلمانييـن مسـتقلين. هنـاك كذلـك مجموعـة "حـرام مـولاي"، والتـي تتضمـن إشـارة سـاخرة إلـى اسـتعمال الديـن والطائفـة لاحتـكار السـلطة والنفـوذ. وقـد انبثقـت هـذه المجموعـة فـي الأصـل مـن احتجاجـات 2018 بالبصـرة وباقـي المحافظـات الجنوبيـة. وإثـر ظهورهـم مجـددًا خـلال احتجاجـات أكتوبـر 2019، قامـوا بتوجيـه المتمرديـن نحـو اجتيـاز الجسـور التـي كانـت مغلقـة مـن طـرف القـوات الأمنيـة. وقـد تـم اعتقـال عـدد مـن الناشـطين الشـباب المشـرفين علـى منصـات "حـرام مـولاي" علـى شـبكات التواصـل الاجتماعـي إثـر قرصنـة أجهـزة المخابـرات العراقيـة لحسـاباتهم.

مَثَّـلَ اتحـاد طلبـة بغـداد أقـوى تجمّـع للطـلاب فـي الحـراك الاحتجاجـي. كان مـن الصعـب اختـراق هـذه المجموعـة بالنظـر لكـون أغلـب أعضائهـا مسـتقلين سياسـيًّا، وقـد وفـرت مشـاركتهم دعمًـا مشـروعًا للانتفاضـة. كذلـك بـرز اتحـاد طلبـة ميسـان، وإن كان تركيزهـم أكثـر علـى محافظتهـم ميسـان.

تشـكلت هيئـة الـرأي مـن منظميـن بارزيـن مـن محافظـات الجنـوب والوسـط، بإشـراف مـن الناشـط والصيدلـي الدكتـور عـلاء الركابـي. ويُعَـدُّ الركابـي أحـد أبـرز وجـوه انتفاضـة

أكتوبـر مـن محافظـة الناصريـة، وقـد نظـم وقـاد الاحتجاجـات ونسـق النقاشـات بيـن لجـان المحتجيـن مـن مختلـف المحافظـات.

طيلـة فتـرة مـن الزمـن، كان الركابـي بمثابـة "المثقـف المتحـدث " باسـم الحـراك والمقبـول ضمنيًّـا مـن قِبَـلِ عمـوم المحتجيـن، إلـى أن التقـى بجانيـن هانيـس بلاسخارت، الممثلـة الخاصـة للأميـن العـام للأمـم المتحـدة. إذ اقتـرح إثـر ذلـك أن يُعطـي الحـراك فرصـة لرئيـس الحكومـة المعيـن محمـد توفيـق عـلاوي، قبـل أن يعلـن نيتـه ترشـيح نفسـه لرئاسـة الحكومـة الانتقاليـة. تمـت إدانـة تصرفـات الركابـي بشـدة مـن قبـل المتظاهريـن، الذيـن وصفوهـا بالتجـاوز لكونـه تصـرف كزعيـم لتمـرد دون زعامـات.

هنـاك العديـد مـن المجموعـات واللجـان الأخـرى التـي نَظَّمَـتْ نفسـها فـي خضـم الاحتجاجـات، فـي ظـل القاعـدة الأساسـية الشـعبية بأنـه لا يوجـد حتـى السـاعة أي كيـان سياسـي يُمَثِّـلُ الانتفاضـة بأكملهـا. إن المجتمـع العراقـي متنـوع اجتماعيًّـا وسياسـيًّا، وبالتالـي لا يمكـن توقـع ظهـور حركـة احتجـاج عضويـة تحمـل أجنـدة سياسـية شـاملة وراسـخة. ولـذا سيسـتمر بـروز مجموعـات ولجـان وأراء وأفـكار متنوعـة سـعيًا لخلـق البديـل.

المطالب

بلـغ زخـم الانتفاضـة ذروتـه عندمـا أعلـن عـادل عبـد المهـدي، رئيـس الحكومـة، وبرهـم صالـح رئيـس الجمهوريـة، اسـتقالتيهما. أعلـن عبـد المهـدي اسـتقالته فـي 29 نوفمبـر (تشـرين الثانـي) 2019. ويُزْعَـمُ أن مـا دفعـه لذلـك كان قتـل قـوات الأمـن 24 محتجًّـا فـي الناصريـة قبـل ذلـك بيـوم. مـن جهتـه قـدّم صالـح اسـتقالته لمجلـس النـواب احتجاجًـا منـه علـى عـدم قبـول المتظاهريـن بـأيٍّ مـن المرشـحين الذيـن عينهـم. إلا أنـه مـا زال مـزاولاً لمهامـه. لـم تُمَثِّـلْ هاتيـن الاسـتقالتين أكثـر مـن إنجـاز رمـزي، وكان واضحًـا مـن خـلال ردة فعـل الحـراك أن: ذلـك غيـر كافٍ! كان النـاس يهدفـون إلـى تغييـر المنظومـة لا الاكتفـاء بتغييـر بعـض الوجـوه، وقـد مَثَّـلَ ذلـك حجـر الزاويـة فـي تحديـد مـدى مرونـة مطالبهـم.

انحـدرت أغلـب مطالـب أكتوبـر 2019 مـن المخـاوف المشـابهة للحـراك الاحتجاجـي لسـنة 2015 ومـن كل الاحتجاجـات التـي حصلـت بالبـلاد بعـد 2003. تبـدأ المطالـب التقليديـة الثـلاث بإصـلاح النظـام السياسـي وإلغـاء منظومـة المحاصصـة مـن أجـل ديمقراطيـة علمانيـة. يتمثـل الثانـي فـي إنهـاء الفسـاد، وهـو السـبب الرئيـس وراء المطلـب الثالـث: إنهـاء تـردي الخدمـات العموميـة، وسـوء الإدارة الاقتصاديّـة والمعـدلات المرتفعـة لبطالـة الشـباب، بيـد أن الـرد العنيـف المباشـر والواثـق مـن الحكومـة والمجموعـات المسـلحة التابعـة للأحـزاب السياسـية دفعـت ببعـض المطالـب الأكثـر ثانويـة إلـى الواجهـة، أساسًـا: إنهـاء نفـوذ المتشـددين والحـد مـن التدخل الخارجـي فـي الشـؤون العراقيـة، بـدءًا مـن الولايـات المتحـدة، وبالأخـص إيـران التـي تمـول مـا يقـارب 40% مـن الميليشـيات الشـيعية فـي العـراق[56].

وأخيـرًا، والأكثـر أهميـة، المطالبـة بفتـح تحقيـق حـول خطـف وتعذيـب وقتـل المتظاهريـن السـلميّين ومحاسـبة المجرميـن. يمكـن النظـر للمطلـب الأخيـر علـى أنـه الأقـل فاعليـة اقتصاديًّـا وسياسـيًّا مـن جهـة، إلا أنـه مـن الجهـة المقابلـة كان الأكثـر الأهميـة مـن زاويـة التمثيـل الذاتـي. إذ مَثَّلَـتْ المطالبـة بالعدالـة للمنتفضيـن الشـهداء طريقـة عمليـة لنحـت هويـة ثوريـة لحـراك أكتوبـر 2019.

أسـس القمـع العنيـف للاحتجاجـات، وقتـل نحـو 800 متظاهـر وجـرح 30 ألفًـا، لمقاومـة شـديدة ضـد إيـران وميليشـياتها التابعـة علـى الأرض. قـاد الهتـاف ضـد نفـوذ إيـران وضـد تحرشـها بـأي فـرد أو مجموعـة لا تتوافـق مـع مصالحهـا فـي العـراق إلـى أقـوى خطـاب معـادي لإيـران منذ 2003. تـم إنـزال صـور آيـة اللـه الخمينـي مـن مـدن كالنجـف، وحـرق مقـرات الأحـزاب السياسـية التـي تورطـت ميليشـياتها فـي العنـف ضـد المحتجيـن، خاصـة فـي مدينـة الناصريـة. وتـم إحـراق القنصليـة الإيرانيـة بالنجـف، فـي تكـرار لنفـس السـيناريو الـذي حـدث فـي البصـرة صيـف 2018.

شـهد سـلوك الصدرييـن تجـاه الاحتجاجـات تحـولات رئيسـة. اشـتهر مقتـدى الصـدر منـذ 2015 بـ "اختطافـه" الاحتجاجـات وفرضـه زعامتـه عليهـا لاسـتعمالها كـ "أوراق ضغـط" ضـد خصومـه وشـركائه السـابقين فـي النظـام السياسـي. إلا أن احتجاجـات

56- Aidouri, S., 2017. What to Know About Iraq's Protest Movement. Chatham House

أكتوبر 2019 أثبتت منذ بدايتها أن الطريق غير سالك له هذه المرة، لسببين:

يعـود العائـق الأول فـي وجـه انضمامـه للاحتجاجـات إلـى مـا قـام بـه الصـدر قبـل ثلاثـة أسـابيع مـن اندلاعهـا: زيارتـه المفاجئـة لإيـران بتاريـخ 10 سـبتمبر (أيلـول) 2019. أثـارت صـوره، التـي انتشـرت فـي وسـائل الإعـلام الإقليميـة والدوليـة، وهـو جالـس بيـن آيـة اللـه علـي خامنئـي، المرشـد الأعلـى للثـورة، وقاسـم سـليماني، قائـد فيلـق القـدس، تسـاؤلات حـول شـعوره "القومـي والمعـادي لإيـران".

تعلمـت إيـران مـن تجربـة وكلائهـا فـي العـراق أن مقتـدى الصدر هـو الأقـوى والأكثر تأثيـرًا من بيـن كل حلفائهـا الأوفيـاء فـي قوات الحشـد الشـعبي والحكومـة. وبالرغم مـن تنافسـه معهم طيلة سـنوات، حافـظ الصـدر على رؤيته المشـتركة لـ "العدو الأمريكي" مع باقي حلفـاء إيران في العراق. يشـرح علـي المعمـوري، الخبيـر فـي العلاقـات العراقيـة الإيرانيـة، زيـارة الصـدر لإيـران كمـا يلـي: "أظهـر الصـدر دعمـه للإيرانييـن فـي هـذا الظـرف العصيـب، مؤكـدًا أن إيـران لاعـب رئيـس فـي المنطقـة وذات درجـة عاليـة مـن المرونـة والواقعيـة. وفـي الآن نفسـه يحصـل الصـدر علـى دعـم الإيرانييـن لخطواتـه المسـتقبلية فـي السياسـة العراقيـة. بعـد لقـاء الصـدر بخامنئـي وسـليماني، لا يمكـن للفاعليـن الإيرانييـن فـي العـراق، بمـا فـي ذلـك فصائـل "الحشـد الشـعبي"، اتهامـه بحمـل أجنـدة معاديـة لإيـران كمـا حـدث فـي السـنوات القليلـة الماضيـة.[57] "

أمـا العائـق الثانـي فيتمثـل فـي الاحتياطـات المبكـرة التـي اتخذهـا المتظاهـرون حيـال نيـة الصـدر الالتحـاق بالانتفاضـة. ففـي اليـوم الرابـع للاحتجاجـات، طالـب الصـدر الحكومـة بالاسـتقالة ودعـا إلـى تنظيـم انتخابـات مبكـرة تحـت إشـراف دولـي وأمـر نوابـه فـي كتلـة "سـائرون" بتعليـق عضويتهـم فـي البرلمـان[58]. اسـتقال نـواب الحـزب الشـيوعي مـن المجلـس معلنيـن عجـزه عـن تحقيـق مطالـب المتظاهريـن، فيمـا تعهـدوا بالإبقـاء علـى تحالفهـم السياسـي مـع كتلـة "سـائرون".[59]

Maamouri, A., 2019. What is Iran's message in Sadr's meeting with Khameni. Al-Monitor -57

DW Arabic. Iraq – Sadr calls for government's resign amidst continuous protests -58

.The Baghdad Post. 'Iraqi communist party resigns amidst protests' on The Baghdad Post -59

وبالنظـر لمـا فـي هـذه المواقـف مـن تشـابه مـع محـاولات الصـدر السـابقة للاسـتيلاء علـى الاحتجاجـات المدنيـة، رد المتظاهـرون عليهـا بسـرعة وشـددوا علـى التمايـز بيـن حراكهـم القاعـدي ودوافـع الصـدر السياسـية. وقـد كان ردهـم بهتـاف: "هـذا الشـعب وحـده طلـع، لا تركـب الموجـة ". وقـد مَثَّـلَ ذلـك شـعارًا مماثـلاً لمـا رفعـه المتظاهـرون فـي لبنـان الذيـن هتفـوا "كِلُّـن يعنـي كِلُّـن! "[60].

ومـن أجـل حمايـة الطابـع السـلمي للاحتجاجـات مـن أي تمييز سياسـي، كان علـى المتظاهرين أن يقبلـوا حقيقـة أن انخـراط أو ولاء العديـد مـن المنتسـبين إلـى التيـار الصـدري تعـود أساسًـا إلـى انتماءاتهـم القبليـة أو الدينيـة، أو أنهـم اضطـروا لذلـك نظـرًا لمـا كان يوفـره لهـم التيـار مـن فـرص عمـل ودعـم مالـي خـلال فتـرة العقوبـات الدوليـة طيلـة عقـد التسـعينات، وخـلال المراحـل الأولـى مـن الغـزو الأمريكـي. بعبـارة أخـرى، الصدريـون هـم كذلـك عراقيـون ومـن حقهـم أن يقولـوا كلمتهـم فـي أي عمليـة انتقـال.

اكتسـحت القبعـات الـزرق بغتـة سـاحات الاحتجـاج. كانـت محاولـة صدريـة لإسـباغ لـون تمثيلـي علـى الانتفاضـة. للمفارقـة، تحـول ذلـك إلـى طريقـة لتمييـز الصدرييـن عـن بقيـة المتظاهريـن. بـدأ ذوو القبعـات الـزرق الصدريـون فـي حمايـة المتظاهريـن مـن هجمـات بقيـة الميليشـيات، التـي كانـت تخشـى المخاطـرة بمواجهـة أتبـاع الصـدر. أدى ذلـك إلـى القبـول بهـم أكثـر فـي السـاحات.

عَيَّـن الرئيـس برهـم صالـح فـي 1 فبرايـر (شـباط) 2020 محمـد توفيـق عـلاوي، الوزيـر السـابق للإعـلام، كرئيـس حكومـة لتعويـض عبـد المهـدي. رفـض المتظاهـرون هـذا المرشـح قبـل أن تحظى بفرصـة التصويـت عليهـا مـن قبـل البرلمـان، وذلـك بالنظر لرفضهـم الواضـح المعلن لأي مرشـح من منظومـة المُحَاصَصَـة.[61] عَكَسَ هذا الرفض السـريع الثبات والمرونة المسـتمرة لمطالب المحتجين، مـا ضمـن فيتـو قويًّـا علـى تعييـن أي سياسـي من نفـس النخبة السياسـية. مـن جهته، رحـب الصدر بتسـمية عـلاوي ودَعـا إلى وقف الاحتجاجـات. وضع "القبعات الـزرق" الصدريون حدًّا لـ" نشـاطهم

60- Turkmani, N. and Alkinani, Z., 2019. From Iraq to Lebanon and back: the people want the fall of the regime. openDemocracy

61- 'Asharq Al- Awsat. 2020. Tensions Flare between Iraq Protesters, Sadr Supporters

الإنساني" وبدأوا في مهاجمة المحتجين السلميين وفي احتلال مواقع استراتيجية في مساحات التظاهر المشتركة، مثل المبنى الأيقوني للمطعم التركي وسط بغداد[62]. بعد مرور شهر على تعيينه، فشل علاوي في إقناع البرلمان بالموافقة على حكومته، وقد عزا ذلك إلى مقاومته لمنظومة المُحاصَصَة.

تبادلت واشنطن وطهران سلسلة من الهجمات، بدأت بهجوم على قاعدة جوية في كركوك أدت إلى مقتل مقاول مدني أمريكي في 27 ديسمبر (كانون الأول) 2019. ردت الولايات المتحدة على هذا الهجوم بقصف جوي لكتائب حزب الله العراقي تسبب في مقتل 25 من مقاتليه. وبالرغم من نفي إيران مسؤوليتها عن الهجوم على قاعدة كركوك، فقد اشترك الأمريكان والرأي العام العراقي في اتهامها بمحاولة إلهاء العراقيين عن انتفاضتهم التي قد تضع حدًّا لاستعمالها لوكلائها في المنطقة. تمت ترجمة ذلك ببداهة عندما حاصرت الميليشيات الموالية لإيران مقر السفارة الأمريكية في بغداد.

يوم 3 يناير (كانون الثاني) 2020، أودى قصف جوي أمريكي بحياة قاسم سليماني والقائد بقوات الحشد الشعبي أبو مهدي المهندس في محيط مطار بغداد الدولي. كان سليماني والمهندس بمثابة جناحي التوسع الإيراني في المنطقة، وقد بترتهما الولايات المتحدة في ليلة واحدة. تبع هذا الحدث تنظيم مسيرة نحو السفارة الأمريكية ببغداد، حيث تشابكت أيدي كل السياسيين الموالين لإيران، أحزابًا وميليشيات، في إدانة اغتيال سليماني والمهندس. اغتنم الصدر فرصة فراغ السلطة الذي تركه سليماني؛ ليأخذ الأسبقية، خاصة وأن إيران صارت بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى في عراق ما بعد 2003. ولذا دفع الصدر مسانديه للمشاركة في المسيرة المناهضة للولايات المتحدة.

وما إن بدأت المواجهات بين إيران وأمريكا بالخفوت، وفي حين كان المحتجون يستعدون لاستئناف تحركاتهم، ظهر وباء فيروس كورونا، أو كوفيد 19، الذي سرعان ما انتشر حول العالم. يُعْتَقَدُ أن هذا الوباء سيمثل الرصاصة البيولوجية التي ستصيب النظام الرأسمالي النيوليبرالي، إلا أنه مَثَّلَ أيضًا فرصة لكشف ضعف الأمان الصحي

62- France 24. 2020 How Iraq's 'blue hat' militiamen went from protecting to killing protesters

الـذي يفتـرض أن توفـره منظومـات الرعايـة الصحيـة. فعلـى سـبيل المثـال، سـتضيف المنظومـة الصحيـة العراقيـة الفاسـدة والمهترئـة نصيبهـا مـن الضحايـا إلـى الكارثـة المتوقعـة[63]. وإلـى حـدود 25 نيسـان (أبريـل) المنقضـي بلغـت حـالات العـدوى المؤكـدة 1677، منهـا 83 حالـة وفـاة. وهـو مـا قـاد الحكومـة العراقيـة إلـى فـرض حظـر تجـوال وإلـى التشـديد علـى أهميـة إجـراءات التباعـد الاجتماعـي مثلمـا جـرى فـي العديـد مـن الـدول.[64]

مَثَّـلَ ذلـك أيضًـا فرصـة للطبقـة السياسـية للتوافـق علـى انتقـال جديـد يحفـظ لهـا نفوذهـا وحضورهــا، فيمــا قــد يُرضــي رمزيًّــا المحتجيــن. بعــد شــهر واحــد مــن فشــل محاولــة تمريــر حكومـة عـلاّوي فـي البرلمـان، وقـع اختيـار عدنـان الزُرفـي، المحافـظ السـابق للنجـف والأقـرب لدائـرة تأثيـر الولايـات المتحـدة، رئيسًـا للحكومـة. إلا أن خلفيتـه الإصلاحيـة وابتعـاده عـن تأثيـر إيـران قـادا إلـى حملـة معارضـة قويـة مـن الكتـل الموالـية لطهـران. انسـحب الزرفـي قبـل حتـى أن يقتـرح حكومتـه علـى مجلـس النـواب، ليتـم اسـتبداله يـوم 9 أبريـل (نيسـان) 2020 بمصطفـى الكاظمـي، المديـر السـابق لجهـاز الاسـتخبارات. إنّهـا محـاولات مقصـودة ومتوقعـة للبقـاء رغـم العصيـان المدنـي الـذي احتـل شـوارع العـراق وسـيطر علـى رأيـه العـام.

المضيُّ قُدُمًا:

التحدِّيات والاحتمالات

كأيٍّ حـراك آخـر، تتسـم الانتفاضـة العراقيـة بنقـاط قـوة وضعـف. نتجـت بعـض حدودهـا عـن البنيـة السياسـية والثقافيـة للعلاقـات الطائفيـة، فيمـا تعـود الأخـرى إلـى نزاعـات قائمـة مـن قبـل.

بدايـةً، الضعـف الطبيعـي علـى الأرض الـذي يجـب القبـول بـه كجـزء مـن الواقـع. لأسـباب متنوعــة، لا يمكــن حــل مشــكلة الغيــاب الكــردي عــن الانتفاضــة الشــعبية فــي المــدى

63- Mansour, R. and Mohsin Hussein, A., 2020. COVID-19: Assessing Vulnerabilities and Impacts on Iraq. Chatham House

64- Elbaldawi, L., 2020. Iraq's health system meets the challenge of coronavirus. Al-Monitor

القصيـر. سـاعد الحكـم الذاتـي للأكـراد الحزبيـن الديمقراطـي الكردسـتاني والاتحـاد الوطنـي الكردسـتاني علـى انتهـاج سياسـة ثنائيـة واحتـكار اقتصـادي مـن شـأنهما إسـكات ومحاصـرة أيـة محـاولات للعصيـان المدنـي بالإقليـم. وحتـى إذا تخيلنـا عراقًـا أكثـر تطـورًا وإدماجًـا، وهـو مـا يكافـح المنتفضـون مـن أجلـه، فإنـه المسـتحيل عـدم توقـع اسـتمرار مطالبـة أكبـر أمـة فـي العالـم مـن دون دولـة باسـتقلالها.

يواجـه الحـراك السـلمي صعوبـة اسـتراتيجية أخـرى، هـي الحضـور الثقيـل للميليشـيات الخارجـة عـن سـيطرة الدولـة. والتـي تنشـط أيضًـا كأجنحـة شـبه عسـكرية للأحـزاب المتواجـدة فـي الحكومـة. لهـذه المجموعـات شـبه العسـكرية مصالـح مشـتركة مـع اللاعبيـن الفاعليـن فـي الشـؤون الداخليـة العراقيـة، كإيـران. بعبـارة أخـرى، يبـدو الوضـع الأمنـي للعـراق كمـا لـو أنـه فـي سـرداب تفضـي أبوابـه المتعـددة إلـى مخـارج مسـدودة، واشـتركت فـي إغلاقهـا الحكومـة والأحـزاب السياسـية. إذ يوظـف كليهمـا الخلافـات المجتمعيـة الإثنيـة الطائفيـة تحـت عناويـن "التوافقيـة" و"التناسـب".

مـا زال الخطـاب الثـوري، الـذي يُقـاس اليـوم أساسًـا عبـر شـبكات التواصـل الاجتماعـي، حاضـرًا ونشـطًا جـدًّا. إلا أن الإبقـاء علـى زخـم الانتفاضـة واجـه تحديـات متكـررة مـع العـودة البطيئـة للاحتجاجـات الميدانيـة إلـى مسـارها الصحيـح. بـدأ ذلـك بتعاظـم التوتـر العسـكري علـى الأرض بيـن الولايـات المتحـدة وإيـران، ثـم بالمحـاولات الحكوميـة لشـراء الوقـت عبـر تعييـن ثلاثـة رؤسـاء حكومـة مختلفيـن لتعويـض عبـد المهـدي.

بالانتقـال إلـى نقـاط الضعـف التـي يمكـن للحـراك التغلـب عليهـا، هنـاك عـدد مـن الفجـوات التنظيميـة: علـى سـبيل المثـال، يتظاهـر بعـض المحتجيـن كل يـوم جمعـة، متبعيـن فـي ذلـك التكتيـكات القديمـة للحـراك الاحتجاجـي، فيمـا يتجمـع البعـض الآخـر يوميًّـا. والآن، حتـى يتـم اعتبـار الحـراك انتفاضـة قصـوى تفـرض إصلاحًـا للنظـام، عليـه أن يتحـرك ككيـان واحـد وأن يكـون قـادرًا علـى تمييـز نفسـه عـن الاحتجاجـات المعتـادة.

فـي العديـد مـن الحـالات، يمكنـك تبليـغ مطالبتـك بإصلاحـات معينـة مـن خـلال احتجاجـات منتظمـة. إلا أنـه مـن المشـكوك فيـه أن تنجـح فـي إقنـاع النخبـة السياسـية بتفكيـك الدسـتور الـذي وضعتـه والمؤسسـات التـي بنتهـا بنفسـها مـن دون أن تعرقـل نظامهـا العـام. مَثَّـلَ

عامـل الاعتياديـة طيلـة الشـهور التـي أعقبـت انطـلاق انتفاضـة أكتوبـر ضربـة قويـة لهـذه الانتفاضـة. إذ كان بمثابـة الهديـة المقدمـة لدعايـة الإعـلام الحكومـي، والـذي اسـتعمله كحجـة علـى أن الأمـر يتعلـق بعصيـان مدنـي مزعـج لا يمثـل سـوى مكـون واحـد بالمجتمـع وليـس كل أطيافـه. يمـارس العديـد مـن العراقييـن داخـل البـلاد، أو بالشـتات، كل أشـكال النشـاط الإعلامـي والرقمـي، بينمـا ينسـون أن هنالـك آخريـن يواجهـون المظالـم بشـكل مـادي مباشـر. عـزز ذلـك شـعورًا بالإهمـال فـي صفـوف المتظاهريـن علـى أسـاس فكـرة أنهـم وحدهـم فـي هـذه المعركـة.

كان مـن الممكـن أيضًـا إصـلاح العيـوب السـالف ذكرهـا لـو كانـت هنـاك لجـان تنظيميـة وقيـادة. إذ يُلاحَـظُ أنَّ غيـاب القيـادة كان أحـد أكبـر نقـاط قـوة الحـراك وضعفـه فـي آن واحـد. شـهدت خيـام الاحتجـاج بالسـاحات، وفـي الشـتات، ولادة العديـد مـن اللجـان والبيانـات بهـدف التعبيـر عـن مطالـب الحـراك رئيسًـا، وعـن اتجاهاتـه بدرجـة أقـل. بالمقابـل، افتقـدت هـذه المحـاولات لشـيء مـن الوحـدة والفعـل الجماعـي. لـم تكـن الانقسـامات وراء ذلـك، بـل خـوف المتظاهريـن مـن بـروز وجـوه تسـيطر علـى حراكهـم، بالضبـط كمـا فعـل الصـدر، ورغبتهـم فـي تمييـز أنفسـهم عـن هيـاكل أي كيـان سياسـي. وهـو مـا اعتبـر كذلـك نقطـة قـوة لصالحهـم. عكـس تدخـل الصـدر كذلـك مـدى أهميـة أن يكـون للحـراك درع قـوي يحميـه مـن خـلال قيـادة منظمـة تسـتطيع التعبيـر علنًـا عـن مطالبـه الجامعـة.

نقطـة الضعـف الأخيـرة، التـي نوقشـت بشـكل واسـع، هـي الموقـع الجغرافـي للاحتجاجـات. رغـم وجاهـة الخـوف مـن ظهـور داعـش فـي المناطـق السُّـنِّيَّةِ، ورغـم التبـاس العلاقـة مـع العـراق داخـل الإقليـم الكـردي، فإنـه لا مندوحـة مـن أن يواصـل الحـراك تمـدده. فمثلمـا يخشـى أبنـاء المناطـق ذات الغالبيـة السُّـنِّيَّةِ عـودة التطـرف ويكافـح الأكـراد للارتبـاط بالهويـة العراقيـة الجامعـة، كذلـك يعانـي المواطنـون بالمناطـق ذات الغالبيـة الشـيعية مـن الإرهـاب الـذي تمارسـه ضدهـم الجماعـات الشـيعية المتطرفـة. كمـا ينمـو لـدى هـؤلاء شـعور بالإهمـال عندمـا يقارنـون مسـتويات التنميـة والخدمـات العموميـة بمحافظاتهـم بمـا يتوفـر فـي المحافظـات الشـمالية والغربيـة.

وقبـل الانتقـال إلـى نقـاط القـوة، تجـدر الإشـارة إلـى أن تسـليط الضـوء علـى العيـوب هـو أكثـر نفعًـا للحـراك الاحتجاجـي مـن الإشـادة بالمزايـا، لأن الأولـى تـدل بشـكل غيـر مباشـر

على سبل المضي قُدُمًا. ورغم ما تسببه النقاط المذكورة آنفًا من قلق، فإن إبصار انبعاث الانتفاضة من المناطق ذات الغالبية الشيعية ضد النخبة السياسية الشيعية يمثل حجر زاوية لمجتمع متجاوز للطائفية التي طبعت عراق ما بعد 2003. إذ يعكس ذلك كيف يفصل الجيل الجديد من شيعة العراق نفسه بعنفوان عن الطبقة السياسية وعن الهيمنة الإيرانية بالوكالة. وهو ما يمثل خطوة في صالح الوحدة المتنوعة للعراق.

أدت التوترات في الشوارع بين المحتجين وعناصر الميليشيات وقوات الأمن إلى تجذر المطالب الرئيسة السابقة وتحولها من إصلاح النظام إلى تغييره[65]. لم يعد الناس يصدقون نفس الطبقة السياسية التي فشلت في تطوير أو إعادة بناء البنى التحتية للعراق، من تعليم وأمن ورعاية صحية واقتصاد. إذ لم يعد لهم ثقة لا في قدرتها على، ولا حتى نيتها، تغيير النظام السياسي الحالي الذي يلائم سياساتهم الطائفية[66]. عكس الحراك الاحتجاجي وعيًا حادًّا بين الشباب بأن المخرج الوحيد من هذا الواقع هو عبر التخلص من المؤسسات والقوانين والعوامل الحامية له. ومنها على سبيل الذكر مجلس النوّاب، المحاصَصة والجماعات المسلحة الموالية لإيران.

تشهد قوات الحشد الشعبي شرخًا متزايدًا بين الموالين لسليماني والموالين للسيستاني: بعزله للطرف الأول، يقوم الثاني بمحاولة رجعية للتوافق مع الحراك الاحتجاجي. يؤشر ذلك على الاتجاه التدريجي للأحزاب السياسية العراقية والمرجعية نحو التباعد مع دائرة نفوذ إيران كنتيجة بديهية للغضب الشعبي تجاه الطرف الأول.

في خضم انتشار وباء كوفيد 19، توجد فرصة للناشطين ولجان المحتجين للتعاون فيما بينهم، وتعديل أوتار أجنداتهم واستراتيجياتهم بين مختلف محافظات العراق. سيبين كذلك الانهيار الكارثي لأسعار النفط فشل الحكومة التي خلقت اقتصادًا ريعيًّا معتمدًا على النفط. غياب الاستثمار في موارد أخرى يبرر مجددًا إحباط الناس ومحاولتهم إصلاح هذا النظام الفاسد والمتهالك إداريًّا.

كلما طال أمد الاحتجاجات، كلما تأكد أنها ستفضي إلى تغيير اجتماعي حاسم.

65- Hannah, J., 2020. Iraq needs regime change again. Foreign Policy.

66- Aboulenein, A. and Rasheed, A., 2019. Iraqi protesters reject leadership changes, demand systemic overhaul.

الاستمراريّة الحالية للحراك بصدد تقوية المجتمع المدني. يتعاون الطلبة وأساتذتهم عبر الإضرابات في دعم الاحتجاجات، وتواصل نقابات المهندسين والأطباء والمحامين في مساندتها لهم عبر المشاركة في المظاهرات.[67]

ملاحظات ختامية

افتتح الحراك الاجتماعي، المنبعث من جديد في تشرين 2019، كتابة صفحة جديدة في التاريخ العراقي المعاصر. دخل عراق ما بعد 2003 حقبته الثانية، وفي ذلك خطوة فعلية لا مجرد انتقال ثقافي من سياسات الهوية إلى سياسات القضايا. وحتى التوترات الإيرانية الأمريكية تمثل دليلاً على قدرة الانتفاضة العراقية على مساءلة دورهم المتدخل في سياسات العراق واقتصاده. بعبارة أخرى، فإن انتفاضة الشباب العراقي هي التي قلبت المعادلة غير المُعلَنة المتفق عليها، وقادت إلى اغتيال الأمريكان لسليماني. والحراك الاحتجاجي العراقي هو الذي دفع الحكومة العراقية إلى أن تقدم مرة بعد أخرى خططًا جديدة لإعادة بناء البلاد. ولئن لم تحقق الانتفاضة الثورية أهدافها النهائية بعد، إلا أنها مهدت الطريق بلا رجعة لبلوغها عبر أفعال جسورة مثل كسر حاجز الخوف من الانتقاد العلني لإيران. وفي ظل تعطيل وباء كوفيد 19 وانهيار أسعار النفط لكل الأحداث، يجب على المحتجين استغلال الظرف لإرساء بديل واضح وتعددي يسمح باستيعاب كافة مكونات المجتمع والحراك.

ومثلما عرف العراق بعد 2003 وجهًا مُغايرًا، فإن هذا الحراك يمثل الحقبة الجديدة من هذا العراق المختلف. لن تستطيع الطبقة السياسية النجاة من الانتقال، إلا إذا وفرت بدائل دستورية واقتصادية للحراك الاحتجاجي المتنامي الذي غيَّر الخطاب السياسي.

67- The new Arab, 2019. More Iraqi students join anti-government protests despite deadly crackdownn

لا يبـدو أن هـذا الجيـل المتمـرد مسـتعد للاختفـاء قبـل أن يشـهد تغييـرات جذريـة تحـد مـن معـدلات البطالـة والطائفيـة والفسـاد وتهالـك الخدمـات العامـة والأنشـطة الميليشـيوية. ومثـل هـذه التغييـرات ليسـت محتملـة بالنسـبة للنظـام المركـب مـن الأحـزاب السياسـية الحاكمـة والميليشـيات فـي العـراق. وعليـه، يبـدو أن القضـاء المُبـرَم علـى الطبقـة السياسـية الحاليـة، ومعها البرلمـان ومنظومـة المحاصَصـة، سـيكون السـبيل الوحيـد لتحقيـق هـذه التغييـرات المنشـودة.



الطبيعة الثورية للانتفاضة اللبنانية

جاد صعب وجوي أيّوب

يونيو 2020

22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1943	لبنان يحصل على استقلاله من فرنسا
13 نيسان (أبريل) 1975	بداية الحرب الأهلية اللبنانية
26 آب (أغسطس) 1991	المصادقة على قانون عفو عام عن جرائم الحرب
14 شباط (فبراير) 2005	اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري
صيف 2015	احتجاجات بعنوان "طلعت ريحتكن" أول حشد كبير من "الحراك المدني " منذ نهاية الحرب الأهلية
6 أيار (مايو) 2018	أول انتخابات وطنية منذ 2009
17 تشرين الأوّل (أكتوبر) 2019	**الإعلان عن ضريبة "الواتس آب"، بداية الانتفاضة**
29 تشرين الأوّل (أكتوبر) 2019	أولى انتصارات الانتفاضة: استقالة رئيس الحكومة
1 تشرين الثاني (نوفمبر) 2019	إعلان البنوك عن فرض قيود غير رسمية على رؤوس الأموال
تشرين الثاني وكانون الأوّل (نوفمبر وديسمبر) 2019	انسحاب اثنان من مرشحي رئاسة الحكومة تحت ضغط الشارع
19 تشرين الثاني (نوفمبر) 2019	منع المحتجين للنواب من دخول البرلمان لتمرير قانون العفو
19 كانون الأول (ديسمبر) 2019	إعلان حسان دياب كرئيس وزراء
14 كانون الثاني (يناير) 2020	أسبوع الغضب
15 آذار (مارس) 2020	لبنان يدخل في حالة "إغلاق" بسبب كوفيد 19واستدعاء الجيش للمساعدة في فرض الإغلاق

1 أيار (مايو) 2020	توقيع مذكرة تفاهم للحصول على قرض من صندوق النقد الدولي بقيمة 10 مليار دولار أمريكي
27 أيّار (مايو) 2020	تجدد الاحتجاجات في طرابلس بالهجمات على البنوك الخاصة والبنك المركزي. الجيش يقتل أحد المتظاهرين



مقدمة

في الليلة الفاصلة بين 13 و14 تشرين الأول/ أكتوبر 2019 أتلفت النيران، خلال 48 ساعة، أجزاءً من لبنان وسوريا. خسر لبنان نحو ثلاثة ملايين شجرة، أي ما يقابل ضعف المعدل السنوي المعتاد لخسارة الأشجار. في 17 من أكتوبر اقترحت الحكومة، المُنْتَقَدَة بشدة لفشلها في احتواء النيران، قانونًا يفرض ضرائب على تطبيقات بروتوكول الصوت عبر الإنترنت (VOIP) مثل الواتس آب[1]. صيغت "ضريبة الواتس آب" المقترحة كمحاولة لجلب عائدات إضافية من أجل فك قيد ما يزيد عن 11 مليار دولار من "المساعدات" التي وُعِدتْ بها الحكومة في مؤتمر "سادِرْ" في باريس؛ وهو الرابع في سلسلة من المؤتمرات التي بدأت كذلك بباريس في 1 شباط/ فبراير 2001.

كان التباين في ردة فعل المواطنين والدولة (التي تدخلت بعد 48 ساعة) في مواجهة النيران مُذهلاً. إذ وقف المدنيون من شتى الخلفيات، بمن فيهم فلسطيني المخيمات، صفًّا واحدًا وحاولوا إخماد النيران. كذلك أرسلت الأردن وقبرص واليونان طائرات إغاثة، ولحسن الحظ أمطرت السماء. في نفس الوقت، ادعت نخب حكومية - مثل السياسي عن التيار الوطني الحر ماريو عون - بأن الحرائق أثرت فقط على المناطق المسيحية، متجاهلاً أن منطقة الشوف المتضررة بشكل كبير هي في الواقع منطقة ذات غالبية دُرزيَّة. حاول آخرون جعل اللاجئين السوريين كباش فداء مدعين أن بعضهم بدأوا الحرائق للانتقال إلى منازل لبنانية مهجورة.

أدت الخيبات المتتالية من العجز الحكومي إلى نزول الآلاف، ليلة 17 تشرين الأول، إلى الشوارع في مختلف أنحاء لبنان: بيروت وبعلبك وصور وصيدا والنبطية، وأماكن أُخرى فيما وُصِفَ باحتجاجات عفوية.

1- تُستخدم تطبيقات VOIP في لبنان للتحايل على تكاليف الهاتف المتضخمة التي تفرضها شركتا الاتصالات المملوكتان للدولة والبقاء على تواصل مع العائلة في الخارج.

بَـدَا أن مـا أُطلِـقَ عليهـا "ضريبـة الواتـس آب" مَثَّلـتْ القشَّـة التـي قصمـت ظهـر البعيـر. دفـع الاتسـاع السـريع للاحتجاجـات الحكومـة إلـى سـحب الضريبـة المُزمَعَـة علـى الفـور. أعقبـت هـذه الاحتجاجـات، التـي ستسـمى لاحقًـا بانتفاضـة أو ثـورة 17 تشـرين الأول/ أكتوبـر، سـنوات مـن التعبئـة مـن قِبَـلِ المتظاهريـن والناشـطين بلغـت ذروتهـا سـنة 2015 مـع حركـة "طلعِـت ريحتْكُـنْ"، وسـنة 2016 مـع الانتخابـات البلديـة وسـنة 2018 مـع الانتخابـات البرلمانيـة. سـاعد الفشـل السياسـي والاقتصـادي للسـنوات السـابقة لــ 17 تشـرين الأول/ أكتوبـر 2019 فـي تأجيـج الانتفاضـة وفـي انتشـار توجـه "الآن أو أبـدًا". مـع حلـول 18 تشـرين الأول/ أكتوبـر اشـتعلت أجـزاء مـن وسـط بيـروت وأُغلقـت المتاريـس والإطـارات المطاطيـة المشـتعلة عديـد المناطـق كُليًّـا.

منـذ انـدلاع الانتفاضـة، تدهـور الوضـع المالـي اللبنانـي بشـدة وزادت جائحـة كوفيـد 19 العالميـة الطيـن بلـة، لكـن صعوبـات لبنـان الماليـة لـم تبـدأ سـنة 2019. منـذ بدايـة انتفاضـات الشـرق الأوسـط وشـمال إفريقيـا سـنة 2011، شـهد لبنـان هـروب رؤوس الأمـوال الخليجيـة. كان لتفاقـم الأوضـاع فـي سـوريا أيضًـا عواقـب وخيمـة علـى البـلاد. تسـبب الفسـاد والديـن الوطنـي العـام (90% منهـا مُسـتحَقّة للبنـوك المحليـة والبنـك المركـزي) فـي سـحب الودائـع المصرفيـة وفـي نقـصٍ فـي الوقـود وفـي إضرابـات. ورغـم تركيـز العديـد مـن المنابـر الإعلاميـة، وحتـى بعـض المعلقيـن المحلييـن، علـى مـا عُـرِفَ بــ "ضريبـة الواتـس آب" إلا أن مـا ألهـم الغضـب الشـعبي كان فـي الواقـع مزيجًـا مـن كل هـذه العوامـل وكثيـر غيرهـا[2].

منـذ نهايـة الحـرب الأهليـة، أتقنـت طبقـة أمـراء الحـرب الأوليغارشـية العابـرة للقوميـات قواعـد اللعبـة. إذ كرسـت الدولـة اللبنانيـة أداة بيدهـا حتـى تقـوم بأعمالهـا التجاريـة فيمـا بينهـا ومـع نخـب الخليـج وإيـران والغـرب.

أبقَـت الشـبكات الزبونيـة علـى هيـاكل السـلطة، لنفعهـا لمصالـح هـذه الطبقـة ولمحافظتهـا علـى اعتمـاد أقسـامٍ مـن المجتمـع عليهـا. أُهمِلَـتْ البُنَـى التحتيـة العموميـة وتركـت للتلـف بينمـا تحـد الخصخصـة المتسـارعة مـن حريـة التنقـل بيـن المناطـق وتشـل بانتظـام كامـل البـلاد. يجـب أن تفهـم انتفاضـة 2019 كمسـار تعـافٍ مـن 15 سـنة مـن

2- Kaysi, I., 2019. We've reached the brink. Carnegie Middle East Centre

الحـرب الأهليـة وزهـاء ثلاثـة عقـودٍ تلتهـا مـن الإبحـار فـي خضـم حيـاة لا رأي يُذكـرُ لهـم فـي شـؤونها.

فـي هـذا الجـزء سـنُظهِرُ كيـف أن هـذه الانتفاضـة ليسـت عفويـة بالمـرة، إذ أخـذت الظـروف الاقتصاديـة وقـوى الانتفاضـة فـي الاعتمـال ضمـن مسـار بـدأ يتبلـور منـذ سـنة 2011. سـنوضح أيضًـا كيـف اشـتغلت الانتفاضـة نفسـها كعامـل محفـز لمقارعـة الأسـاطير المؤسسـة للأمـة ككل، فـي محاولـة لإفسـاح الطريـق والتقـدم إلـى الأمـام.

فـي الختـام، سـندافع عـن فكـرة أن المقاومـة اللامركزيـة المسـتدامة هـي أنسـب طريقـة للمنـاورة حـول المخاطـر التـي تبرزهـا هـذه الانتفاضـة.

الطائفية والحرب الأهلية والأساطير المؤسسة للبنان:

مثـل أي وطـن آخـر، يملـك لبنـان أسـاطيره المؤسسـة التـي تسـاهم فـي تبريـر وجـود الطبقـة الحاكمـة. تسـاعد هـذه الأسـاطير علـى إخفـاء العلاقـات الماديـة والديناميكيـات التـي تُعيـد إنتـاج الطبقـة الحاكمـة، وبالتالـي هـي تخـدم وظيفـة أيديولوجيـة مهمـة. أهـم هـذه الأسـاطير هـي ظهـور "لبنـان الحديـث" والميثـاق الوطنـي. تزعـم الأسـطورة أن الميثـاق الوطنـي هـو اسـتنباط لبنانـي سـاعد البـلاد علـى نيـل اسـتقلالها مـن المحتل الفرنسـي فـي 22 نوفمبـر 1943. كان الميثاق الوطنـي "اتفـاق نبـلاء" قُسِّـمَتْ بموجبـه مقاعـد البرلمـان ووُزِّعَـتْ الـوزارات الرئيسـة للحكومـة علـى أسـاس طائفـي. بُنِـيَ الاتفـاق علـى الإحصـاء السـكاني لسـنة 1932، وهـو آخـر إحصـاء تـم إجـراؤه. قُسِّـمَتْ مقاعـد البرلمـان بيـن المسـيحيين والمسـلمين علـى أسـاس نسـبة 6/5 مُمثـلاً بذلـك تنـوع الشـعب اللبنانـي العـام. يذهـب الاتفـاق إلـى أبعـد مـن ذلـك، إذ اُتفِـقَ مـن خلالـه علـى أن يكـون رئيـس الجمهوريـة وقائـد الجيـش مـن الطائفـة المسـيحية المارونيـة وأن يكـون رئيـس الـوزراء مُسـلمًا سُـنيًّا، أمَّـا رئيـس البرلمـان فمسـلم شـيعي.

لكـن لـم يكـن الاتفـاق الوطنـي أول اتفـاق "تـوازن قـوى". ظهـر الأول سـنة 1860 بعـد إنشـاء "مُتصرِّفيَّـة" جبـل لبنـان بهـدف إنهـاء الحـروب الطائفيـة التـي اندلعـت خـلال الحكـم العثمانـي لجبـل لبنـان خـلال أربعينـات وسـتينات القـرن التاسـع عشـر. أفضـل

وصف لتلك الحروب هو انتفاضات الفلاحين ضد الامتيازات الإقطاعية والتحول الاقتصادي نحو إنتاج المحاصيل النقدية. عكست تلك الحروب أيضًا صراعات بالوكالة بين الإمبراطوريات العثمانية والبريطانية والفرنسية. لوقف تلك النزاعات يحكم المتصرِّفيَّات مُتصرفٌ تُعيِّنُهُ الإمبراطورية العثمانية، ولكن بشرط أن توافق عليه القوى الاستعمارية الأخرى. يعاضد الحاكم اثنا عشر مستشارًا، اثنان عن كل جماعة دينية (الموارنة والدروز والسُنَّة والشيعة والروم الأرثوذوكس والملكانيين). نص دستور 1926 الذي سُنَّ تحت حكم الفرنسيين على الطائفية، كما صارت تُعرَّف لاحقًا، إذْ نَظَّرَ لِتوزيع متساوٍ لمقاعد البرلمان بين المسيحيين والمسلمين. ومع ذلك، كان القصد أن يكون حُكمًا مؤقتًا من خلال تذكير الدستور بأن القضاء على الطائفية هو "هدف وطني أساسي" للبنان. لم يكن الميثاق الوطني إذًا بأي شكل من الأشكال ابتكارًا لبنانيًّا أصليًّا ولا شرطًا مُسبقًا لاستقلال لبنان. في المقابل سمحت هذه الأساطير بحماية الموقع المتميز للعائلات الراسخة التي يمكن تتبع أصول نفوذها في بنى السلطة الإقطاعية والإدارية تحت الحكم العثماني. لقد حرص الميثاق الوطني على أن تستفيد تلك العائلات من تطوير القوى المنتجة للبنان في ظل الإمبريالية الفرنسية (الموانئ والمصارف والسكك الحديدية) بدل القوى الأجنبية.

سنة 1958، بلغت عدم فاعلية النظام الطائفي أبعادًا مفجعة. وفي ظلٍّ تنامي الشعور القومي العربي والحماسة الثورية العلمانية، اللذين تبعا انتصار الثورة العراقية ذلك العام، حدث تمرد في لبنان. قُمِعَ التَّمَرُّدُ عندما رفض العسكر بقيادة فؤاد شهاب أن يتنحى جانبًا. انتشر الجيش الأمريكي في لبنان بموجب عقيدة أيزنهاور واستجابةً لطلب رئيس الجمهورية آنذاك كميل شمعون، على خلفية اعتبار التمرد مدعومًا من الاتحاد السوفياتي عبر الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا). اُنتُخِبَ شهاب لاحقًا كرئيس لقدرته على التفاوض بين طرفي التمرد. شهدت رئاسة شهاب هدوءًا نسبيًّا. وعُرِفَتْ عُهدتُه الرئاسية ذات الست سنوات وعهدة خليفته/ الرئيس الذي أتى بعده، بـِ "الحقبة الشهابية" ووُصِفَتْ بالعصر الذهبي للبنان. تُحِيلُنَا فترة شهاب إلى الأسطورة المؤسسة الثانية وإلى تثبيت سُنَّةٍ خطيرة داخل السياسة اللبنانية: فتعيينه كرئيس فتح الباب لسابقة اعتبار القادة العسكريين مرشحين توافقيين بين الأطراف السياسية. وهي وضعية ستتكرر عديد المرات وستظهر الجيش عمومًا كـ

"قوة محايدة".

لكن الأهم من ذلك هو أسطورة "عصر لبنان الذهبي". رغم نجاح شهاب في تمرير عديد الإصلاحات المهمة خلال عهدته إلا أن استقرار لبنان كان قائمًا في الغالب على الاستعمال القاسي للقوات الأمنية. كما أسكت تدخل شهاب في التمرد أي حديثٍ عن تجاوز النظام الطائفي اللبناني. عنى إخماد التمرد دخول النظام الطائفي اللبناني حالة من الفعل ورد الفعل، كانت فيها السياسات الداخلية مُملاةً حسب موازين قوى الحرب الباردة وخاضعة لها. صار "العصر الذهبي" عُنصرًا أساسيًّا في النوستالجيا اللبنانيَّة. ارتبط وجوده بحضور "دولة قوية"، فأدى ذلك إلى وضع "نظرية الدولة الضعيفة" التي لا يمكن حل مشاكل لبنان إلا بتقوية مؤسساتها، وأن الأحزاب السياسية تضعف هذه الدولة. يتجاهل ذلك حقيقة أن وظيفة الدولة الطائفية قد صُمِّمَتْ على هذا النحو بهدف تمكين الطبقة السائدة من مراكمة رأس المال. يؤدي هذا التشخيص الخاطئ لوظيفة الدولة إلى تصنيم "دولة الغرب القوية" وأنظمة الخليج اللاديمقراطية، بما يحجب المسارات الخاصة بتلك البلدان في عملية تراكم رأس المال.

من سخرية القدر أن شهاب رفض أن يترشح للرئاسة مرة أخرى سنة 1970، بعد إنقاذه المزعوم للنظام الطائفي من خلال تدخله؛ إذ أعلن بنبرة درامية أن أهل البلاد لم يجْهَزوا بعد لبناء دولة وطنية حقيقية. رسخ بيانه أسطورة مسؤولية الشعب عن مخاطر قرارات النخبة الحاكمة. في الأخير وَلَّدَ النظام الطائفي حربًا أهلية محتومةً سنة 1975. شهد لبنان بعد حرب 67 العربية الإسرائيلية التي انتهت بنصر إسرائيلي حاسمٍ، سنوات من الاحتجاجات الحاشدة. إذ عرفت البلاد توترات كانت محاورها الوحدوية العربيِّة والمذهبية والمسألة الفلسطينية ووجود منظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف) في لبنان، والذي أضفى عليه اتفاق القاهرة[3] 1969 الشرعية، وقد أثبتت النزعة القومية اللبنانية عجزها عن التعامل مع هذه المسائل.

3-سمحت اتفاقية القاهرة لعام 1969 لمنظمة التحرير الفلسطينية وحركات التحرير الفلسطينية الأخرى بشن هجمات على إسرائيل من لبنان. تفاوض جمال عبد الناصر وياسر عرفات وقائد الجيش اللبناني العماد اميل البستاني بشأن الاتفاق، الذي دعمته معظم الأحزاب ذات التوجهات اليسارية في لبنان وكذلك الداعمين لأشكال مختلفة من القومية أو الوحدة السورية.

تحولـت الحـرب الأهليـة بسـرعة إلـى حـرب مذهبيـة مـع نشـوء أحـزاب سياسـية جديـدة قائمـة حصْرًا علـى الاتجاهـات الطائفيـة. فـي غضـون خمسـة عشـر عامًـا شـهدت البـلاد احتلاليـن: الإسـرائيلي مــن 1982 إلــى 2000 والسـوري مــن 1976 إلــى 2005. بــدأ كلاهمــا بنيــة تدميــر الفصائـل الفلسـطينيّة وحلفائهـا اليسـاريين والقوميين العـرب.

كمـا شـهد لبنـان مجـازر عديـدة كمجـزرة تـل الزعتـر والكرنتينـا والدامـور سـنة 1976 وصبـرا وشـتيلا سـنة 1982. حيـن انتهـت الحـرب قُـدِّرَ عـدد القتلـى بيـن 100.000 و150.000 وقُـدِّرَ عـدد المُهاجريـن بمليـون شـخصٍ كمـا هُجِّـرَ مئـات الآلاف، وإلـى اليـوم لا يـزال نحـو 15.000 شـخص رسـميًّا فـي عـداد "المفقوديـن".

الطّائف، العفو العام وعشرية "إعادة الإعمار" الطويلة (1990 - 2005)

حيـن انتهـاء الحـرب الأهليـة، اندفعـت القـوى المنضويـة تحـت "وصايـة" نظـام الأسـد لخلـق مـا يشـبه سياسـات تـروج لخطـاب مفـاده أن عقـد التسـعينات هـو عقـد إعـادة الإعمـار. فـي بيـروت، تضمـن ذلـك موجـات مـن الخصخصـة، وأبرزهـا فـي وسـط المدينـة التاريخـي (البلـد) الـذي تـم تحويلـه إلـى أيـدي شـركة سـوليدير، وهـي شـركة خاصـة أسسـتها عائلـة الحريـري واحتكـرت إعـادة الإعمـار. غُلِّفَـتْ هـذه "النيوليبراليـة القائمـة بالفعـل[4]" بالـكلام المعسـول واُسـتُخْدِمَ مُعْجَـم الأمَـل لتبريرهـا. تُنظِّـرُ هـذه السـردية لعـدم إمكانيـة إبعـاد شـبح الحـرب الأهليـة إلا عبـر العلاقـات التجاريـة. شـهدت التسـعينات صعـود نجـم رفيـق الحريـري، وهـو شـخصية غيـر معروفـة وقتئـذٍ. انتقـل الحريـري إلـى السـعودية فـي السـتينات وحقـق ثـروة مـن أعمـال البنـاء. أصبـح فيمـا بعـد مبعوثًـا سـعوديًّا للفصائـل اللبنانيـة المتحاربـة خـلال الحـرب الأهليـة، وتحـول بفضـل علاقاتـه مـع السـعودية، وكذلـك مـع نظـام الأسـد والغـرب، إلـى السياسـي السُـنّي الأبـرز فـي التسـعينات ورئيـس وزراء البـلاد حتـى اغتيالـه سـنة 2005 (مـع اسـتثناء قصيـر بيــن 1998 و2000) الـذي انجـر عـن مواقفـه المناهضـة المتزايـدة للأسـد.

Hadi, M., 2014. Actually existing neoliberalism: the reconstruction of downtown Beirut in-4 (post-civil war Lebanon. Diss. The London School of Economics and Political Science (LSE

أيـد الحريـري مـا أسـماه عـودة إلـى "لبنـان سـابق منفتـح وليبرالـي وذي مرونـة عاليـة"، معتقـدًا فـي تحولـه إلـى "اقتصـاد عتيـق متخلـف متقوقـع علـى نفسـه وذي بيروقراطيـة مفرطـة وقيـود شـديدة"[5]. مَثَّـلَ ترميـم هـذا الاقتصـاد أولويتـه، إلا أنـه بالرغـم مـن القنـاع الليبرالـي لخطابـه، فـإن سياسـاته "كانـت غيـر ليبراليـة بالمـرة"[6]. شـمل ذلـك علـى نحـو لافـت عمليـات نقـل حقـوق الملكيـة مـن المالكيـن السـابقين إلـى شـركته: سـوليدير، بترخيـص مـن الدولـة. بعبـارة أخـرى، كانـت تلـك الحكومـة نفسـها "غايـة فـي البيروقراطيـة" وضروريـة لمصلحـة الحريـري فـي "فتـح" البلـد و"السـوق".

مـن المهـم هنـا ملاحظـة الغرابـة التاريخيـة للمسـار الاقتصـادي اللبنانـي حتـى قبـل صعـود الحريـري. لقـد كان دقيقًـا فـي وصفـه لبعـض نواحـي مـا أشـار إليـه بالوضـع الاقتصـادي السـائد قبـل الحـرب. بالفعـل لقـد كان لبنـان الوحيـد، فـي العالـم النامـي[7]، الـذي اعتمـد علـى اقتصـاد "دعْـهُ يعمـل" فـي الفتـرة اللاحقـة للحـرب العالميـة الثانيـة، وهـو مـا فرقـه عـن الاقتصـادات الناميـة الأخـرى فـي منطقـة هيمـن فيهـا مـا سُـمِّيَ بــ "اشـتراكية الدولـة".

لكـن بحلـول التسـعينات، كان خطـاب الحريـري "متناغمًـا مـع روح العصـر النيوليبرالـي العالمـي"[8]، ومـن المفارقـات أن اقتصـاد مـا بعـد الحـرب كان أقـل ليبراليـة مـن اقتصـاد مـا قبـل الحـرب. فـي الواقـع، وعلـى حـد تعبيـر كريـم بقردونـي، فـي التسـعينات: "بـدأ لبنـان فـي التخلـي عـن نظامـه الليبرالـي حيـن خلـط أولئـك الذيـن فـي السـلطة بيـن القطاعيـن العـام والخـاص"، و"خصْخَصُـوا بعـض القطـاع العـام لخدمـة مصالحهـم الخاصـة"، كمـا "سـيطروا علـى القطـاع الخـاص مُحتكرينـه لأنفسـهم"[9]. فـي الحقيقـة هـذه هـي "إعـادة

5- Hariri, R.,1999. Statesmanship in Government: Emerging from War and Entering the Future, Beirut: Arab United Press. pp. 16-17

6- Bauman, H., 2016.Citizen Hariri: Lebanon's Neoliberal Reconstruction, London: Hurst & Company. p. 5

7- Shehadi, N., 1987.The Idea of Lebanon: Economy and the State in the Cenacle Libanais 1946-1954, Oxford: Centre for Lebanese Studies. p.5

8- Bauman, p. 5

9- Pakradoumi, K., 1997.Arabising Lebanese Politics, Middle East International. pp. 21-22.

إعمار غير الليبرالية للحريري"[10].

لتحقيق إعادة الإعمار، ينبغي محو آثار الحرب الأهلية. سنة 1989 وَقَّعَتْ الفصائل المتحاربة الناجية اتفاق الطائف الذي أنهى رسميًّا الحرب. انتهت الحرب في الحقيقة سنة 1990 بعد أن نفى الجيش السوري ميشيل عون، الذي قاد حينها حكومة منافسة، فيما أُطْلِقَ عليه منذ ذلك الوقت مجزرة 13 تشرين الأول/ أكتوبر. بعد أقل من السنة، أي في 1991، أُصدِرَ قانون عفو عام صفح بموجبه عن جل الجرائم المرتكبة خلال الحرب، مقوضين بذلك أي مسار للمصالحة الحقيقية ومُضْفِين شرعية على المناطق الجغرافية الطائفية الجديدة (كنتونات) وهياكل السلطة المنبثقة عن الحرب. استثنى الاتفاق الداعي لنزع سلاح المليشيات حزب الله، الذي احتكر دور المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي. كان حزب الله المفضل عند النظام السوري وإيران؛ وقد أمَّنَ احتكاره "للمقاومة" عبر سلسلة من الاغتيالات المُستهدِفة لشخصيات المقاومة اليسارية، التي قادت مقاومة شعبية علمانية مسلحة ضد الإسرائيليين، خلال ثمانينات القرن المنصرم. شهدت التسعينات أيضًا اندماج حزب الله التدريجي في نموذج الحوكمة اللبناني متحوِّلًا من مُنظمة ثورية إسلامية (في الثمانينات) إلى مُنظّمةٍ براجماتية (شرع حزب الله خلال التسعينيات في المشاركة في البرلمان) إلى القوة السياسية المسيطرة في البلاد (منذ 2008 إلى الآن).

علاوة على ذلك، ورغم ما نص عليه اتفاق الطائف من إنهاء النظام الطائفي وتشريع قوانين تُعبِّدُ الطريق لفترة انتقالية، إلا أنه لم يتم الاتفاق على إطار زمني محدد لذلك. وهكذا، حصل النظام الطائفي على فرصة حياة جديدة ولم يمرر أي قانون هادف لتمهيد طريق الخروج من هذا النظام. عزز الحفاظ على النظام الطائفي وزواج القطاع العام بالقطاع الخاص تشبث أحزاب الحرب الأهلية بالسلطة. أصبح كل حزب بمثابة سفينة للمجموعة الطائفية التي يمثلها، فصارت هذه الأحزاب وحلفاؤها الأوليغارشيّون - ما نسميه طبقة أمراء الحرب الأوليغارشية المتعدية للجنسيات في لبنان - الأصوات المهيمنة على طوائفها. يُثري هؤلاء أنفسهم عبر الفساد والاختلاس،

Hourani, N., 2014.Aid and redevelopment: international finance and the reconstruction-10 of Beirut, in Daniel Bertrand Monk and Jacob Mundy (eds), The Post-Conflict Environment: .Investigation and Critique, Ann Arbor: University of Michigan Press. pp. 187-218

مُستغِلّين مواقعهم في الحكومة لمنح شركات مقاولاتهم الخاصة العقود أو لتوفير غطاء تشريعي لمشاريعهم غير القانونية. لقد ضمنوا لأنفسهم مواقع في مجالس إدارات البنوك ثم اشتروا ديون الحكومة عبر سندات ذات فوائض باهظة.

احتاجت الطبقة الحاكمة، لإحكام السيطرة على السلطة والمضي قُدُمًا في مشروع إعادة البناء غير الليبرالي، إلى تدمير أي أسس للتصدي لها. وشمل ذلك الحركة النقابية وأعلى هيئاتها: الاتحاد العام للعمال اللبنانيين. إذ دفعت الحكومة نحو تقسيم الهيئة العليا وأعطت التراخيص لتصديع اتحادات العمال بهدف التأثير على الانتخابات وإلغاء النضال العمالي[(11)].

جـرَّدَتْ السياسات النيوليبرالية الضمان الاجتماعي من محتواه، فأصبحت بذلك الطبقة الحاكمة حارسة الرفاه المادي "لرعاياها"، وهو ما أدى إلى تعزز شخصية "المواطن النيوليبرالي" المحددة من خلال الزبونية (أو المحسوبية). وصار هذا "المواطن النيوليبرالي" يجد "الحلول" لمشاكله الشخصية الاقتصادية والاجتماعية عند قيادة طائفته/ حزبه (الزعيم). إذ يمكن مثلاً للباحثين عن عمل طلب مساعدة الزعيم الذي يمتلك القدرة على إيجاد وظيفة له في المؤسسات الحكومية، كما يمكن للمرضى أيضًا الحصول على الدواء والدخول إلى المستشفى بفضل الزعيم. هي حلقة مفرغة إذًا: كلما حُجِبَتْ التمويلات اللازمة عن الخدمات الحكومية كلما زاد اعتماد الأفراد على المحسوبية.

تتواجد الزبونية، من خلال شبكة واسعة من مُفَضَّلي الأحزاب، في كل المستويات الحكومية. موظفون بإمكانهم عبر رشوة صغيرة تعجيل استخراج رخصة سياقتك. ويمكن لأصحاب المناصب البلدية، مقابل مساهمة صغيرة، الموافقة على تصاريح البناء الخاصة بك. كذلك مراقبو المدرسة الرسميون الذين، مع قليل من التملق، سيضمنون نجاح طفلك في الامتحانات الرسمية. من المهم إذًا أن نفهم دور المحسوبية في سياق الانتفاضة الأخيرة. إذ تمثل التكريس الأيديولوجي للطائفية من خلال البنية الفوقية للدولة. تعني الطائفية المؤسسية عدم وجود قانون "مدني" مشترك في

11- Khater, L.B., 2015. Public sector mobilisation despite a dormant workers' movement. Confluences Méditerranée, (1), pp.125 -142.

لبنان. لا يمكن لمواطنين من ديانات مختلفة أن يتزوجوا قانونيًّا (باستثناء حالات تغيير الديانة) ولكن يتم الاعتراف بزواجهما إذا عقد قرانهما في الخارج. الأحوال الشخصية مثل الطلاق والوفيات والدفن، يُتَعَامَلُ معها من خلال المحاكم الدينية، التي تمولها الدولة إلى جانب الممثلين الدينيين الرسميين.

تسجل ديانات كل المواطنين في السجل المدني، وكانت في السابق تكتب على بطاقات التعريف الوطنية التي كانت تستعمل للتعرف على المدنيين وإعدامهم "على الهوية" عند نقاط التفتيش التابعة للميليشيات أثناء الحرب الأهلية. تفاقمت هذه الطائفية الشخصية بسبب عدم إرساء مصالحة بعد الحرب الأهلية والخوف الدائم من عودتها، وهو تكتيك تستخدمه بمهارة الطبقة الحاكمة لقمع الهواجس المشروعة للناس عبر تصويرهم لبعضهم البعض كتهديد للسلم الأهلي.

وعلى هذا النحو يتم إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية الطائفية عبر الأجيال في حين لا يُدَرَّسُ التاريخ الدموي للبنان، جراء عجز الطبقة الحاكمة عن الاتفاق حول منهج تاريخ موحد، ما يجعل هذا التاريخ رهين التأويلات المأساوية أو الرومانسية. وبذلك يستحيل الهروب من التفكير الطائفي، حتى بالنسبة للعلمانيين الراسخين، مما يجعل العبارة اللبنانية الاعتذارية الشائعة "أنا مش طائفي، بس البلد هيك" من البديهيات.

تشكيل ثنائية 8 آذار/ 14 آذار (2005-2011):

شهد عام 2005، قطعًا لـ "طريق البلاد نحو التعافي". إذ قتل انفجار كبير، صبيحة 14 فبراير 2005، رفيق الحريري و21 مدنيًّا في بيروت. ازدادت معارضة الحريري علانية لوجود نظام الأسد في البلاد، خاصة منذ تمديد ولاية إميل لحود، الرئيس اللبناني المؤيد للأسد، حتى عام 2007. وهو تمديد لم يكن ممكنًا لولا الضغط السوري على البرلمان. أدى ذلك إلى اعتقاد واسع بأن نظام الأسد هو الذي يقف وراء اغتيال الحريري، وعلى الأرجح بعلم من حزب الله، وربما بمشاركته أيضًا.

دشن اغتيال الحريري سلسلة من الاغتيالات المستهدفة لشخصيات معارضة للأسد

مثـل سـمير قصيـر وجـورج حـاوي اليسـاريين البارزيـن مـن حركـة اليسـار الديمقراطـي (كان قصيـر صحفيًـا ومؤرخًـا بينمـا كان حـاوي أميـن عـام الحـزب الشـيوعي اللبنانـي قبـل انضمامـه إلـى حركـة اليسـار الديمقراطـي)، وكذلـك جبـران توينـي، الصحفـي البـارز فـي صحيفـة النهـار، وكثيـرون غيرهـم.

مـن بيـن القتلـى شـخصيات يسـارية ويمينيـة علـى حـد سـواء. الرابـط المشـترك الوحيـد بيـن هـؤلاء هـو معارضتهـم للنظـام السـوري. اسـتمر ذلـك خـلال مـا يسـمى بالربيـع العربـي، وكمثـال اغتيـال الدبلوماسـي المناهـض للأسـد محمـد شـطح فـي ديسـمبر 2013. كان الحضـور العسـكري السـوري فـي لبنـان علـى أرض الواقـع احتـلالًا رغـم شـرعَنته عبـر اتفـاق الطائـف. مـارس المحتلون سـيطرة شـبه كليـة علـى الحيـاة السياسـية اللبنانيـة وقمعـوا أي معارضـة لحكمهـم. خـلال أقـل مـن شـهر مـن تاريـخ اغتيـال الحريـري، ومـع اكتسـاب المشـاعر المعاديـة للأسـد زخمًـا، نظـم حـزب اللـه مظاهـرة ضخمـة داعمـة لنظـام الأسـد فـي الثامـن مـن آذار. أرسـل حـزب اللـه بذلـك رسـالة مفادهـا أن لـه خطوطًـا حمـراء لا يسـمح بتجاوزهـا مثـل قضيـة السـلاح. أدى هـذا إلـى تنظيـم جـل الأحـزاب السياسـية ومسـتقلون مظاهـرةً مضـادة فـي الرابـع عشـر مـن آذار سُـمِّيَتْ بثـورة الأرْز. نجحـت هـذه الأخيـرة، بدعـم سياسـيٍّ دُوَلِـيٍّ، فـي إخـراج النظـام السـوري مـن لبنـان. وُلِـدَ بعـد هاتيـن المظاهرتيـن حلفـان سُـمِّيَا بتاريخيهمـا: حلـف 8 آذار وحلـف 14 آذار. قدمـت مكونـات معسـكر الرابـع عشـر مـن آذار نفسـها كمصطفـة إلـى جانـب رئيـس الـوزراء المغتـال رفيـق الحريـري وحاملـة لمشـعل "الحريريـة"، وكسـاعية إلـى إرسـاء مؤسسـات دولـة قويـة وإلـى تحقيـق العدالـة لمقتـل رئيـس الـوزراء عبـر محكمـة الجنايـات الدوليـة. ضـم التحالـف تيـار المسـتقبل، الـذي أسسـه ابـن رئيـس الـوزراء المغتـال، والحـزب الاشـتراكي التقدمـي بقيـادة وليـد جنبـلاط، الـذي قتـل النظـام السـوري والـده خـلال الحـرب الأهليـة.

شـمل التحالـف كذلـك القـوات اللبنانيـة برئاسـة سـمير جعجـع، الـذي كان مسـجونًا حينهـا لـدوره خـلال الحـرب الأهلية[12].عندمـا تمكـن حلـف 14 آذار مـن الحصـول علـى أغلبيـة تحـت قبـة البرلمـان، أصـدر عفـوًا عـن جعجـع المحكـوم بالسـجن مـدى الحيـاة، بعـد أن قضـى 11 سـنة فـي حبـس انفـرادي.

12- تم العفو عنه في البداية مع جميع قادة الحرب الأهلية الآخرين بموجب اتفاق الطائف ثم حوكم جعجع وأُدين في عام 1994 لمحاولته اغتيال وزير الدفاع.

بالمقابل، تشكل تحالف الثامن من آذار من أحزاب مُقربة إلى سوريا كحزب الله وحركة أمل، التي يرأس زعيمها نبيه بري البرلمان اللبناني منذ سنة 1992 إلى غاية هذه اللحظة. بعد أقل من سنة، في السادس من فبراير 2006، انضم التيار الوطني الحر، أحد مؤسسي تحالف 14 آذار، إلى معسكر 8 آذار بعد توقيع مذكرة تفاهم مع حزب الله. مثلما ذكرنا سابقًا نُفِيَ رئيس التيار الوطني الحر ميشال عون سنة 1990 بسبب نظام الأسد ثم مكنته ثورة الأرز من العودة. رغم ذلك، اعتبر التيار الوطني الحر أنه قد أتم مهمته بانسحاب الجيش السوري من لبنان في تبريره لمذكرة التفاهم مع حزب الله.

اختارت الأحزاب السياسية المسيطرة على تحالف 14 آذار تهميش الحركات المستقلة الصغيرة داخل مختلف الطوائف، مفضلة إدارة علاقة ثنائية بين حلفي الثامن والرابع عشر. بذلك ساهمت تلك الأحزاب في تطوير ثنائية متعادية قمعت أي إمكانية لأن تفتح ثورة الأرز المجال أمام رُؤًى أحدث وأكثر تبصرًا وراديكالية للمستقبل. كان لهذا أثر جانبي ملحوظ في توفير غطاء لميشال عون؛ ليلعب دور الضحية داخل معسكر 14 آذار، مما "اضطره" إلى التفاهم مع حزب الله. أعطى التيار الوطني الحر بانضمامه إلى 8 آذار شرعية لم يكن التحالف يكتسبها من قبل. إذ صار بإمكان هذا الحلف أن يزعم أنه أكثر شمولاً للطوائف المختلفة (وقد كان يهيمن عليه في السابق بشكل حصري تقريبًا الجماعتين الشيعيتين حركة أمل، وخاصة حزب الله)[13].

بُعيد شهور، في يوليو 2006 اندلعت الحرب بين حزب الله وإسرائيل. نتج عن هذه الحرب علاوة على الدمار وجرائم الحرب التي ارتكبتها إسرائيل، ارتفاعًا غير مسبوق في شعبية حزب الله ورضا عامًّا عنه في مختلف أنحاء المنطقة. ذلك أن "انتصار" حزب الله ضد إسرائيل كان الأول من نوعه في العالم العربي منذ تأسيس إسرائيل في عام 1948.

13- Majed, Z., 2020. The Legacy of Samir Kasir 15 Years On. Interviewed by Joey Ayoub (Podcast) The Fire These Times, June 2, 2020

لـم يـدم "شـهر العسـل" بالنسـبة لحـزب اللـه أكثـر مـن سـنتين، أي حتـى نـزاع مايـو 2008. بعـد تهديـدات مـن الحكومـة اللبنانيـة، التـي كانـت تسـيطر عليهـا آنـذاك قـوى 14 آذار، بتفكيـك شـبكة الاتصـالات اللاسـلكية لحـزب اللـه، سـيطر الأخيـر بسـرعة علـى أجـزاء كبيـرة مـن بيـروت ونجـح فـي الدفـاع عـن شـبكته بالقـوة. بذلـك خـرج الحـزب مـن منطقتـه المريحـة النسـبية لأول مـرة منـذ الحـرب الأهليـة، وأظهـر قوتـه الكاملـة ضـد مجموعـات لبنانيـة لا ضـد إسـرائيل.

بغـض النظـر عمـا وُجِدَ مـن آمـال بالتجديـد السياسـي فـي لبنـان عـام 2005، اتضـح بسـرعة أن النجـاح الرئيـس لثـورة الأرز كان إضفـاء الشـرعية علـى مشـاركة جميـع أحـزاب الحـرب الأهليـة فـي السـاحة السياسـية للبنـان مـا بعـد الحـرب، وإن كان ذلـك عبـر اتجاهـات معارضـة مختلفـة.

تجنب لبنان للربيع العربي ورص الصفوف (2011 - 2019):

علـى الرغـم مـن أن لبنـان قـد شـهد بعـض الاحتجاجـات المحـدودة سـنة 2011 واسـتفاقة وجيـزة للحركـة العماليـة، إلا أنـه لـم يتبـع مسـار جيرانـه فـي المنطقـة. يُفَسَّـرُ هـذا الاسـتثناء النسـبي بالسـنوات المضطربـة التـي سـبقت عـام 2011 وبحقيقـة أن لبنـان، وعلـى عكـس بقيـة البلـدان ذات الغالبيـة العربيـة، لـم يكـن لديـه زعيـم واحـد فقـط ليطيـح بـه.

بعـد الانتخابـات البرلمانيـة لسـنة 2009، حيـن فـاز تحالـف 8 آذار بالأغلبيـة، خفتـت التوتـرات بيـن الائتلافيـن حـد الذوبـان. جزئيًـا بسـبب تخفيـف ائتـلاف 14 آذار مـن تطلعاتـه، ولكـن أيضًـا بسـبب عديـد مـن الأزمـات السياسـية، بمـا فيهـا الإخفاقـات المتتاليـة فـي تشـكيل فريـق حكومـي، ووضـع قانـون انتخابـي جديـد.[14]

14-في لبنان، يتم تشكيل الحكومة بعد الاتفاق على رئيس الوزراء وتعيين أصحاب الحقائب الوزارية. ينتج عن هذا عادة فترات طويلة من "المساومة" بين الأطراف حتى يتم التوصل إلى توزيع المقاعد المقبولة للجميع. في عام 2009، استغرق الأمر خمسة أشهر. وانهارت الحكومة في عام 2011 بعد أن انقضت خمسة أشهر أخرى من المساومة لتسقط الحكومة مرة أخرى في عام 2013. بعدها شُكِّلت حكومة جديدة في أسبوعين بشكل قياسي.

أحدثـت هـذه الخلافـات السياسـية عـدة تحـولات فـي التحالفـات الحزبيـة. مـع عـدم وجـود قانـون انتخابـي جديـد، صـوت النـواب بشـكل غيـر دسـتوري لتمديـد فتـرات ولايتهـم البرلمانيـة فـي عـام 2013 لمـدة 17 شـهرًا، وفـي 2014 لمـدة 31 شـهرًا، ومـرّة أخـرى فـي 2017 لمـدة 11 شـهرًا إلـى أن أُجْرِيَـتْ الانتخابـات أخيـرًا بموجـب قانـون انتخابـي جديـد فـي 2018. كذلـك بُـرِّرَتْ هـذه التمديـدات بالإبقـاء علـى الرئيـس اللبنانـي، الـذي انتهـت ولايتـه فـي مايـو 2014، ولـم يُسـتبدَلْ برئيـس جديـد. بمـوازاة هـذه التمديـدات، كانـت الأحـداث الجاريـة بسـوريا المجـاورة تُسـتَعْمَلُ كذريعـة مـن السياسـيين اللبنانييـن لتبريـر بقائهـم فـي السـلطة. ولكـن لـم يسـيطر أحـد علـى هـذه الأحـداث كمـا فعـل حـزب اللـه الـذي تدخـل عسـكريًّا فـي سـوريا بدايـة سـنة 2012 لدعـم محتَـل لبنـان السـابق: نظـام الأسـد.

لـم يُؤكّـد حـزب اللـه تدخلـه فـي سـوريا إلا سـنة 2013 حيـن لـم يعـد ممكنًـا إخفـاء الأمـر بعـد المعركـة التـي خاضهـا فـي مدينـة القصيْـر علـى الحـدود السـورية ضـد الجيـش السـوري الحر (ج. س. ح). منـذ ذلـك الوقـت والحـزب يتحـدث علانيـة عـن دعمـه لنظـام الأسـد، وهـو يعتبـر اليـوم مـن الأسـباب الرئيسـة، جنبًـا إلـى جنـب مـع دور روسـيا وإيـران، لاسـتمرار بقـاء نظـام الأسـد.

أثَّـرَتْ الحـرب السـورية سـلبًا علـى الاقتصـاد اللبنانـي، إذ تراجعـت نسـبة النمـو مـن معـدل 5.7% بيـن 1995 و2011 إلـى 1.7% بيـن 2011 و2019 [15]. مـر لبنـان سـنة 2015 "بأزمـة نفايـات" عندمـا انتهـى إيجـار الحكومـة لأكبـر مصـب نفايـات فـي لبنـان. أدت الأزمـة إلـى تراكـم النفايـات فـي شـوارع بيـروت وجبـل لبنـان مـع اسـتخدام الحكومـة الطرقـات السـريعة كمصبـات مؤقتـة. كان لأزمـة القمامـة تأثيـرات لا تُحْصَـى ولا تُعَـدُّ.

أشـعلت أزمـة النفايـات شـرارة إحـدى أولـى الاحتجاجـات التـي قادتهـا مجموعـة تُدعَـى بــ "طِلْعِـتْ ريحِتْكُـنْ". نجـح المحتجـون فـي تنظيـم العديـد مـن التحـركات فـي العاصمـة، بمـا فـي ذلـك بعـض الاعتصامـات بمبانـي حكوميـة ومظاهـرات ذات مشـاركة جيـدة. انضمـت إلـى الحركـة مجموعـات أخـرى ذات مطالـب مختلفـة، منهـا: حـزم أكبـر فـي محاسـبة أعضـاء الحكومـة وإعـادة تأميـم الفضـاءات العامـة التـي اشـترتها شـركة

15- Diwan, I., 2020. Why Lebanon's Debt Problem Is Super Hard to Sort Out. Lebanese Center for Policy Studies

”سوليدار“. رغم المشاركة واسعة النطاق، تركزت الأنشطة في العاصمة بيروت.

لم تستطع حركة ”طلعت ريحتكن“ تجاوز تناقضاتها الداخلية وتم قمعها في النهاية. إلا أنها ولدت خطًّا سياسيًّا جديدًا في لبنان. بُعيد ذلك بدأت الحملات الانتخابية لبلديّات 2016 ثم لاحقًا الانتخابات الوطنية في 2018 مع أحزاب سياسية جديدة وحركات قيد التشكل. رغم اختلاف أهداف وسياسات هذه الحركات الجديدة إلا أن رفضها لأحزاب ”الحرس القديم“ قد وَحَّدَهَا.

ترشحت هذه الحركات المختلفة على قوائم انتخابية متشابهة خلال انتخابات 2018، وأصبحت تُعرَف باسم ”الحراك المدني“، وهي عبارة فضفاضة تشير إلى مختلف المجموعات الاجتماعية الإصلاحية والأحزاب والمنظمات غير الحكومية التي كانت تتموقع ضد الطبقة الحاكمة.

ردت الطبقة الحاكمة على هذا التهديد الجديد برص صفوفها. تقدمت أحزاب متضادة سابقًا في قوائم انتخابية مختلطة، متعاونة على سحق ”الحراك المدني“ النامي. وقد نجحوا في ذلك. إذ تحصل ”الحراك المدني على مقعد برلماني واحد في عملية انتخابية شابها أكثر من 3600 خرق انتخابي خطير[16].

بعد هزيمة الحركة المدنية، أثبتت أحزاب الثامن والرابع عشر من آذار، دون أدنى شك، أن الفساد العميق في السياسة اللبنانية لم يكن نتيجة لهذا الحزب أو ذاك بل هو متأصل في النظام، وعززته الأحزاب الحالية التي شكلت الطبقة الحاكمة.

رغم أن مظاهرات 2015 حول أزمة النفايات، والتحركات الانتخابية خلال سنتي 2016 و2018 كانت لحظات فاصلة، إلا أنها لم تكن التحركات الوحيدة. إذ شهدت سنة 2015 زيادة كبيرة للتحركات الاجتماعية حول القضايا الاجتماعية/ الاقتصادية والشُغليَّة والسياسية، فسُجِّلَ عامها 324 تحركًا جماعيًّا. 468 سنة 2016 و419 سنة 2017 و188 في 2018 حيث حلت الحملات الانتخابية مكان أشكال أخرى من

Lebanese Association for Democratic Elections. 2018. Observation Mission of 2018-16 Parliamentary Elections

الفعــل الجماعــي. شــهدت ســنة 2019 تنظيــم 200 تحــرك قبــل تشــرين الأول/ 17 أكتوبــر - وهــو مؤشــر واضــح علــى الاســتياء المتزايــد[17].

انتفاضة وسط انهيار:

بغـض النظـر عـن التحالـف الـذي يصـل سـدة الحكـم، ظلـت "الاسـتراتيجية" الماليـة فـي لبنـان واحـدة لا تتغيـر: الاقتـراض والتقشـف والفسـاد. لـم تكـن سـنة 2019 مختلفـة. إذ أقـر لبنـان ميزانيـة تقشـفية أخـرى بشـهر يوليـو فـي محاولـة للحصـول علـى قـروض ومنـح قيمتهـا 11.6 مليـار دولار أمريكـي، كان وُعِـدَ بهـا فـي مؤتمـر "سـادر" بباريـس قبـل سـنة.

بعـد فتـرة قصيـرة مـن تمريـر الميزانيـة والكشـف عـن حجـم مـا لحقهـا مـن اقتطاعـات، انطلقـت الاحتجاجـات والإضرابـات فـي مختلـف أنحـاء البـلاد. أطلـق العسـكريون المتقاعـدون، الذيـن جُـزَّتْ معاشـاتهم، شـرارة الاحتجاجـات. شـن المدرسـون فـي الجامعـة اللبنانيـة -الجامعـة الوطنيـة والعموميّـة الوحيـدة فـي البـلاد -إضرابًـا للتصـدي لظـروف العمـل متزايـدة الهشاشـة وضـد تجميـد الانتـداب الوظيفـي.

أثـر تجميـد الحكومـة للانتـداب علـى القطـاع العـام ككل. طبعًـا لـم ينطبـق هـذا التجميـد إلا علـى العامليـن اللبنانييـن العادييـن. فقـد واصلـت الحكومـة التوظيـف مـن خـلال عقـود الاستشـارات الخاصـة التـي تكـرس الـدورة العاديـة لعلاقـات المحسـوبية بيـن الدولـة والمصالـح الخاصـة. المُختَلِـفُ هـذه المـرة، عـلاوة علـى ميزانيـة التقشـف، كان تضـاؤل الاحتياطـات النقديـة. إذ طالمـا ارتبطـت عُملـة لبنـان النقديـة (الليـرة اللبنانيـة) بالـدولار الأمريكـي بسـعر صـرفٍ يُـراوح 1.507 ليـرة للـدولار الواحـد منـذ 1997. وتعتمـد البـلاد علـى الـدولار لتوريـد معظـم البضائـع الاسـتهلاكية والسـلع الأساسـية كالقمـح والمحروقـات.

ويُحَافَـظ علـى هـذا الربـط مـن خـلال احتياطيـات العملـة التـي يحتفـظ بهـا البنـك المركـزي. ولقـد تقلـص حجـم هـذه الاحتياطيـات بسـبب مزيـج مـن العجـز فـي الصـادرات

See the Civil Society for Knowledge Center's Conflict Analysis Project-17

وهروب الأموال الخليجية ومواصلة تسديد الديون[18].

أدى هـذا النقـص فـي السـيولة بالـدولار الأمريكـي إلـى امتنـاع البنـوك المحليـة عـن الدفـع بـه لعملائهـا. إضافـة إلـى أن معظـم المؤسسـات فـي لبنـان تطلـب أن يُدفَـع لهـا بالـدولار الأمريكـي باعتبـاره عملـة أقـوى وأكثـر اسـتقرارًا، ممـا أفضـى إلـى طلـبٍ يفـوق العـرض بكثيـر وظهـور سـوقٍ سـوداء للـدولار الأمريكـي. نتـج عـن ذلـك أيضًـا إضرابـات أصحـاب محطـات الوقـود واتسـاع المخـاوف مـن انهيـار وتهـاوي قيمـة الليـرة اللبنانيـة.

أكـدت الـوكالات الماليـة الدوليـة هـذه المخـاوف عبـر تخفيضهـا المتتالـي لترتيـب لبنـان. إذ حصلـت البـلاد علـى المرتبـة الثالثـة عالميًّـا فيمـا يتعلـق بنسـبة الديـن إلـى الناتـج المحلـي الإجمالـي، بسـبب مـا راكمتـه مـن ديـون لإعـادة الإعمـار، بعـد الحـرب الأهليـة وبعـد حـرب 2006 مـع إسـرائيل. بلغـت "اسـتراتيجية" لبنـان نهايـة "المـدرج" دون أن تنجـح فـي الإقـلاع.

رسـم هـذا الخليـط مـن الظـروف الاقتصاديـة والقـوى السياسـية خطـوط الصـدع فـي 17 تشـرين الأول/ أكتوبـر. خـرج النـاس إلـى الشـوارع مظهريـن تضامنًـا لـم يسـبق لـه مثيـل. لـم تقتصـر الاحتجاجـات والمُطالبـات بفضـاء عـام علـى العاصمـة بيـروت، بـل شـملت جميـع المـدن الرئيسـة: السـاحلية الكبيـرة والداخليـة الصغيـرة. امتـدت تركيبـة المشـاركين إلـى مـا أبعـد بكثيـر مـن تركيبـة الحـركات السـابقة، المثقفـون والطبقـة الوسـطى، كمـا تجـاوزت أيضًـا خطـوط التقسـيمات الدينيـة[19].

حَيَّـتْ المـدن بعضهـا البعـض فـي حـدَثٍ فريـد مـن نوعـه ومُلْهـم نظـرًا لانضبـاط التقسـيم الجغرافـي للبنـان إلـى خطـوط الانتمـاء الطائفـي. لذلـك لا تعتبـر تّحيـة كهـذه لفتـة مـودة عابـرة للحـدود الجغرافيـة فحسـب، بـل وكذلـك الطائفيـة. حاولـت الأحـزاب السياسـية الراسـخة تخريـب الاحتجاجـات. دعـا كل زعيـم مؤيديـه للمشـاركة، بينمـا وفـي نفـس الوقـت اتهـم الأحـزاب الأخـرى بعـدم الفاعليـة وعـدم الرغبـة فـي التعـاون. رد المحتجـون بعـرضٍ مبهـر للديمقراطيـة الشـعبية. إذ منعـوا علـى الفـور رفـع أعـلام أي حـزب سياسـي، بـل

18- The Economist. 2019. Broke in Beirut

19- Khater, L.B, and Majed, R., (working paper) Lebanon's 2019 October Revolution: Who Mobilized and Why?.The Asfari Institute for Civil Society and Citizenship

وطـردوا حتـى عديـد السياسـيين وشـخصيات إعلاميـة معروفـة ذات انتمـاءات حزبيـة مـن الفضـاءات التـي اسـترجعوها.

بناء الهيمنة المضادة في الساحات:

بـدأ الحـراك بفعـل احتجاجـي عـادي: غلـق الطرقـات عبـر حـرق الإطـارات المطاطيـة. طريقـة تعتبـر عـادة غيـر مشـروعة وتسـتعملها الطبقـات الدنيـا لإسـماع مشـاغلها، لكنهـا نفعـت هـذه المـرة كنداء واضـح للتعبئـة الشـاملة فـي كافـة أنحـاء البـلاد.

الأمـر الأكثـر إثـارة للدهشـة كان مشـاركة مناطـق مـن المفتـرض أنهـا خاضعـة لنفـوذ حـزب اللـه وحليفتـه حركـة أمـل. اندلعـت الاحتجاجـات حتـى هنـاك، كمـا أزيلـت رمـوز الأحـزاب مـن أعـلام وأقـواس تسـتعملها عـادة لتحديـد مناطـق سـيطرتها. تـم أيضًـا نهـب مقـار أحـزاب عديـدة. بـدأ الضعـف يعتـري هيمنـة الأحـزاب التـي ضمنـت لهـا مناطـق نفـوذ خاصـة بهـا.

فـي اليـوم الموالـي لهـذه التحـركات الأوليـة ظهـر رئيـس الـوزراء سـعد الحريـري فـي خطـاب تلفزيونـي زاعمًـا أنـه قـد سـمع النـاس. طلـب مـن كل الأحـزاب السياسـية أن تجتمـع لتجـد حَـلاً للأزمـة. أعطـى الحريـري، فـي شـكل إنـذار، مهلـة 72 سـاعة لتحقيـق طلبـه. أنجـز بخطابـه أمريـن:

أولًا، كانـت محاولـة منـه لتحصيـن رئاسـة الحكومـة مـن الاحتجاجـات وإلقـاء اللـوم علـى الأحـزاب الأخـرى. ثانيًـا، مَثَّـلَ ذلـك تحذيـرًا لتلـك الأحـزاب، ورسـالة مشـفرة مفادهـا أنـه بشـخصه يمثـل الشـيء الوحيـد الـذي يحافـظ علـى وحـدة البـلاد.

ثبـت أن مهلـة الـ 72 سـاعة كانـت ثمينـة للغايـة بالنسـبة للانتفاضـة. إذ خلقـت مسـاحة سـمحت للحـراك بالتبلـور. مـا بـدأ كحواجـز طريـق مؤقتـة تحـول إلـى احتـلال للأماكـن العامـة. نُصِبَـتْ الخيـام فـي السـاحات الرئيسـة فـي جميـع أنحـاء البـلاد. كمـا سـمحت المهلـة بفـورة مـن الطلبـات سـرعان مـا انتشـرت علـى الإنترنـت وعبـر المطبوعـات التـي وُزِّعَـتْ فـي سـاحات الاحتجـاج.

تنوعـت المطالـب علـى نطـاق واسـع. وعلـى سـبيل الذكـر لا الحصـر: مـن توفيـر الرعايـة الصحيـة العامـة إلـى إصـلاح الضمـان الاجتماعـي، مـرورًا بحقـوق النسـاء، بمـا فـي ذلـك السـماح للنسـاء بإعطـاء الجنسـية لأبنائهـن، تأميـم البنـوك، رفـع السـرية المصرفيـة، حجـز رواتـب النـواب، عـودة الشـاطئ إلـى الملـك العـام، واسـتقالة جميـع النـواب وإنشـاء برلمـان انتقالـي.. إلـخ.

في نهاية المطاف، توحدت المطالب خلال 72 ساعة وتوزعت على أربعة محاور رئيسة:

1. استقالة الحكومة.

2. تشكيل حكومة تكنوقراط مُصغرة تعمل على:

3. تجميد كل ممتلكات السياسيّين السابقين.

4. وإعداد مسودة قانون انتخابي علماني جديد تحضيرًا لانتخابات مبكرة.

أعطـت الاحتجاجـات الواسـعة نهايـة ذلـك الأسـبوع طابعًـا سـلميًّا للتحـركات. تـم طـرد أولئـك الذيـن حاولـوا تخريـب الممتلـكات الخاصـة وكتبـت رسـالات دعـم علـى جـدران ونوافـذ المؤسسـات الخاصـة البلوريـة. شُـكِّلَتْ سلاسـل بشـرية أمـام القـوى الأمنيـة التـي وضعـت الحواجـز أمـام مداخـل البرلمـان. وهكـذا تـم إعـلان قـوات الشـرطة والجيـش كجـزء "مِنَّـا". عُـزِّزَتْ هـذه الفكـرة برفـع أعـلام الجيـش فـي اعتقـاد بـأن هـذه المؤسسـة هـي أيضًـا ضحيـة للفسـاد المتفاقـم داخـل الحكومـة. انتشـرت صـور علـى شـبكات التواصـل الاجتماعـي لعسـكريين حامليـن لافتـات داعمـة للانتفاضـة ومتأسـفين علـى عـدم قدرتهـم علـى المشـاركة. هنـاك كذلـك عـدة فيديوهـات منتشـرة لجنـود يذرفـون الدمـوع أمـام مشـهد الاحتجاجـات. كمـا تـم التعبيـر عـن المشـاعر المؤيـدة للجيـش بصيـغ متطرفـة، إذ طالـب بعـض المتظاهريـن بإقامـة دكتاتوريـة عسـكرية.

بانتهـاء مهلـة الـ 72 سـاعة نجحـت الانتفاضـة فـي احتـلال جميـع الفضـاءات العامـة

الرئيسة واستمرت في إغلاق الطرق الرئيسة، مما أدى إلى إضراب عام بحكم الأمر الواقع. عندما ألقى رئيس الحكومة خطابه لم يكن ذلك لإعلان استقالته بل للإفصاح عن حزمة من الإصلاحات التي تضمنت التخفيض في أجور الوزراء وضخ رأس المال في قروض الإسكان -التي تم إيقافها في السابق- وكذلك إغلاق بعض مؤسسات الدولة وتخفيض ميزانيات البعض الآخر.

رفض المتظاهرون على الفور حزمة الإصلاحات، التي اعتبروها ذر رماد على العيون ومحاولة لتفادي الإصلاح الحقيقي. فالنظام الذي لم يفعل شيئًا يُذْكَرُ لتحسين جودة الحياة طيلة ثلاثة عقود لن يجد فجأة الإرادة للقيام بذلك الآن.

تفاعلاً مع كل هذا، لعب الجيش دوره التاريخي وادَّعَى الحياد قائلاً إنه سيتصدى لأي أعمال عنف ضد المتظاهرين، كما رفض إخلاء المتظاهرين بالقوة أو إزالة حواجز الطرق.

في الواقع، كان هذا الإعلان مرنًا إلى حد ما. فعلى الرغم من إيقاف الجيش لقافلة من الدراجات النارية لمؤيدين للحكومة مانعين إياهم من الاشتباك مع المتظاهرين ليلة إعلانهم نيتهم تلك، إلا أنه قام بإزالة حواجز الطرق في نقاط أخرى "لدواعٍ إنسانية".

خلال الأسبوع الذي تلي خطاب رئيس الوزراء، استمرت حالة من العصيان المدني العام وكذلك إضراب الأمر الواقع. أُغْلِقت جميع الطرق الرئيسة وأفضى الحضور الجماهيري في ساحات البلاد إلى جو كرنفالي مع الموسيقى والرقص ومنسقو الإيقاع (دي جي) والألعاب النارية ليلاً.

عرفت الساحات العامة نوعًا من حياةٍ كانت قد نسيتها. انقلبت الشوارع إلى مدارس وتحولت الساحات العامة والخيام إلى أقسام. كانت هناك محاضرات يومية حول الاقتصاد، الدستور، التاريخ وعن أهمية الفضاءات العامة. يمكنك، في هذه الأقسام، رؤية محاولة لخلق هوية لبنانية جديدة بعيدة عن كل أساطير الطائفية وإعادة الإعمار. كما نظمت مجتمعات الشتات اللبناني احتجاجات في مختلف أنحاء العالم.

مُبديَةً علامات الصدمة والارتباك، لجأت الطبقة السائدة إلى خطابات متلفزة بهدف التهدئة أو لبث الشكوك حول الاحتجاجات. عبر الرئيس ميشال عون عن رغبته في التفاوض مع ممثلين عن الحراك. أما حسن نصر الله، زعيم حزب الله، فقد وقف بحزم في سلسلة من الخطب ضد استقالة الحكومة.

وفي نهاية المطاف طلب نصر الله من أنصاره الانسحاب من الشوارع زاعمًا أن قوى أجنبية تتلاعب بالانتفاضة. حاولت شخصيات تلفزيونية معروفة رسم أوجه الشبه بين الاحتجاجات التي سبقت الحرب الأهلية والانتفاضة الحالية، بغاية إذكاء المخاوف مما قد يحدث في حالة حدوث فراغ سياسي.

قوبل كل خطاب سياسي جديد بتدفق المزيد من الناس إلى الشوارع. أصبحت الخطب وقودًا للمتظاهرين، إذ اُستُقبِلت كتأكيدٍ لأبرز شعار في الانتفاضة: "كِلُّنْ يعني كِلُّن." وقد قوبلت التلميحات بأن الحراك ممول من الخارج بالسخرية، خاصة وأن الحزب الذي قاد هذه التلميحات يصرح علانية بأنه ممول بشكل حصري تقريبًا من إيران.

أما المزاعم بأن الحراك يهدد بالعودة إلى الحرب الأهلية، فقد رُدَّ عليها بشعار "أنتم الحرب الأهلية ونحن الثورة الشعبية". بالنسبة للعديد من المشاركين في الاحتجاجات، دلت الانتفاضة على نهاية حقبة الحرب الأهلية، لا على بداية حرب جديدة.

كما أدى استعداد الحكومة الظاهر للتفاوض مع ممثلين عن الحراك إلى الرفض الصريح لأي نوع من القيادة. ترددت داخل الحراك فكرة أنه لا يمكن لأحد التحدث نيابة عن الانتفاضة، وأن أي مُدَّعٍ لذلك هو مجرد محتال.

ليس هذا بالأمر المفاجئ، فقد استخلص المشاركون في جهود التنظيم دروسًا من تحركات سنة 2015 التي شهدت اعتقال القادة وتعرضهم لحملات إعلامية مستمرة. أدى هذا الرفض إلى تعميم شعار "الناس لا يتفاوضون، بل يطالبون."

في 29 تشرين الأول/ أكتوبر، استقال رئيس الحكومة. وقبل ذلك بساعات، اقتحمت مجموعة كبيرة من أنصار أمل وحزب الله وسط بيروت. هاجموا كل من اعترض

طريقهم وأضرموا النار في خيام المتظاهرين وفي رمز الثورة: قبضة مشدودة وقع نصبها في الساحة الرئيسة.

كما وقعت اعتداءات على المتظاهرين في مناطق أخرى بعد الخطاب، مع أعمال ترهيب وتخريب في الشارع، بما في ذلك إطلاق نار. حدث هذا تزامنًا مع تدفق الآلاف من المتظاهرين إلى الشوارع للاحتفال بالاستقالة.

بينما مثلت استقالة رئيس الوزراء انتصارًا، كان لها أيضًا تأثيرات أضعفت الانتفاضة. إذ انسحب بعض المتظاهرين من الشوارع، واعتبروا استقالة رئيس الوزراء وحده بمثابة خسارة للطائفة السُنِّيَّة.

شجعت استقالة الحريري رئيس الجمهورية وأنصار حزبه. فقد عنت دعوته السابقة للإصلاح، عبر الإجراءات القانونية، أنه وحزبه صارا الآن في صورة الحاملين الوحيدين لمشعل الإصلاح. بدأت الحكومة في ترويج الخطاب القائل بأن الانتفاضة نفسها تتسبب في تفاقم وضعية الاقتصاد المتدهور. تعللت الحكومة برفض المنتفضين التفاوض معها من أجل تكليف قوات الأمن بمهمة ضمان فتح الطرقات. من هنا فصاعدًا لن تكون هناك إضرابات عامة مفروضة بحكم الأمر الواقع، وفي ظل غياب حركة عمالية وازنة لا يمكن التفكير بشن إضراب عام حقيقي.

عانت الانتفاضة من بعض تناقضاتها الداخلية. فمن خلال رفضها أن تكون لها قيادة، اختارت لنفسها موقع رد الفعل المرتبط بالمطالب السلبيّة. إذ أن المنتفضين اكتفوا بالضغط من أجل منع ما لا يريدون عوضًا عن البناء الفعلي لبديل يعكس ما يريدونه.

ولسوء الحظ، فإن امتلاك حق النقض (الفيتو) يفترض أن التعبئة لا حدود لها، وقد مثل ذلك سوء تقدير جسيم. وهو ما أدى أيضًا إلى استبعاد فكرة إنشاء هياكل مقاومة تستجيب للمطالب الشعبية، مثل المجالس الثورية المنظمة على أسس ديمقراطية.

التناقض الثاني كان في زعم الحراك بأنه "غير سياسي". وبناءً عليه، أعطت المطالبة بتشكيل حكومة تكنوقراط انتقالية انطباعًا بأن مشاكل لبنان هي مشاكل

تقنية/ علمية بحتة. سيكلف هذا الافتراض الحراك ثمنًا باهظًا كما سنرى لاحقًا.

بدت الانتفاضة في مرحلتها الأولى عازفة عن الاحتجاج على مؤسسات حكومية أخرى. الثقة في حياد الجيش ورفض مواجهة أو نقاش كيف ستؤثر على تقدم الانتفاضة الشبكات الزبونية المتشعبة وتضارب المصالح بين القطاعين العام والخاص وبين السياسيين والبنوك وشركات البناء والجامعات والمستشفيات وشركات الإعلام. بالتالي، أُعطيت الأولوية للمسار القانوني كسبيل للتغيير على حساب الفعل المباشر.

من السهل أن تنسب تناقضات وحدود الحراك إلى عدم نضج قوى "الحراك المدني" وانشغالها بالسياسة الانتخابية وغياب هيئات عمالية أو جذرية قادرة على تكوين استراتيجية موحدة. غير أن تشكيل برنامج إيجابي موحد كان ينطوي على تهديد "انقسام الشارع"، بما يعني انصراف من لا يوافقون على بعض الأهداف السياسية عن الانتفاضة بأسرها. مع وجود كل هذه القيود البنيوية، يصبح من المفهوم التقاء المنتفضين حول المطالب السلبية من خلال جبهة موحدة، تاركين التعامل مع المهام "السياسية" إلى ما بعد إنشاء الفضاء المخصص لها. يعني بعد إزاحة الطبقة الحاكمة وإصدار قانون انتخابي جديد يسمح بدخول "سياسة" جديدة إلى الساحة.

المواجهات المباشرة وأوليغارشيو المصارف:

مع حلول نوفمبر، بدأت البنوك في سَنِّ ضوابط غير رسمية على الأموال، واضعةً سقفًا للمبالغ التي بإمكان الأفراد سحبها من حساباتهم بالليرة اللبنانية وبالدولار الأمريكي. رفضت البنوك كذلك تحويل أي أموال إلى الخارج باستثناء ظروفٍ محددة. زعمت تلك المؤسسات أن الهدف من اجراءاتها هو تثبيط عمليات التهافت البنكي ومحاولة الحفاظ على بعض السيطرة على سعر الصرف بين الليرة والدولار. وبينما واصلت البنوك تبادل العملات بالسعر الرسمي الثابت، تطور سعر السوق السوداء الموازي في مكاتب الصرافة الخاصة بانخفاضٍ في قيمة العملة فاق 30٪.

عنت القيود المفروضة على النفاذ إلى الدولار الأمريكي عدم استطاعة الشركات

إجـراء صفقـات الاسـتيراد. وقـد أضـر ذلـك بشـكل خـاص بموزعـي الوقـود ومسـتوردي المعـدات الطبيـة، ممـا دفـع محطـات التزويـد بالوقـود إلـى الإضـراب فيمـا هـددت المستشـفيات بـأن تحذو حذوهـا إذا لـم يتـم تسـهيل الوصـول إلـى العملـة. وفـي خضـم كل مـا سـبق ألقـى ريـاض سـلامة، محافـظ البنـك المركـزي، كلمـة طمـأن فيهـا اللبنانييـن بـأن البنـك لـن يسـعى إلـى اسـتراتيجية لتقييـد رأس المـال، متجاهـلًا تمامًـا حقيقـة أن القيـود علـى الأمـوال كانـت موجـودة بالفعـل وتـزداد تضييقًـا شـيئًا فشـيئًا.

كمـا وضعـت الحكومـة خططًـا لاسـتغلال الجلسـة البرلمانيـة المقبلـة لمناقشـة وإقـرار قانـون عفـو تشـريعي عـام. قُـدِّمَ القانـون علـى أسـاس أنـه مشـروع للعفـو علـى مـن سُـجِنُوا دون توجيـه تهـم إليهـم، لكـن اللغـة التـي كُتِبَـتْ بهـا مسـودة القانـون تضمنـت الجرائـم الماليـة. وهـو مـا يعنـي فعليًّـا عفـوًا شـاملًا لأي سياسـي سـيتورط فـي محاكمـات فسـاد مسـتقبلية. وتأجيجًـا لحماسـة الثـورة المضـادة، دعـا حـزب ميشـال عـون أنصـاره إلـى حضـور تجمـع لدعـم الرئيـس. وقـد حـذر هـذا الأخيـر خـلال تلـك المسـيرة مـن نشـأة "شـارعين". وفـي ذلـك تهديـد مُقَنَّعٌ بـأن الاحتجاجـات قـد تقابـل قريبًـا باحتجاجـات مضـادة وأعمـال عنـف.

مـع قيـام البنـوك بسـن ضوابـط غيـر رسـمية علـى الأمـوال، وعـدم تمكـن المحتجيـن مـن فـرض إضـراب عـام عبـر إغـلاق الشـوارع، بـدأ المحتجـون فـي تنظيـم احتجاجـات أمـام المبانـي الحكوميـة والبلديـات والموانـئ والبنـك المركـزي ومكاتـب مـزود الاتصـالات "أوجيـرو". عـلاوة علـى ذلـك، كان المتظاهـرون يفضحـون السياسـيين فـي الأماكـن العامـة مثـل المطاعـم والمتاجـر والمناسـبات. علـى سـبيل الذكـر لا الحصـر: طـرد رئيـس الـوزراء السـابق فـؤاد السـنيورة مـن حفـل موسـيقي، وإخـراج كل مـن نائـب رئيـس البرلمـان إيلـي فرزلـي ووزيـر العمـل يوسـف فينيانـوس مـن المطاعـم. جُعِلَـتْ مقاطـع الفيديـو لهـذه الأحـداث مـن أجـل التنفيـس، حيـث يسـتخدم المتظاهـرون وسـائل التواصـل الاجتماعـي لطلـب "الدعـم" فـي مـكان معيـن كلمـا رُصِدَ بـه أحـد السياسـيين.

بـدأ تحالـف مـن النشـطاء اليسـاريين، يضـم الحـزب الشـيوعي اللبنانـي والمنتـدى الاشـتراكي، بتنظيـم اعتصامـات فـي البنـوك واحتلالهـا حتـى تمكيـن العمـلاء مـن سـحب أموالهـم. رفعـوا أيضًـا شـعارات مـن أجـل تأميـم البنـوك. كمـا أصبحـت المواجهـات بيـن

عملاء البنوك وموظفيها أكثر انتظامًا. بدأت مقاطع الفيديو الخاصة بهذه المواجهات تنتشر على مواقع التواصل الاجتماعي، ومن أبرزها مودع يحمل فأسًا.

كانت هناك أيضًا مقاطع فيديو لِحِرَفِيينَ يعانون من انهيارات عصبية بسبب عجزهم عن إطعام أسرهم أو دفع الرسوم المدرسية أو سداد الديون. وأظهر أحد هذه المقاطع رجلًا يصب البنزين على جسده مُهدِّدًا بحرق نفسه، مع سماع صوت خارج عدسة الكاميرا يقول "شفت مين بيعمل المشاكل، الثوار والشيوعيين". ردًّا على هذا العداء المتزايد، هددت نقابة موظفي البنوك بالإضراب، وأقامت عديد البنوك حواجزًا حديدية أمام أبوابها. يا لسخرية هذا الواقع المرير، إذ استولت هياكل الرأسمالية حتى على المتارس.

استمرت الاحتجاجات الجماهيرية في تجديد طاقتها خلال عُطَلِ نهاية الأسبوع وكردود على الخطابات المتلفزة للسياسيين. تمكنت هذه الاحتجاجات من إرجاء اجتماعين برلمانيين، وكان أحدهما يتعلق بتمرير قانون العفو. كما ألغى الضغط المستمر من الشارع ترشيحين لرئيس الوزراء: النائب عن طرابلس محمد الصفدي، الذي يمتلك معظم الواجهة البحرية الخاصة "زيتوناي بايْ" وله علاقات وثيقة مع الأسرة الحاكمة السعودية، وسمير الخطيب، المهندس الذي تربطه علاقات مماثلة بعائلة الحريري والسعوديين أيضًا. وقد تم وضع هذين الترشيحين للالتفاف على الإجراءات الدستورية من خلال "صفقات الغرف الخلفية" بين الأحزاب السياسية اللبنانية قبل حتى أن يبدأ البرلمان المشاورات رسميًّا.

وجاء ترشيح الصفدي والخطيب بعد فترة كانت الأحزاب السياسية الكبرى نفسها تضغط من أجل عودة سعد الحريري. وكان حزب الله، على وجه التحديد، ينظر إلى الحريري على أنه مرشح توافقي. إذ يعتقد الحزب أن الحريري هو الأنسب لإنقاذ لبنان ماليًّا ولمنحه غطاء مشروعًا (أي تجنب المزيد من العقوبات) بفضل صلاته مع المجتمع الدولي والمملكة العربية السعودية. أشار الحزب الشيوعي اللبناني بحماس إلى نفاق "المقاومة" المناهضة افتراضًا للإمبريالية، من خلال دعمها المرشح الأكثر انسجامًا مع رأس المال العالمي.

لـم تكـن انتصـارات الانتفاضـة دفاعيـة فقـط، بـل سُـجِّلَتْ كذلـك انتصـارات هجوميـة ورمزيـة. فـي 17 نوفمبـر، فـاز المرشـح المسـتقل ملحـم خلـف بانتخابـات نقابـة المحاميـن فـي بيـروت. لعـب المحامـون دورًا نشـطًا فـي الثـورة بتشـكيل لجنـة دفـاع أُنْشِـئتْ للدفـاع عـن حقـوق المتظاهريـن والمساعدة فـي الإفـراج السـريع عـن المحتجيـن المسـجونين. زادت هـذه الأنشـطة فـي عهـد خلـف الـذي كان يذهـب بنفسـه إلـى مراكـز الشـرطة.

لطالمـا كان اسـتقلال القضـاء مطلـب الانتفاضـة، ولذلـك اعتُبِـرَ انتخـاب خَلَـف خطـوة فـي هـذا الاتجـاه. فـي الوقـت نفسـه، واسـتلهامًا مـن السـودان، كان المحتجـون يسـعون إلـى تطويـر نقابـات واتحـادات بديلـة لتلـك التـي دجنتهـا الدولـة. وتولـى قيـادة هـذه المهمـة تَجَمُّعُ المهنيين اللبنانييـن حديـث التأسـيس، الـذي ضـم خمـس جمعيـات لأسـاتذة الجامعـات والصحفييـن والعامليـن بالإعـلام والمهندسـين والعامليـن بالفـن والثقافـة والأطبـاء[20].

تـم تجسـيد فكـرة إعـادة بنـاء المؤسسـات بعيـدًا عـن الدولـة بشـكل سـاطع فـي الثانـي والعشـرين مـن نوفمبـر، عيـد اسـتقلال لبنـان، حيـن اسـتُبْدل العـرض العسـكري الـذي يُقـام عـادةً بــ "عـرض مدنـي" وبــ "كتائـب" تمثـل الأمَّهـات والجمعيـات المهنيـة وأفـراد الجيـش المتقاعدين، الميكانيكيـون والمعلمـون ومـا إلـى ذلـك. وعندمـا خفـت الحـراك، أعـاد الطلبـة إحيـاءه بتحركاتهم واضراباتهـم مُتَحَدِّيـنَ بذلـك أوامـر الحكومـة بإعـادة فتـح المـدارس والجامعـات.

خـلال هـذه الفتـرة، واجهـت الانتفاضـة كذلـك بعـض الخسـائر الفادحـة. أدى تشـديد القيـود علـى الأمـوال إلـى زيـادة حـالات الانتحـار، ولا سـيما حرقًـا. فـي الثانـي عشـر مـن نوفمبـر، قُتِـلَ المتظاهـر عـلاء أبـو فخـر أمـام زوجتـه وأطفالـه برصـاص جنـدي خـارج الخدمـة. جَسَّـدَتْ وحشـية مقتلـه الشـعور بالاسـتحقاق لـدى أولئـك الذيـن يملكـون نفـوذًا سياسـيًّا أو "واسـطة" تُمَكِّنُهُـم مـن تحمـل تجاهـل أيـة قوانيـن.

فـي العاشـر مـن ديسـمبر، قُتِـلَ شـقيقان: عبـد الرحمـن كاخيـة وأختـه رامـا، عندمـا انهـار سـطح بيتهـم شـبه المتـداعِ إثـر هطـول أمطـار غزيـرة. وقـد سـبق لهـم أن ناشـدوا البلديـة تجديـد المبنـى، لكـن لـم يتـم الـرد علـى طلبهـم.

20- Kater, L.B., 2020. Did someone Say Workers? (Part 2 of 2). The Public Source

كما تَعَرَّضَ المتظاهرون لمزيد من القمع من قِبَلِ الجيش الذي صار يفتح الطرق بالقوة. وكذلك من قِبَلِ أنصار حزب الله وحركة أمل في شكل "غزوات" أكثر لساحات الاحتجاج في جميع أنحاء البلاد، حيث أُحْرِقَتْ الخيام، أو عبر أعمال التخريب المتجولة بما في ذلك إحراق السيارات. تم استخدام أي عذر لتبرير أعمال العنف هذه. ومن الأمثلة البارزة ظهور مقطع فيديو قديم فيه إهانة لرجال دين من الطائفة الشيعية، والوفاة المؤسفة لحسين شلهوب وسناء الجندي، بعد أن اصطدمت سيارتهم بحاجز مؤقت. بعد استخدام أنصار الحزب الحادثة كذريعة لمهاجمة المتظاهرين، اتضح أن الجيش هو الذي نصب الحاجز لتحويل حركة المرور.

مع استمرار الحكومة في تجاهل أو تشويه أية مطالب تقدم بها المتظاهرون، وفي ظل تدهور الوضع الاقتصادي، أصبح من الواضح أن الضغط من أجل التغيير بالوسائل القانونية لم يكن كافيًا. بدأ الخطاب الطبقي يكتسب أهمية أكبر مع إدراك أن نجاح هذه الانتفاضة يتطلب تحدي الطبقة الحاكمة على كافة الأصعدة.

أسبوع الغضب والإحياء

مع بَلْتَرَة الانتفاضة، استهدفت المواجهات رموز الدولة. وقع التخطيط لمسيرة إلى القصر الرئاسي، وجرت عدة محاولات لاقتحام البرلمان. ولجأ المتظاهرون إلى كسر قطع الرخام من المباني التي أقيمت أثناء إعادة الإعمار ليرموا بها قوات الأمن.

مع تصاعد مثل هذه الأعمال المتمردة، زادت القنوات التلفزيونية، المملوكة كلها من السياسيين والمصطفة مع أحزابهم، من شجبها للمظاهرات[21] واصلت المحطات الرئيسة توفير منابر للمتحدثين من الأحزاب السياسية الرئيسة دون بذل أي جهد لمواجهتهم أو مساءلتهم. فقط عندما شارك الوزير اللبناني وزعيم التيار الوطني الحر جبران باسيل في مقابلة مع تلفزيون "آم آس آن بي سي" خلال المنتدى الاقتصادي العالمي، حصل اللبنانيون على إحساس ضئيل وشافي بالمساءلة في مقابلة.

21- للمزيد من المعلومات حول المشهد الإعلامي اللبناني وصلاته بالسياسيين، يمكن الاطلاع على موقع Media Ownership Monitor Lebanon website

مَثَّلَتْ الأخبار كذلك مصدرًا رئيسًا للمعلومات بالنسبة للجهات الفاعلة غير الحكومية الساعية إلى قمع الانتفاضة. إذ تعقب أنصار حزب الله وحركة أمل الأشخاص في المناطق ذات الأغلبية الشيعية الذين أدلوا بتصريحات تحدثوا فيها بشكل سيء عن الحزب أو قادة الحزب، ووقع إجبارهم على إصدار اعتذارات بالفيديو، وفي كثير من الأحيان مع حمل صورة زعيم الحزب. كثيرًا ما استُعمِلَ الحديث السيئ عن أحد الحزبين بمثابة تبرير لشن هجمات على المتظاهرين ولاجتياح الساحات.

بدأ أنصار الأحزاب أيضًا في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي لنصب كمائن للمتظاهرين. في أوائل فبراير، ظهر المتظاهرون وهم يعايرون نائبًا بالبرلمان بصدد تناول العشاء في كسروان؛ ليجدوا أنصار حزبه والحراس الشخصيين للنائب في انتظارهم. تم القبض على العديد من المتظاهرين وتعرضوا للضرب. وصور المهاجمون الاعتداءات وهم يسألون فيها "أنت من طرابلس؟ ما الذي تفعله هنا؟" في إشارة إلى حدود الكانتون الوهمية التي تفصل بين السُّنَّةِ والموارنة والتي تم عبورها لينتقل المتظاهرون من طرابلس إلى كسروان. قُوبِلَ الفيديو بإدانة واسعة، لا سيما من قِبَلِ المسيحيين المؤيدين للانتفاضة، ونُظِّمَتْ مظاهرة في كسروان. أثناء الاحتجاج، تم حمل الضحية على أكتاف رفاقه. على الرغم من أن هذا الفعل قدم إحساسًا بالتعويض، إلا أن أحداث الليلة السابقة سلطت الضوء على حقيقة أن الثورات تعمل وفقًا لصيغة بسيطة: السيطرة على الأرض؛ وقد صار المحتجون يفقدون المناطق التي كسبوها من قبل.

بقيت فقط بعض الخيام في الساحات. نُصِبَتْ متاريس أكثر لإبعاد المحتجين عن رموز السلطة، أُغلقت كل الطرق المؤدية إلى البرلمان بمتاريس كبيرة أطلقت عليها تسمية "جدران العار". حتى على الإنترنت نشطت وحدة الجرائم الإلكترونية، التابعة لقوات الأمن، باستمرار في استدعاء النشطاء والمنظمين البارزين بطرق استعراضية سافرة بغاية الترهيب.

في 19 من كانون الأول/ ديسمبر، اُختِيرَ حسان دياب ليكون رئيس الحكومة. لم تختلف عملية اختيار دياب عن سابقاتها فقد أُجرِيَتْ من خلال الاتفاقات المعتادة بالغرف الخلفية. خرج المحتجون إلى الشارع مرة أخرى وقُوبِلُوا هذه المرة بقمع

أكبر مع استخدام مفرط للغاز المسيل للدموع. على عكس المرتين السابقتين لم يستطع المحتجون عزل دياب، وفي 21 يناير تشكلت حكومة جديدة.

كانت الحكومة الجديدة أصغر من سابقتها بـ 30% وتكونت من "وجوه جديدة" من سياسيي الصف الثاني الذين خدموا في السابق كمستشارين، إلى جانب بعض التكنوقراط. قُدِّمَتْ الحكومة على أنها استجابة لمطالب المحتجين بحكومة كفاءات مستقلة. أرضى ذلك العديد من المتظاهرين الذين اعتقدوا أنه يجب إعطاء الحكومة الجديدة آنذاك فرصة. لم تكن لدى هذه الحكومة القدرة على توحيد الطبقة الحاكمة. رفضت عديد من الأحزاب الرئيسة المشاركة في الحكومة نظرًا لاعتراضهم على رئيسها. بالتالي، تَحَصَّلَ حزب الله والتيار الوطني الحر على نصيب الأسد من الحقائب الوزارية. وُصِفَتْ هذه الحكومة بحكومة "اللون الواحد" لتحالف الثامن من آذار. بينما قدم بعض المعلقين الأمر كشرخ في قدرة الطبقة السياسية على الهيمنة. لكن على العكس، يجب أن يُرَى ذلك كتكتيك لتسهيل عودة الأمور إلى طبيعتها.

تعطي حكومة من "لون واحد" الغطاء المثالي لعودة خطاب الطائفية المذهبية وتأجيج مشاعر الخوف من إقصاء مقصود، بما يسهل عودة الناس إلى النمط السياسي المعتاد. وفي نفس الوقت، يزيد ادعاء أنصار 14 أذار صلتهم الوثيقة بالثورة من نزع الشرعية عن الانتفاضة.

بين تسمية دياب وتشكيل الحكومة، دعا محتجون إلى "أسبوع غضب" في منتصف يناير. قاد ذلك إلى تصعيد في العصيان المدني شمل إغلاق طرق ومسيرات واحتجاجات قبالة المؤسسات الحكومية. وقع تخريب بعض البنوك، كُسِرَتْ نوافذها وكاميرات المراقبة. تصاعدت المواجهات كذلك في الساحة الرئيسة وسط بيروت عندما حاول محتجون اختراق الحواجز التي وضعت بهدف إبعادهم عن البرلمان.

بلغ القمع خلال هذه التحركات مستويات غير مسبوقة. كان هناك استخدام مفرط للغاز المسيل للدموع، إذ استهدفت كثير من عبوات الغاز رؤوس المحتجين عمدًا متسببة في فقدان بعضهم لأعينهم وفي أضرار أخرى كثيرة[22]. صاحب ذلك اعتقالات

22-حسب القانون الدولي، من المفترض أن يُطلَق الغاز المسيل للدموع من زاوية عالية.

عشوائية وضرب من الشرطة وتعذيب في السجون.

وُوجِّهَ أيضًا المحتجون أمام السجون المحلية بالغاز المسيل للدموع والشراسة البوليسية. جُرِحَ في ذلك الأسبوع أكثر من 500 محتج[23]. لأول مرة منذ بداية الاحتجاجات لعبت الشرطة الدور الذي أُسنِدَ سابقًا لمؤيدي الأحزاب، فأحرقت بنفسها خِيَمَ المحتجين. كان واضحًا أن الدولة بصدد الإمساك بزمام الأمور.

تبعًا لهذا القمع الوحشي وتشكيل الحكومة في 21 كانون الثاني/ يناير 2020، لم يَعُد الحراك بنفس القوة. تراجع نطاق الأعمال المباشرة ضد البنوك مع بدء قوات الأمن في التصرف كحراس شخصيين لهذه المؤسسات التي واصلت، بطريقة غير قانونية، احتجاز أموال الناس وفرض تضييقات مشددة. عنى تشكيل الحكومة أيضًا إمكانية عودة وسائل الإعلام إلى تغطيتها المعتادة للسياسة "الحقيقية"، وبالتالي وقع تعتيم إعلامي شامل على التحركات. انحصرت الاحتجاجات الواسعة، عندما تقع، في نهايات الأسبوع، فيما تجري مسيرات صغيرة خلاله.

ظلت بعض الخيمات منتصبة وواصلت في توفير سبل جديدة للتنظم عبر مجالس شعبية، بصرف النظر عن صغر حجمها.

صندوق النقد الدولي، وكوفيد 19 والتحديات القادمة:

لم تحمل السنة الجديدة أي فرجٍ للبنانيين. استمر تدهور قيمة الليرة، ومع مواصلة البنك المركزي في ربط سعر الليرة بالدولار تشكلت ثلاثة أسواق عملات جديدة؛ السعر الثابت الرسمي، وسعر بنكي غير رسمي -لا يزال هو الأسوأ- وسعر السوق السوداء. في وضعية كهذه لا غرابة في الكشف عن دائرة احتيال استفادت من تقلبات سوق العملات وتضمنت وسطاء صرف وشخصية رفيعة في البنك المركزي اللبناني. إلى حد كتابة هذه السطور، يتم تداول الليرة بما يقارب 4200 مقابل الدولار الواحد، أي

23- Stubley, P., 2020. Beirut protests: Nearly 500 injured over violent weekend in Lebanon as riot police and army called in. The Independent

مـا يزيـد علـى 50% تحـت قيمـة العملـة حسـب السـعر الثابـت. أدى ذلـك إلـى تضخـم هائـل ودفـع المزيـد مـن اللبنانييـن إلـى الفقـر. لـم يختلـف رد فعـل الحكومـة عـن السـابق. فـي يناير، تـم تمريـر ميزانيـة جديـدة دون تغييـرات كبيـرة تذكـر. فـي مـارس، أعلنـت الحكومـة أنهـا سـتتخلف عـن سـداد ديونهـا وتطلـب المسـاعدة مـن صنـدوق النقـد الدولـي.

وفـي أبريـل، أطلقـت هـذه الأخيـرة "خطـة إنعـاش" أبـرزت أنهـا ستسـعى للحصـول علـى قـروض أخـرى بقيمـة 10 مليـار دولار أمريكـي مـن صنـدوق النقـد الدولـي. كجـل مخططـات صنـدوق النقـد سيشـهد مسـتقبل لبنـان مزيـدًا مـن التقشـف والخصخصـة لأمـلاك الدولـة (الاتصـالات والكهربـاء والموانـئ) وكسـاد طويـل، فـي ظـل توقعـات بـألا يعـود النمـو إلـى مسـتويات سـنة 2018 قبـل حلـول سـنة 2043 [24].

كذلـك تتجاهـل خطـة التعافـي أي تدابيـر حقيقيـة لاحتسـاب المليـارات المفقـودة بسـبب الفسـاد، ممـا يجعلهـا مجـرد خطـة لاسـتمرار دورة الفسـاد ولتوسـيعها المحتمـل إثـر بيـع الأمـلاك العامـة. منـح وصـول جائحـة كوفيـد 19 إلـى لبنـان فـي مـارس، الحكومـة الغطـاء المثالـي لتطبيـق حالـة الطـوارئ. نُشِـرَ الجيـش لفـرض الحظـر واُسـتُغِلَّتْ الفرصـة لإزالـة الخيـام الباقيـة مـن السـاحات العامـة. رغـم أن الحظـر قـد جمـد الانتفاضـة إلا أن العديـد مـن الاحتجاجـات تواصلـت وقـد أوضـح المتظاهـرون أن خياراتهـم تتـراوح بيـن المـوت بالفيـروس أو المـوت جوعًـا.

اتسـمت احتجاجـات هـؤلاء المتظاهريـن، إلـى حـد كبيـر، بديناميكيـة مختلفـة. وكمـا وقـع فـي أسـبوع الغضـب، اسـتهدفوا البنـوك بصفـة مباشـرة وكسـروا نوافذهـا وأحرقـوا أجهـزة الصـرف الآلـي وألقـوا القنابـل الحارقـة والحجـارة علـى تلـك المحميـة منهـا وراء الجـدران. كمـا حصلـت مواجهـات مباشـرة بيـن المحتجيـن والجيـش، إذ رُمِيـتْ العربـات العسـكرية بالقنابـل الحارقـة وأُلقيـتْ الحجـارة علـى مواقـع للجيـش. فـي طرابلـس، قُتِـلَ متظاهـر بالرصـاص ممـا أدى إلـى مزيد مـن الاحتجاجـات فـي الأيـام التاليـة. اشـتدت عمليـات الاعتقـال والتعذيـب، وكذلـك الاسـتدعاءات الأمنيـة للشـخصيات الإعلاميـة.

24- Bisat, A., 2020. The Government Economic Plan: A Complicated Maze of Policy Trade-offs. The Lebanese Center for Policy Studies.

تواصلت الاحتجاجات رغم الجائحة ورغم الإغلاق العسكري، وهو ما يُعَدُّ مؤشرًا قويًّا على أن الاحتجاجات ستعاود الظهور بمجرد رفع الحظر. السؤال الذي ينبغي طرحه هو التالي: أي شكل ستتخذه الانتفاضة حين تنبعث من جديد؟ لا نقدم أي تنبؤات ولكن نسلط الضوء على الآمال والأخطار.

طوال مسار الانتفاضة كان على القوى المشكلة لها مواجهة ومحاولة حل تناقضاتها بنفسها. ظهرت أنماط جديدة من التنظيم، بما فيها النقابات البديلة وخيم الثورة. غرست الأولى (النقابات البديلة) اتجاهات سياسية جذرية وقدمت الثانية (خيم الثورة) حلولًا محلية للمشاكل، ولكن فشل كليهما في الاندماج في هيكل أكثر شمولًا ويقدر على توجيه الانتفاضة. نجح وجودهم بالمقابل في نشر الفهم بضرورة التنظيم ومعارضة كل رموز السلطة.

بعبارة أخرى، رغم تمكن المرحلة الأولى من الانتفاضة من ترسيخ فكرة "كِلُّنْ يعني كِلُّن"، كشفت مرونة الطبقة الحاكمة وقدرتها على التأقلم للمتظاهرين أن المشكلة ليست مجرد رهط من السياسيين الذين يجب استبدالهم، بل أنه ينبغي مهاجمة المنظومات والشبكات المتشعبة التي تعيد إنتاج هذه الطبقة الحاكمة، بما في ذلك شكلها "التكنوقراطي".

مع غياب منظمة أو ائتلاف للقيام بمثل هذه الهجمات، من الممكن أن تعود السياسة الانتخابية إلى الواجهة. من المنتظر إجراء الانتخابات البرلمانية والبلدية، إضافة إلى الرئاسية، في عام 2022. إذا توقع الفاعلون في الانتفاضة أن يستبدلوا الطبقة الحاكمة أو يدخلوا بهذه الطريقة في السياسة، فإنهم سيواجهون على الفور جملة من التناقضات.

لماذا رفضوا في السابق الدخول إلى الحكومة؟ إذا كانوا قد فقدوا الثقة في الحكومة لماذا يتوقعون منها أن تتصرف بحسن نية خلال الانتخابات؟ أخذًا بعين الاعتبار، خاصة، مستوى التزوير الانتخابي سنة 2018.

أخيرًا، سيكون عليهم عرض رؤية على الناس تتجاوز المزاعم المعتادة عن "عدم التسييس". برأينا، هذه ليست استراتيجية رابحة، نظرًا لأنها لا تطور أي بنية تحتية

لمقاومة تتجاوز السياسة الانتخابية.

من الممكن أن يؤدي استمرار المواجهات في الشارع إلى مزيد من الاستقالة من الشأن العام وتعميق الأزمة السياسية. هنا، يصبح لخوف الطبقة الحاكمة من مخاطر الفراغ السياسي شيء من الصحة.

في غياب الوظيفة الوسيطة للدولة، لا يمكن توقع كيف ستكون ردود أفعال الأطراف المتعارضة، خاصة تلك المسلحة منها كحزب الله على سبيل المثال، والتي تمتلك هياكل ذات سلطة مزدوجة وتمويل غير محدود على ما يبدو.

هناك احتمال حقيقي أن يرتد هؤلاء إلى منافسة مباشرة على السلطة، وهو أمر لا تملك الانتفاضة القدرة ولا الرغبة – عن حق - في المشاركة به. وجود حزب الله هو عائق لا يمكن تجنبه وعلى الانتفاضة التعامل معه. في 2008، وخلال هذه الانتفاضة أيضًا، أثبت حزب الله تصميمه الحفاظ على شرعية الدولة، التي وفي المقابل تشرعن لزعمه القائل باحتكار "المقاومة"، وبالتالي لوجوده في لبنان كدولة داخل الدولةِ. يُشكِّلُ تنامي المواجهات المباشرة وتدهور الظروف الاقتصادية فرصة بالغة الأهمية. رغم أن العنف يميل لخلق تشققات بين راديكاليي الحركات ومتفرجيها[25]، إلا أنه بالإمكان تأطير هذا العنف بطريقة تثير التعاطف إذا أُضفيت عليه شرعية الدفاع عن النفس. يوفر تدهور الأوضاع الاقتصادية تبريرًا سهلًا لتصرفات كانت تعتبر غير مشروعة في أوضاع مغايرة (مصادرة الأملاك، المواجهات مع الجيش وأعمال العنف ضد رموز السلطة).

إن ظهور المنظمات الجامعة مثل الجمعية اللبنانية للمهنيين يغرس الأمل في أن يتحد كفاح العمال مع النضالات المحلية من خلال إنشاء لجان دفاع محلية وتوسيع النقابات البديلة، وأن يصوغا عبر الأساليب الديمقراطية استراتيجية سياسية. الأقسام الأكثر راديكالية في الانتفاضة هي المنوطة بتشكيل مثل هذا التحالف. سيبقى نجاح الانتفاضة منقوصًا إن لم تتحد سلاسل الدين وصندوق النقد الدولي. ليصبح ذلك

25- Tarrow, S., 1988. Power in Movement: Social Movements and Contentious Politics. Cambridge University Press.

مُمْكنًا سيحتاج لبنان إلى إيجاد حلفاء جدد في المنطقة وحول العالم، وأن تقام روابط تضامن معهم وأن يخاض الصراع بالشراكة معهم من أجل استرجاعهم التحكم في مصير بلدانهم. تثبت الموجة العالمية من الاحتجاجات التي كان لبنان جزءًا منها وجود أرضية خصبة لمثل هذه التحالفات.

ليست أي من هذه المهام بسيطة. ولكن فقط عبر تطوير مقاومة ديمقراطية لا مركزية مستدامة يمكن للثورة أن تبني ما يلزمها من مرونة وصمود وقوة لتلبية احتياجاتها المباشرة ومقارعة أعدائها؛ سواء كان ذلك من خلال المواجهة المباشرة أو عبر صناديق الاقتراع.

شكر وامتنان:

يود المؤلفان أن يُنَوِّهَا بالجهود الدؤوبة للنشطاء والأكاديميين والعاملين في وسائل الإعلام وكل متظاهر ساهم في تضخيم أصوات الانتفاضة. من المستحيل ذكرها جميعًا، لكن من الجدير بالذكر: ميغافون نيوز، المصدر العام، فورا ميديا، المفكرة القانونية، المركز اللبناني للدراسات، المنتدى الاشتراكي، أندرو أرسان، ليا بو خاطر، ريما ماجد، زياد ماجد، فادي البردويل، لونا صفوان وتيمور أزهري.

الانتفاضة الإيرانية 2019-2020

فريدا آفاري

يونيو 2020

صيف 1978 - شتاء 1979	تعبئة جماهيرية أدت إلى ثورة والإطاحة بالملك محمد رضا بهلوي
شتاء 1979	الملك محمد رضا بهلوي يغادر إيران
شباط (فبراير) 1979	الخميني يعود من المنفى بمساندة جماهيرية واسعة ويدعو لاستفتاء على تسمية إيران بالجمهورية الإسلامية
أيلول (سبتمبر) 1980 - آب (أغسطس) 1988	الحرب الإيرانية العراقية
حزيران (يونيو) 1981	الجمهوريـة الإسـلامية تبـدأ فـي اعتقـال وإعـدام اليسـاريين بالجملـة
صيف 1988	إعدامات بالجملة للسجناء السياسيين من الاشتراكيين وحركة مجاهدي خلق
خريف 1998	موجة جديدة من اغتيالات المثقفين اليساريين والتقدميين
صيف 1999	موجة من الاحتجاجات الطلابية ضد منع جريدة إصلاحية ورفضا لاغتيال المثقفين اليساريين والتقدميين
حزيران (يونيو) 2009	"الحركة الخضراء" واحتجاجات جماهرية (أساسًا في طهران وعدد من المدن الكبيرة) على تزوير الانتخابات الرئاسية

كانون الأول (ديسمبر) 2017	احتجاجات جماهيرية على مستوى وطني تضمنت مشاركة واسعة للطبقة العاملة، تطالب بإنهاء الجمهورية الإسلامية وتدخلاتها العسكرية في المنطقة
تشرين الثاني (نوفمبر) 2019	**انتفاضة جماهيرية وطنية، تضمنت مشاركة واسعة للطبقة العاملة مع وجود قوي للنساء، تطالب بإنهاء الجمهورية الإسلامية وتدخلاتها العسكرية في المنطقة**
كانون الثاني (يناير) 2020	احتجاجات واسعة قادها الطلبة في طهران ومدن أخرى للتنديد بإسقاط إيران لطائرة أوكرانية على متنها 175 راكبًا خلال انتقام الحكومة من اغتيال الولايات المتحدة للقائد بالحرس الثوري قاسم سليماني
شباط (فبراير) 2020	انتخابات تشريعية في إيران بمشاركة منخفضة جدًّا منظمة الصحة العالمية تعلن أن إيران لديها أعلى نسبة من انتشار الكوفيد-19 بعد الصين

مقدمة

"إن المخـرج الوحيـد مـن الأزمـة الحاليـة هـو العـودة إلـى سياسـة أساسـها الحقـوق الديمقراطيـة للشـعب، سياسـة لا ترتمـي فـي أحضـان الإمبرياليـة خوفًـا مـن الطغيـان، ولا تُشـرِّعُ الطغيـان باسـم المقاومـة ومحاربـة الإمبرياليـة. نعـم، المخـرج الوحيـد للتخلـص مـن الحالـة الراهنـة هـو رفـض كل مـن الطغيـان والإمبرياليـة علـى حـد سـواء."[1]

بيان من طلبة بجامعة أمير كبير للتكنولوجيا بإيران 12 يناير 2020

ماذا حدث في نوفمبر 2019 ويناير 2020؟

فـي 15 نوفمبـر 2019 انتفـض أكثـر مـن مائتـي ألـف شـخص، غالبًـا فـي مناطـق عماليـة، بأكثـر مـن مائـة مدينـة ومنطقـة ريفيـة فـي أنحـاء إيـران خـلال أربعـة أيـام مـن الاحتجاجـات المتواصلـة إثـر الإعـلان عـن ارتفـاع بنسـبة 300 بالمائـة فـي سـعر البتـرول. أغلـب المحتجيـن كانـوا مـن فاقـدي الشـغل والطلبـة الشـباب، وفـي طليعتهـم كان هنـاك العديـد مـن النسـاء[2].

ردت الحكومـة الإيرانيـة والحـرس الثـوري الإسـلامي (ح. ث. إ) بإطـلاق النـار علـى النـاس بهـدف القتـل. أطلقـوا النـار مـن السـطوح ومـن المروحيـات العسـكرية والدبابـات. أوقفـوا أكثـر مـن سـبعة آلاف وقطعـوا الإنترنـت لتجنـب تغطيـة الاحتجاجـات والمجـزرة

1- Jahanpour, F., 2020. The Statement Issued by the Students Demonstrating in Amir Kabir University in Iran, January 12

2- Afary, F., 2019. Why the Latest Uprising in Iran Matters: Interview. Jacobin, November 21. and Bouzari, R., 2019. An Iranian Crisis of Representation. Open Democracy, November 22, 2019. and

"خیزش آبان 98 :چه رخ داد، چه زمینه ای داشت؟ چشم انداز چیست؟" زمانه، دسامبر 2019

هوشیار دهقانی. "زنان در جنبش اعتراضی: پیوند دهنده و پیش برنده." زمانه. 25 دی 1398

الحكومية من قبل الصحفيين المواطنين[3].

عـدد الضحايـا الأعلـى كان فـي محافظتـي كردسـتان وخوزسـتان، وكلاهمـا موطـن أقليـات قوميـة مضطهـدة. نقلـت جريـدة نيويـورك تايمـز خبـرًا عـن قتـل مـا يصـل إلـى مائـة محتـج فـي يـوم واحـد بأيـادي ال (ح. ث. إ) فـي مدينـة ماهشـهر فـي خوزسـتان[4].

أضـرم المتظاهـرون النـار فـي مقـرات الشـرطة والبنـوك وبعـض المبانـي العموميـة وبعـض المعاهـد الدينيـة والعديـد مـن صـور المرشـد الأعلـى آيـة اللـه علـي خامنئـي. وضعـوا أيضًـا حواجـز لسـد الطرقـات. فـي بعـض المـدن تمكـن المحتجـون مـن السـيطرة والتحكم فـي مناطقهـم. اسـتقال بعـض أعضـاء البرلمـان تضامنًـا مـع الاحتجاجـات.

جامعـة طهـران كانـت واحـدة مـن الجامعـات التـي قـام الطلبة بهـا بتنظيـم بجامعات مسـاندة للاحتجاجـات الوطنيـة. ردًّا علـى ذلـك أغلقـت قـوات الأمـن البوابـات حتـى تسـهل هجومهـا علـى الطلبـة بمنعهـم مـن الفـرار.

نقلـت وكالـة رويتـرز للأنبـاء أن أكثـر مـن 1500 مـن المحتجيـن قتلـوا وأكثـر مـن سـبعة آلاف اعتُقِلـوا فـي أنحـاء البـلاد[5]. وقـد أكـدت ميشـال باشـلي، الرئيسـة السـابقة للشـيلي والمفوضـة السـامية لحقـوق الإنسـان فـي الأمـم المتحـدة، أن قـوات الأمـن الإيرانيـة "أطلقـت النـار لتقتـل" واسـتعملت "عنفًـا شـديدًا" ضـد المتظاهريـن[6].

بعــد شــهرين تقريبًــا، فــي بدايــة ينايــر 2020 إثــر اغتيــال الولايــات المتحــدة للجنــرال قاســم ســليماني، قائــد فيلــق القــدس بالحــرس الثــوري الإســلامي (ح. ث. إ)، نظمــت

3- Center for Human Rights in Iran. 2020. Gunning Them Down: State Violence Against Protesters in Iran. May 27.

4- Fassihi, F. and Gladstone, R., 2019. With Brutal Crackdown, Iran is Convulsed by Worst Unrest in Forty Years. New York Times, December 1. and
and یاسر آفتابی. "آعتراض و سرکوب—روند و وضعیت کنونی." زمانه. 3 آذر 1398.
and هوشیار دهقانی. "زنان در جنبش اعتراضی: پیوند دهنده و پیش برنده." زمانه. 25 دی 1398.
گلنسا حسین زاده."شگفتی از حضور زنان در اعتراضات ایران: نقش کلیشه های جنسیتی." زمانه 1 بهمن 1398.

5- Reuters News, 2019. Special Report: Iran's Leader Ordered Crackdown on Unrest: "Do Whatever It Takes to End It.". December 23.

6- UN News, 2019. UN rights chief 'extremely concerned' over deadly crackdown on protestors in Iran. December 6

الحكومة الإيرانية جنازة وطنية كبيرة. وقد حاولت إلهاب المشاعر القومية للإقناع بسردية انحسار الانتفاضة الشعبية ووحدة الجماهير الإيرانية وراء النظام.

ثبت زيف هذه الصورة للوحدة تحت راية الجمهورية الإسلامية بعد أن أسقط الهجوم الصاروخي الثأري ضد القواعد الجوية للولايات المتحد الأمريكية في العراق طائرة أوكرانية في سماء طهران وقتل كل ركابها (عددهم 176) في 8 يناير.

أثار التصريح الذي أدلى به قائد ال (ح. ث. إ) يوم السبت 11 يناير احتجاجات غاضبة فوريّة من طلبة الجامعة في طهران وفي مدن أخرى. عبر المتظاهرون عن تضامنهم مع حزن عائلات الركاب والطاقم الأبرياء الذين قتلوا في الطائرة. شهروا بـ 40 سنة من تاريخ الكذب/ الخداع الحكومي ومزّقوا صورًا لسليماني داعين لإنهاء الجمهورية الإسلامية والحرس الثوري الإسلامي.

رغم هجمات قوات الأمن بالرصاص والغاز المسيل للدموع والاعتقالات العديدة، أطلق المتظاهرون دعوة للتظاهر مساء الأحد في كل أنحاء البلاد لمناهضة النظام والدفاع عن حقوق النساء وحقوق العمال وحماية البيئة. تجمع الكثيرون بـ "ميدان الحرية" في طهران وفي مدن أخرى مثل مشهد وأصفهان وسنندج وشيراز وبابل وهمدان وأرومية ورشت ويزد وسمنان وجرجان وأراك وزنجان وعبادان والأحواز. في عديد من الأماكن، بادر المحتجون إلى تمزيق وكسر وإزالة رايات الدولة الحاملة لصور سليماني.

من بين الشعارات: "الدكتاتور والـ (ح. ث. إ) "أنتم داعش"، "العدو في الداخل"، "لم نقدم التضحيات لتمجيد المرشد القاتل"، الـ (ح. ث. أ) المشين مصدر عار للبلاد"، الـ (ح. ث. أ) يقترف القتل والمرشد يسانده"، "الموت للدكتاتور"، "نحن من كنا ضحايا "انتقامكم القاسي""، "سليماني قاتل ومرشده فاسد"، "الموت للطاغية، ملكًا كان أم مرشدًا أعلى"، "لا لحكم حراس الدين ولا لحكم الملك"، "الموت لحكم حراس الدين المسؤولين عن سنين من القتل"، "استقالة القائد العام"، "1500 قتلوا في نوفمبر"، "استفتاء، استفتاء"، "نحن من سننقذ أنفسنا"، "خبز، عمل، حرية،

إدارة عبر المجالس"[7].

تحدث بيان جمعية المتقاعدين الإيرانيين عن "التضحية بالأرواح البشرية من أجل أهداف وحسابات المنظومات الحاكمة". كما ألغى عديد من الفنانين مشاركتهم في مهرجان فجر للفيلم والموسيقى الذي قامت بتنظيمه الدولة طيلة الأربعين سنة الماضية في ذكرى ثورة 1979 الإيرانية. كتب أحد الممثلين أنه لا جدوى من المشاركة في مهرجان تشرف عليه الدولة. وكتب آخر أن مشاهد الاحتجاجات في شوارع إيران أقوى من أي أداء مسرحي.

لكن منذ فبراير 2020 أسكت انتشار جائحة الكوفيد-19 هذه الموجة من الاحتجاجات. عرفت إيران واحدة من أسوء حالات الجائحة لأن حكومتها السلطوية تسترت على ظهور المرض ولم تعلم العموم بخطورة الوضع حتى أواخر فبراير. علمت الدولة الإيرانية بانتشار الفيروس قبل انتخابات فبراير التشريعية، لكنها لم تعلن عن ذلك خوفًا من تداعياته على الإقبال على الانتخابات الذي كان من المنتظر أن يكون ضعيفًا. زِدْ على ذلك، أنها رفضت لأسباب أيديولوجية وسياسية واقتصادية وضع مدينة قُمْ، مركزها الديني، تحت الحجر الصحي، كما لم تبادر بإجراء الاختبارات للمشتبه في حملهم للفيروس وللمسافرين[8].

وفي حين أن أغلب المكاتب وأماكن العمل داخل إيران ما زالت تشتغل، قبع ببيوتهم من لديهم القدرة المادية ومن يمكنهم العيش بمدخراتهم المتواضعة. ليس لدى أغلب السكان نفاذ للرعاية الطبية، ولا حتى ما يكفي لتأمين أدنى حاجياتهم الغذائية ولا هواء نقيًّا أو ماء نظيفًا. أما بالنسبة للملايين الذين يعيشون في الأحياء العشوائية والأكواخ، فلم يكن التباعد الجسدي ممكنًا ولا وسائل الحماية الذاتية متوفرة[9].

7- Afary, F., Zekavat, S. and Masjedi, F., 2020. Iran Popular Protests Against Regime Intensify in Response to Iran Downing of Passenger Plane. Alliance of Middle Eastern and North African Socialists, January 13.

8- Daragahi, B., 2020. Separating Fact from Fiction: Assessing Iran's Response to COVID-19. Atlantic Council, April 2.

9- پرويز صداقت. "از بحرانى به بحران ديگر: چشم اندازهايى از دل كرونا" نقد اقتصاد سياسى. 3 آوريل 2020

وحسب عريضة، نُشِرَتْ حديثًا من نشطاء اشتراكيين وعمَّاليين، "يموت الناس بالعشرات يوميًّا في الأحياء العشوائية ويُدفنون دون أي وثائق بعد وفاتهم... نسبة موت الفقراء مهولة لدرجة أن الجثث تُحرَقُ أو تُدفَنُ في مقابر جماعية."[10] تم كذلك نشر صور أقمار اصطناعية لمقابر جماعية من قبل صحيفتي النيويورك تايمز والجارديان[11]. تندلع الآن اضطرابات بالسجون حيث يطالب المساجين بإجازات للمغادرة المؤقتة أو بإطلاق سراحهم من سجون غير صحية تأوي أكثر من 240،000، من بينهم آلاف السجناء السياسيين.

ما هي المرحلة التالية؟ موت أكثر جراء الفقر والمرض والقمع أم إمكانية انتفاضة أخرى؟ حتى نستقرئ الاحتمالات المستقبلية علينا أولًا أن نتمعن في سياق وتاريخ الانتفاضة الأخيرة ونتعرف على الفاعلين ومطالبهم، كما سننظر في نقاط قوة وضعف النضالات الحالية في إيران.

السياق والتاريخ

لا شك في أن الشعب الإيراني يعاني كثيرًا نتيجة للعقوبات الأمريكية القاسية التي فرضتها إدارة ترامب[12]. رغم ذلك يمكن أن نقول الكثير حول أسباب معاناة الجماهير الإيرانية وسياق وتاريخ انتفاضة نوفمبر 2019 - يناير 2020.

يجب فهم الدولة الإيرانية كحالة رأسمالية- دولة عسكرية تشتغل كقوة إمبريالية إقليمية في الشرق الأوسط. بعدَّة أشكال، واصلت هذه الدولة التوجه الاقتصادي العام لنظام بهلوي السابق، أي اقتصادٌ دولتي يتميز بوحدة الصناعة والجيش[13].

10- تراب تركمن. "كشتار اپيدمى كرونا وحشتناک است: حكومت ايران را پاسخگو كنيم." دادخواست، مارس 2020

11- Borger, J., 2020. Satellite Images Show Iran Has Built Mass Graves Amid Coronavirus Outbreak. Guardian, March 12

12- Zekavat, S. 2020. For Iran and the U.S., Public Health Is a Political Weapon. Open Democracy, April 20.

13- Maloney, S., 2015. Iran's Political Economy Since the Revolution. Cambridge University Press.

لكـن منـذ ثـورة 1979 الإيرانيـة، اعتمـد آيـة اللـه الخمينـي وأتباعـه الذيـن أسسـوا الجمهوريـة الإسـلامية خطابًـا مناهضًـا للإمبرياليـة الأمريكيـة. وذلـك بهـدف تدميـر أيّ معارضـة ثوريـة وتقدمية لقمعهـم، ولاسـتيعاب أجـزاء مـن اليسـار الإيرانـي والعالمـي[14]. يرتبـط مـدى مناهضـة النظـام الإيرانـي للإمبرياليـة الأمريكيـة مباشـرة بطموحاتـه القوميـة الفارسـية الشـيعية والرأسـمالية. إذًا فـإن مناهضتـه للإمبرياليـة هـي مـن موقـع الثـورة المضـادة.

بعـد حـرب العـراق (1980-1988)، عندمـا كانـت مداخيـل النفـط وفيـرة، أنفـق هـذا النظـام حصـة مـن العائـدات علـى بنـاء البنيـة التحتيـة والصحـة والتعليـم وأعطـى مكاسـب لجـزء واسـع مـن الطبقـة العاملـة مـا دامـت مذعنـة أمـام أيديولوجيتـه المتشـددة. لكـن مـع مـرور الوقـت صـار مدخـول النفـط يذهـب أكثـر فأكثـر نحـو العسـكرة علـى حسـاب الجماهيـر التـي تُرِكَـتْ فـي فقـر مدقـع.

ليـس هنالـك أرقـام دقيقـة ومؤكـدة حـول الإنفـاق العسـكري لإيـران فـي المنطقة لأنه لا يتسـم بالشـفافية والمسـاءلة. حسـب مسـؤولين فـي الحكومـة الإيرانيـة نفسـها، أنفقـت إيـران أكثـر مـن 30 مليـار دولار علـى تدخلهـا فـي سـوريا[15]. حسـب أريـان طباطبائي، عالمة سياسـة بمؤسسـة راند وباحثـة فـي مدرسـة الشـؤون العموميـة والدوليـة بجامعـة كولومبيـا، أنفقـت إيـران فـي 2019 مـا يُقَـدَّرُ بــ 15 مليـار دولار فـي مسـاندة نظام الأسـد فقـط. تقول طباطبائـي كذلك أن قـوات إيران في سـوريا تجـاوزت 10.000 عنصـر، مـن بينهم فرق قتـال وأكثر مـن 130.000 مقاتلين بميليشـيات من أفغانسـتان والعـراق ولبنـان تمولهـا إيـران[16]. هـذه الأرقـام لا تشـمل ما أنفقـه النظـام الإيراني على

14- Afary, J. and Anderson, K., 2005. Foucault and the Iranian Revolution: Gender and the Seductions of Islamism. University of Chicago Press.

15- Radio Farda, 2020. Iran Lawmaker Says $30 Billion Spent on Syria Must Be Returned. May 20.

16- Tabatabia, A., 2019. Syria Changed the Iranian Way of War and What That Means for a Future Conflict with the United States. Foreign Affairs, August 16.

بنـاء ومسـاندة حـزب اللـه اللبنانـي منـذ ثمانينـات القـرن الماضـي،[17] ولا مـا أنفقـه فـي العـراق لدعـم ميليشـياته والنظـام الطائفـي ذي القيـادة الشـيعية منـذ الاجتيـاح العسـكري الأمريكـي للعـراق فـي 2003[18].

رغـم أن العديـد مـن المحلليـن يتحدثـون عـن "مؤسسـة حكـم ثنائيـة" فـي إيـران - حكومـة الرئيـس حسـن روحانـي ضـد الحـرس الثـوري الإسـلامي (ح. ث. إ.) تحـت قيـادة آيـة اللـه خامنئـي -[19] يقـول الواقـع عكـس ذلـك. إذ يقـع ثمانـون بالمائـة مـن الاقتصـاد الإيرانـي (الـذي يتمثـل أساسًـا فـي النفـط والغـاز والاتصـالات وصناعـة السـيارات) تحـت سـيطرة الـ (ح. ث. إ.)، والـذي هـو علـى أرض الواقـع بمثابـة الجيـش الإيرانـي والمشـغل الأساسـي للنـاس.

يمكـن القـول أن الـ (ح. ث. إ.) هـو الدولـة الإيرانيـة فـي الواقـع. فهـو قـوة لقمـع نضـالات العمـال والشـباب والنسـاء والأقليـات المضطهـدة داخـل إيـران. ويقـود كذلـك تدخـلات إيـران العسـكرية فـي سـوريا والعـراق ولبنـان سـواء كان ذلـك مباشـرة أو عـن طريـق ميليشـياته الأفغانية وميليشـيا حـزب اللـه اللبنانيـة المموَّلـة مـن الدولـة الإيرانيـة. فـي خطـاب علنـي سـنة 2018 قـال الرئيـس حسـن روحانـي بوضـوح أن الحـدود الاسـتراتيجية لإيـران هـي شـبه القـارة الهنديـة فـي الشـرق، والقوقـاز فـي الشـمال والبحـر الأحمـر فـي الجنـوب والمتوسـط فـي الغـرب[20].

إذًا، رغـم كـون إيـران ثيوقراطيـة إسـلامية متشـددة ذات أهـداف توسـعية شـيعية، فـإن تدخلاتهـا العسـكرية فـي المنطقـة كانـت مبنيـة علـى أمريـن: مغامراتيـة ثيوقراطيـة مـن

17- Joseph, D., 2016. Hezbollah: The Political Economy of Lebanon's Party of God. Pluto Press, 288 pp. and
Afary, F., 2017. The Political Economy of Hezbollah: A Book Review. Alliance of MENA Socialists, November 12.

18- Arango, T et al. 2019. Iran Cables: Secret Documents Show How Iran Wields Power in Iraq. New York Times, November 19.

19- Maloney, S., 2015. Iran's Political Economy Since the Revolution. Cambridge University Press.

20- زمانه. " سخنان بی سابقه روحانی: جنگ با ایران مادر همه جنگ هاست. " 31 تیر 1397.

جهـة، وعلـى أهـداف طموحـة وغيـر واقعيـة بتحقيـق مصالـح اقتصاديـة مسـتقبلية مـن جهـة ثانيـة.

إلـى حـدود 2018، الـذي شـهد انسـحاب إدارة ترامـب الأمريكيـة مـن الاتفاقيـة النوويـة مـع إيـران[21] وفرضهـا عقوبـات شـديدة دمـرت الاقتصـاد، كان لإيـران ثانـي اقتصـاد فـي منطقـة الشـرق الأوسـط بعـد تركيـا. لذلـك رأت نفسـها فـي تنافـس مـع العربيـة السـعودية للسـيطرة علـى المنطقـة. مـا زال النظـام الإيرانـي يأمـل أنـه سـيتمكن مـن الخـروج مـن الأزمـة الجاريـة بالاعتمـاد علـى الصيـن وروسـيا ومواصلـة المنافسـة كقـوة إقليميـة عظمـى.

الأزمــة الاقتصاديــة ناتجــة أولًا وأساسًــا عــن تدخــلات إيــران السياسـية والعسـكرية فـي سـوريا والعـراق ولبنـان واليمـن. أنفقـت إيـران أيضًـا مليـارات الـدولارات علـى برامجهـا النوويـة والصاروخيـة[22]. فـوق هـذا، تـم فـرض عقوبـات أمريكيـة جديـدة بعـد انسـحاب إدارة ترامـب مـن الاتفـاق النـووي، مـا أوصـل البـلاد إلـى حافـة الانهيـار الاقتصـادي.

قَلَّصَـتْ هـذه العقوبـات مبيعـات إيـران مـن النفـط مـن 2.5 مليـون برميـل فـي اليـوم إلـى رقـم يتـراوح بيـن 300 و600 ألـف برميـل بعـد يوليـو 2018. منـذ بدايـة جائحـة الكوفيـد- 19 وفـي ظـل التنافـس بيـن العربيـة السـعودية وروسـيا والولايـات المتحـدة لعـرض النفـط بسـعر أرخـص خـلال الكسـاد الاقتصـادي العالمـي، انخفـض الإنتـاج النفطـي اليومـي الإيرانـي إلـى 80،000 برميـل فـي اليـوم[23]. ورغـم أن عقوبـات الولايـات المتحـدة لا تشـمل الغـذاء والـدواء، إلا أن شـمولها للمنظومـة البنكيـة الإيرانيـة يعنـي أنـه لا يمكـن اقتنـاء أبسـط المـواد الغذائيـة والأدويـة. وقـد قصـم ذلـك ظهـر الشـعب[24].

Afary, F., 2018. No To Trump's, Netanyahu's, Bin Salman's Imperialist War Drive Against Iran. -21 Support
Progressive and Revolutionary Opposition to Iranian Regime. Alliance of Middle Eastern and North African
.Socialists, May 11

Rasmusen, S.E., 2020. Iran Satellite Launch Reveals Gains in Missile Program. Wall Street -22 .Journal, May 1

Fassihi, F., 2020. Cheap Oil Poses New Quandary for Iran as It Relaxes Lockdown. New York -23 .Times, April 25

24- زمانه. "المان در تدارک دومین معامله با ایران از طریق اینستکس". 3 اردیبهشت 1399.

بصفتـه رأسـمالية دولـة ثيوقراطـي عسـكري عديـم النجاعـة، إذ يملك الــ (ح. ث. إ). والشـركات المتعاقـدة معـه 80 بالمائـة مـن رأس المـال، فـإن النظـام غيـر مسـؤول أمـام أحـد. حتـى مـن وجهـة نظـر رأسـمالية فقـد أنفـق حصصًـا متزايـدة مـن مداخيـل النفـط علـى مشـاريع عسـكرية لـم تثمـر إلـى الآن أيـة أربـاح[25]. فيمـا يتـم اختـلاس جـزء كبيـر مـن بقيـة المـوارد المتأتيـة مـن بيـع النفـط والغـاز والمـواد البيتروكيميائيـة مـن قِبَـلِ القـادة الحكومييـن ومحاسـيبهم. وهـو مـا يـؤدي إلـى منسـوب عـالٍ مـن الفسـاد داخـل المنظومـة نفسـها[26].

ولذلـك يعانـي الإيرانيـون مـن مسـتويات لا مسـاواة هائلـة. إذ يعيـش أكثـر مـن 60% مـن الــ 82 مليـون نسـمة تحـت خـط الفقـر. 90% مـن عمـال إيـران الــ 13 مليـون هـم عمـال متعاقـدون ذوي حقـوق ومكاسـب محـدودة. وفـي الوقـت الـذي تُقَـدَّرُ فيـه قـوة العمـل الرسـمية بــ 28 مليـون، يعمـل الملاييـن بشـكل غيـر رسـمي دون أي حقـوق. يفـوق مسـتوى البطالـة الحقيقـي الــ 60% [27]. الأجـر الأدنـى الحالـي، 100$ فـي الشـهر (الـذي ينخفـض يوميًّـا بسـبب التزايـد التضخـم)، هـو أدنـى بكثيـر مـن خـط الفقـر الشـديد الـذي يحـدده البنـك العالمـي بــ 240$ لعائلـة متكونـة مـن أربعـة أفـراد.

فـي ربيـع 2019 عانـت أغلـب محافظـات إيـران مـن فيضانـات واسـعة حطمـت وغمـرت فـي العديـد مـن الحـالات البيـوت والمبانـي والطرقـات والأراضـي الفلاحيـة. وحسـب التقديـرات الرسـمية للحكومـة، تكبـدت 269 مدينـة و5148 قريـة أضـرارًا جسـيمة. دُمِّـرَتْ بعـض القـرى بالكامـل وقُتِـلَ مـا لا يقـل عـن 70 شـخصًا. فـي محافظـة خوزسـتان وحدهـا، أكثـر مـن 400

25- .وهابی، مهرداد. "اقتصاد سیاسی "بیماری ایرانی": در آمدی بر شیوه ی هماهنگی ویرانگر. " نقد اقتصاد سیاسی . مارس 2017

26- س. اقبال. "ستاد تنظیم بازار، گستره ای برای فساد دولتی" زمانه. 19 اردیبهشت 1399.

27- زمانه. "اعتراضات ومسائل عمده کارگری در ایران در یک سال گذشته." 29 آوریل 2020.
زمانه. "کارگران و معلمان با یک صدا: برابری ، آزادی و افزایش دستمزد." 11 اردیبهشت 1399.
کاظم فرج الهی. "مطالبات و وضعیت کانونی جنبش کارگری ایران." نقد اقتصاد سیاسی. 30 آوریل 2020.
افزایش 80 درصدی خط فقر خانوارهای چهارنفره در تهران. زمانه. 4 ژوئن 2020.
مهدیه گلرو. "فقر، آمار فقرا و بحران سرپناه در ایران." 4 ژوئن 2020.

ألـف صـاروا دون مـأوى[28]. تمـت خسـارة حصـص كبيـرة مـن المخـزون الغذائـي الفلاحـي والماشـية. تلوثـت خزانـات المـاء الصالـح للشـرب بفيضـان ميـاه الصـرف الصحـي. تتزايـد الأمـراض فـي هـذه الآونـة ويمكـن أن تنهـار الأراضـي المغمـورة فـي بعـض مناطـق طهـران.

رغـم أن قسـوة وتيـرة المنـاخ المتأتيـة مـن التغيـر المناخـي سـبب هـام فـي هـذه الفيضانـات إلا أنهـا ليسـت العامـل الوحيـد. الأسـباب الأساسـية الأخـرى هـي سـنين مـن إزالـة الغابـات بقيـادة الحكومـة لتحويـل الأراضـي الغابيـة لمناطـق بنـاء عقاريـة وتشـييد سـدود لتوليـد الكهربـاء، وأيضًـا بنـاءات قـرب الأنهـار والسـواحل وفـي مسـالك فيضانـات معروفـة[29].

الفيضانـات أيضًـا لـن تحـل مشـكلة الجفـاف الجديـة التـي تعانـي منهـا إيـران، والتـي نتجـت عـن تدميـر مخـزون الميـاه الجوفيـة أو الطبقـات الصخريـة المائيـة والإفـراط الكبيـر فـي اسـتعمالها. إذ تصـب أغلـب ميـاه الفيضانـات فـي بحـر قزويـن أو فـي الخليـج أو بالأنهـار دون أن يتـم امتصاصهـا مـن الأرض أو تعـزز مخـزون الميـاه الباطنيـة. تحولـت الأراضـي الفلاحيـة إلـى مشـاريع بنـاء عقاريـة أو إلـى أراض فاقـدة للتربـة السـطحية وغيـر قـادرة علـى امتصـاص المـاء بطريقـة نافعـة بيئيًّـا[30].

فـي وجـه هـذه التطـورات حاولـت الحكومـة الإيرانيـة إيجـاد طـرق جديـدة لإعـادة بنـاء اقتصادهـا عبـر تحالفـات مـع الصيـن وروسـيا. إذ تسـعى مبـادرة "حـزام واحـد طريـق واحـد" الصينيـة إلـى أن تُقـدِّم لإيـران طريقًـا لمراوغـة عقوبـات الولايـات المتحـدة. وقـد وفـرت اتفاقيـة ثنائيـة ممضـاة فـي خريـف 2019 لإيـران 400 مليـار دولار مـن الاسـتثمارات فـي النفـط والغـاز وتطويـر بنـى تحتيـة أخـرى، كمـا نَصَّـتْ علـى انتشـار خمسـة آلاف عنصـر مـن القـوى الأمنيـة الصينيـة كحـراس للأمـن مقابـل تخفيـض بــ 30 بالمائـة فـي النفـط والغـاز والمـواد البتروكيميائيـة الإيرانيـة. التـزم الطرفـان بالاتفـاق لمـدة 25 عامًـا مـع

28- Afary, F., 2019. Iranian Masses Crushed by Floods, Militarized State Capitalist Regimes and U.S. Sanctions.
Alliance of Middle Eastern and North African Socialists, April 10.

29- نیک آهنگ کوثر. "وقتی دولت متهم اصلی نابودی محیط زیست ایران است." بی بی سی. 19 نوامبر 2019.

30- .رادیو فرانسه، "سیل های اخیر در ایران، ناتوانی و فقدان مدیریت کارآمد جمهوری اسالمی در حوزه آب را نمایان کرد. " 31 مارس 2019 زمانه. "چرا سیل در ایران این چنین گسترده شد؟ گفتگو با اردالن توتچی، پژوهشگر آب های زیرزمینی". 12 فروردین 1398 زمانه. "تغییرات اقلیمی و سیل در ایران: گفتگو با پروفسور ادی مورس" 12 فروردین 1398 ناصر کرمی. وبالگ

تعزيز للاستثمار الصيني كل خمس سنين[31].

زيـادة علـى ذلـك، تـرى إيـران فـي العـراق وسـوريا ولبنـان منافـذًا إلـى البحـر الأبيـض المتوسـط. يمكـن لهـذه المنافـذ أن تعـزز علاقـات إيـران بـرأس المـال العالمـي ومنافسـتها للعربيـة السعودية. يمكـن لذلـك أيضًـا أن يدعـم موقفهـا ضـد إسـرائيل التـي تصارعهـا فـي لبنـان عـن طريـق حـزب الله. تعتقـد إيـران أنـه يمكنهـا تحقيـق منافـع ماليـة مـن عقـود إعـادة إعمـار سـوريا ونفاذهـا لاحتياطـي العـراق النفطـي الضخـم. لكـن مسـتوى الدمـار الشـامل فـي سـوريا وإفـلاس إيـران نفسـها والانخفـاض الحـاد الجـاري فـي أسـعار النفـط تبيـن جميعهـا خـواء هـذا المطمـح[32].

اسـتعمل النظـام الشـعور القومـي الإيرانـي للترويـج لتدخلاتـه العسـكرية وبرامجـه علـى أنهـا مصـدر مجـدٍ وقـوة. يمكـن أن يفسـر هـذا كـون أغلـب الإيرانييـن كانـوا إلـى حـدود السـنتين الفارطتيـن صامتيـن علـى تدخـلات إيـران العسـكرية وبرامجهـا النوويـة والصاروخيـة[33].

لكـن الآن، وبالنظـر للحالـة الاقتصاديـة العصيبـة فـي البـلاد والقمـع الغاشـم لاحتجاجـات نوفمبـر 2019 وجائحـة الكوفيـد- 19 الراهنـة، فهـم أغلـب الإيرانييـن أنهـم يُنهَبـون مـن أجـل خـلاص فاتـورة الحـروب والأسـلحة والبرامـج النوويـة والصاروخيـة الخطيـرة التـي أوصلـت البـلاد إلـى حـد الانهيـار الاقتصـادي[34]. هـم يشـعرون كذلـك بتعاطـف أكبـر تجـاه شـعوب سـوريا والعـراق ولبنـان واليمـن، خاصـة علـى ضـوء الانتفاضـات الشـعبية الأخيـرة فـي لبنـان والعـراق والتـي طالبـت تحديـدًا بإنهـاء التدخـل الإيرانـي فـي هذيـن البلديـن[35].

31- Watkins, S., 2019. China and Iran Flesh Out Strategic Partnership. Petroleum Economist, September 3.

32- Daher, J., The Paradox of Syria's Reconstruction. Carnegie Middle East Center.

33- Ranjbar, O. and Shurmand, A., 2016. Challenging Intellectuals Who Justify Iranian Imperialism. Alliance of MENA Socialists, September 10.
امیر کیان پور. "چپ نئوکان و ناسیونالیسم شیعی: گفتگ و گو با عبدی کالنتری." زمانه 28 آذر 1395

34- سهراب رضایی. "بوی شورش می آید." زمانه. 12 اردیبهشت 1399.

35- Afary, F., 2016. Lessons of the Syrian Revolution for Iranians: A Review of Burning Country. Alliance of MENA Socialists, July 11.

الفاعلون والأساليب.

لـم تمثّـل احتجاجـات نوفمبـر 2019 وينايـر 2020 الجماهيريـة أوّل الانتفاضـات ضـدّ نظـام الجمهوريـة الإسـلامية. آخـر الانتفاضـات الكبـرى كانـت الحركـة الخضـراء فـي 2009، وكذلـك الاحتجاجـات التـي عمّـت البـلاد فـي ديسـمبر 2017 وينايـر 2018.

انطلقـت احتجاجـات 2009 ردًا علـى تزويـر الانتخابـات الرئاسـية التـي أُعلِـن فيهـا الشـعبوي أحمـدي نجـاد فائـزا. تـم إعـلان هزيمـة المرشَّحَيْن الإصلاحيَّيْـن الأكثـر حظـا ميـر حسـين موسـوي ومهـدي كرّوبـي ووضعهمـا فـي الإقامـة الجبريـة حيـث يقبعـان إلـى اليـوم. فـي 2009، كان أغلـب المحتجيـن مـن الطبقـات الوسـطى المدينيّـة (طلبـة ونسـاء ومهنيـون مدينيّـون) المطالبيـن بإصلاحـات مثـل: انتخابـات نزيهـة وتمثيـل برلمانـي

لتغييـر القوانيـن مـن داخـل المنظومـة القائمـة. وكانـت الطبقـة العاملـة حاضـرة فـي تلـك الاحتجاجـات لكـن لـم يكـن لهـا دور قيـادي.

أمـا الاحتجاجـات الجماهيريـة التـي اندلعـت فـي 28 ديسـمبر 2017، وتحولـت لانتفاضـة ديسـمبر 2017-ينايـر 2018، فقـد كانـت غيـر مسـبوقة فـي حجمهـا منـذ الثـورة الإيرانيـة فـي 1979. تَوَّجَـتْ هـذه الانتفاضـة سـنة ونيـف مـن الاحتجاجـات المتنوعـة التـي قادهـا العمـال والطلبـة والنسـاء والمتقاعـدون وعائـلات السـجناء السياسـيين[36]. كانـت الاحتجاجـات ذات مضاميـن اقتصاديـة وسياسـية واجتماعيـة ونبَعـت مـن اسـتياء شـباب متصـل بالعالـم عبـر الإنترنت سـئم الفقـر والقمـع والتمييـز الجنـدري والإثنـي، وكذلـك التمييـز ضـد الأقليـات الدينيـة.

بـدأت الانتفاضـة بسلسـلة مـن التحـركات المناهضـة لفـرض الحجـاب، وشـجعت على توسـعها. كمـا أدت إلـى احتجاجـات عماليـة متواصلـة أكثـر حـدة وإلـى إضرابـات لعمـال قطاعـات القصـب السـكري والفـولاذ والسـكك الحديديـة، وكذلـك الأسـاتذة وسـواق الشـاحنات والممرضـات، إلـى جانـب احتجاجـات طلابيـة ضـد المنظومـة التعليميـة القائمـة وأخـرى ضـد التمييـز للأقليـات المضطهـدة كالكـرد والعـرب (أثنيـا) والصوفييـن.

36- Oveisy, F. and Amini, B., 2018. The Iran Protests: The Revolution is Dead. Long Live the Revolution!. New Socialists, January 10.

تُعَـدُّ انتفاضـة ديسـمبر2017- جانفـي 2018 واحتجاجـات نوفمبـر 2019 وينايـر 2020 انتفاضتيـن للطبقـة العاملـة، وخاصـة للشـباب العاطـل عـن العمـل. كان للنسـاء دور فاعـل جـدًّا، وكُـنَّ بعديـد الحـالات فـي طليعـة الاحتجاجـات. كل هـذه الاحتجاجـات كانـت ذات مـدى وطنـي وشـملت المـدن الصغيـرة والأريـاف. فـي الواقـع حصلـت بعـض أقـوى التحـركات فـي المـدن الأصغـر. ذهـب الـكل إلـى مـا أبعـد مـن مطلـب الإصلاح لينـادي بإسـقاط النظـام. كمـا تـم أيضًـا رفـع شـعارات مناهضـة للتدخـلات العسـكرية الإيرانيـة فـي المنطقـة[37].

العمال:

ممنـوع علـى العمـال فـي إيـران إنشـاء نقابـات مسـتقلة. كانـت هـذه النقابـات أساسـية للإطاحـة بالملـك، الشـاه محمـد رضـا بهلـوي، خـلال ثـورة 1979 وقـد شـكلت مجالسـها لإدارة المصانـع بعـد الإطاحـة بالملكيـة. إلا أنـه سـرعان مـا تـم سـحق هـذه المحـاولات مـن قبـل الجمهوريـة الإسـلامية الناشـئة التـي اسـتبدلتها بنقاباتهـا الإسـلامية وفصلـت وسـجنت وقتلـت العديـد مـن العمـال المناضليـن. كمـا اسـتغلت الحـرب الإيرانيـة- العراقيـة (1988-1980)، التـي شـنها صـدام حسـين، لصـرف الانتبـاه عـن الثـورة المضـادة التـي كانـت تُطلقهـا داخـل إيـران. أكثـر مـن ذلـك، سـعت الجمهوريـة الإسـلامية لاحتـواء العمـال بخطـاب "مسـاندة المضطهديـن" وعبـر إعانـات مـن ريـع الثـروة النفطيـة وبالامتيـازات الذكوريـة.

منـذ بدايـة الألفيـة تزايـدت فاعليـة العديـد مـن النقابـات المسـتقلة، لا سـيما نقابـة طهـران لسـواق الحافـلات، ولاحقـا نقابـة "هفـت تبـه" لعمـال القصـب السـكري (المتواجـدة فـي الجنـوب بمحافظـة خوزسـتان) والنقابـة الحـرة للعمـال الإيرانييـن ونقابـة الأسـاتذة ونقابـة المتقاعديـن. إذ نظمـت خـلال السـنين القليلـة الماضيـة إضرابـات واحتجاجـات وأحدثـت مواقـع علـى شـبكة الإنترنـت وأصـدرت تقاريـر وبيانـات.

37- Smith, A., 2018. The New Resistance in Iran: An Interview with Frieda Afary. Truthout, January 11. and
Oveisy, F. and Amini, B., 2018. The Iran Protests: The Revolution is Dead. Long Live the Revolution!. New Socialists, January 10.

فـي 2018 و2019، جـرت إضرابـات لعمـال سـكك الحديـد وسـواق الشـاحنات واحتـج الأسـاتذة وعمـال الصحـة فـي مختلـف المحافظـات. شـن أربعـة آلاف مـن عمـال الفـولاذ فـي الأحـواز (خوزسـتان) إضرابًـا وأعقبـوه بمسـيرة لهـم مـع عائلاتهـم فـي أرجـاء المدينـة، فهاجمتهـم شـرطة مكافحـة الشـغب واعتقلـت 50 منهـم. كان هنالـك أيضًـا إضرابـات متقطعـة لنقابـة "هفـت تبـه" لعمـال القصـب السـكري ولعمـال النفـط والبتروكيميـاء فـي محافظـة خوزسـتان التـي يسـكنها عـدد هـام مـن العـرب (إثنيـا) الذيـن يتعرضـون للتمييـز. احتُجِـزَ عمـال شـركة إنتـاج المعـدات الثقيلـة هيبكـو فـي أراك (محافظـة مركزي) وتعرضـوا لإيقافـات بعـد أن نظّمـوا العديـد مـن الإضرابـات والاعتصامـات. احتـج كذلـك الحمّالـون (العمـال الذيـن يحملـون السـلع علـى ظهورهـم) الأكـراد فـي الحـدود الإيرانيـة- العراقيـة علـى الإغلاقـات المتكـررة للحـدود لـ "أسـباب أمنيـة".

تمحـورت أغلـب التحـركات العماليـة خـلال السـنوات القليلـة الماضيـة حـول عـدم دفـع الأجـور وغيـاب التأميـن الصحـي وانعـدام الأمـن الوظيفـي. كمـا احتـج الكثيـرون علـى مـا يسـمونه "خصخصـة" المؤسسـات التـي تملكهـا الدولـة وطالبـوا بعـودة الإعانـات التـي كانـت تمنحهـا لهـم شـركات الدولـة. يمثـل غيـاب شـروط السـلامة المهنيـة وتـردي جـودة التعليـم والظـروف المزريـة للرعايـة الصحيـة مشـاكل رئيسـة. يطالـب المزارعـون بحقهـم فـي المـاء لـري مزروعاتهـم وهـم قلقـون جـدًّا مـن النقـص الحـاد لوفـرة المـاء الـذي تسـبب فيـه بنـاء السـدود فـي إيـران، وكذلـك فـي تركيـا وأفغانسـتان، ومـن تحويـل خزانـات المـاء إلـى مـدن أخـرى، إلـى جانـب الممارسـات والسياسـات الحكوميـة المضـرة بالمحيـط. تبـرز مطالبهـم البُعـد البيئـي الهـام للاحتجاجـات العماليـة الجاريـة فـي بـلاد علـى وشـك الانهيـار البيئـي.

أقـل مـا يقـال عـن نضـالات القيادييـن العمالييـن فـي إيـران أنهـا بطوليـة. إذ يتـم رميهـم مـرارًا وتكـرارًا فـي السـجون، حيـث يُضربـون ويُعَذَّبُـونَ ويوضعـون فـي السـجن الانفـرادي. فقـد العديـدون ممتلكاتهـم المتواضعـة إثـر مصادرتهـا مـن الدولـة، نتيجـة لمنظومـة كفالـة يقـدم فيهـا أصدقـاء وعائـلات السـجناء السياسـيين ملكيـة منازلهـم مقابـلاً للإفـراج عنهـم. علـى سـبيل الذكـر، عانـى برويـن محمـدي وجعفـر عظيـم زادة[38]، القيادييـن بالنقابـة الحـرة

38- "جعفر عظيم زاده در دادگاه: غارتگران باید محاكمه شوند نه مدافعان كارگران". اخبار روز ، 3 ژوئن 2020.

الإيرانيـة للعمـال، ويـلات السـجن ويواصـلان إلـى اليـوم دفـع ثمـن باهـظ لتنظيمهمـا العمـال المشـتغلين والمفتقديـن للشـغل، ولارتفـاع صوتهمـا دفاعًـا عـن حقـوق النسـاء ومناهضـة للعسـكرة. عمـال آخـرون مثـل عمـال مناجـم أق درة[39] الأكـراد ورسـول طالـب مقـدم[40] مـن نقابـة سـواق الحافـلات وغيرهـم وقـع جلدهـم بسـبب مطالبتهـم بحقوقهـم الأساسـية.

محافظـة خوزسـتان الصناعيـة والمنتجـة للنفـط جنـوب إيـران كانـت الموقـع الأكثـر نشـاطًا للنضـالات العماليـة والبيئيـة والحقوقيـة. إذ شـهدت إضرابـات عمـال القصـب السـكري بهفـت تبـه (4500 عامـل) فـي شـوش وعمـال شـركة الفـولاذ الوطنـي فـي أهـواز (4000 عامـل) طـوال 2018 و2019 مشـاركة أفـراد عائلاتهـم (نسـاء وأطفـالًا)، وترافقـت بمسـيرات فـي مدينتـي الأحـواز وشـوش واحتجاجـات أمـام مبانـي الحكومتيـن الإقليميتيـن فـي كلتـا المدينتيـن[41]. فـي 18 نوفمبر، تـم إيقـاف 18 عامـلًا مـن عمـال هفـت تبـه، ومـن ضمنهـم قائدهـم إسـماعيل بغشـي والمراسـلة الصحفيـة الشـابة سـبيدة غوليـان. لاحقًـا فـي ينايـر 2019 بثـت التلفـزة الوطنيـة الإيرانيـة برنامجًـا بعنـوان "المؤامـرة المحروقـة"، ادَّعَـتْ مـن خلالـه أنَّ بغشـي وغوليـان "عميـلان لأحـزاب معارضـة أجنبيـة وشـيوعيان". ثـم بُثَّـتْ اعترافاتهمـا القسـرية.

بعـد الإفـراج عنهمـا بكفالـة ثقيلـة، نـدد بغشـي وغوليـان بتلـك الاعترافـات تحـت الإكـراه وفضحـا الدولـة. تـم علـى إثـر ذلـك إيقافهمـا مـن جديـد وحُكِـمَ عليهمـا بمُـدَد سـجن طويلـة. تـم الإفـراج عـن كليهمـا لاحقًـا بكفالـة وهمـا يواصـلان التعبيـر عـن مواقفهمـا الرافضـة لظلـم النظـام.

وفــي الوقــت الــذي تطالــب فيــه الاحتجاجــات العماليــة بتســديد المســتحقات والمنــح وتأميــن الوظائــف والســلامة تواصــل الحكومــة الإيرانيــة فــي "خصخصــة" الشــركات التــي

39- حكم شالق 17 كارگر معدن طالى آق دره اجرا شد. زمانه 25 مه 2016.

40- سركوب فعاالن كارگرى: اجراى حكم شالق رسول طالب مقدم و پرونده سازى عليه جعفر عظيم زاده. زمانه، 3 ژوئن 2020.

41- في يونيو 2018، أصدرت مجموعة من السجناء السياسيين من سجن كوهردشت الشهير قرب طهران بيانا للتعبير عن مساندتهم للعمال المضربين في مصنع هفت تبه للقصب السكري ومصنع فولاذ الأحواز. يقولون في هذا البيان: "مقاومة عمال هفت تبه وفولاذ الأحواز الشرفاء والمثابرين ما هي إلا صرخة غاضبة أخرى من مضطهدي وعمال شعب لم يعد يطيق نهب وقمع حكومة فاسدة. شعب يرى يوميا نهب ثمار عمله الشاق وهو يعاني الفقر والجوع وبؤسا كارثيا حتى تستعمل ثروته لتأجيج نار الإرهاب والحرب أو قمع احتجاجاته، وقد تّعرف في النهاية بشكل صحيح على عدوه. نحن سجناء كوهردشت السياسيون... نعتقد أنه لا يمكن الوصول إلى حل فعلي للقمع والنهب إلا عن طريق انتفاضة وثورة. طريق كهذا يستند لوحدة كل النقابات والقطاعات المضطهدة من المجتمع على مستوى وطني سيقتلع الطغاة والناهبين من جذورهم."

كانت في السابق تحت ملكيتها المباشرة. فهي تمررها إلى شركات متعاقدة معها وتمثل في الحقيقة امتدادًا للدولة والحرس الثوري الإسلامي. لا تقدم هذه الشركات المتعاقدة مع الدولة سوى عقود شغل قصيرة المدى أو شغل من دون عقود ولا منح ولا تطبق قانون الشغل الإيراني الهزيل[42]. ردًا على ذلك طالب عمال القصب السكري في هفت تبه بحقهم في التسيير الكلي أو الجزئي للشركة بأنفسهم.

على النطاق الوطني، يواصل الأساتذة الإيرانيون تواجدهم في طليعة النضالات من أجل الحقوق الاقتصادية وحقوق الإنسان. أضربوا عدة مرات بين 2018 و2019 وطالبوا بتحسين أجورهم ومستحقاتهم البائسة وبالحق في التنظيم والحق في تعليم مجاني للجميع وعدم التمييز ضد الأقليات الدينية والقومية التي يقرون بحقها في تعليم عمومي بلغتها (الكردية أو الأذرية أو العربية). وهم يطالبون بالإفراج الفوري عن قادة نقابة الأساتذة المسجونين مثل إسماعيل عبده ومحمد بهشتي ومحمد حبيبي الذين يقضون عقوبات سجن طويلة بسبب "جريمة" تشكيل نقابة. حصل آخرون على أحكام سجن أقصر أو وقع جلدهم أو تهجيرهم. يتواصل تهديد الأساتذة المضربين بالنفي والتهجير[43].

الأقليات المضطهدة:

لطالما كان للدولة الإيرانية الحديثة علاقة عدائية بالمحافظات التي تكون فيها الأقليات القومية أغلبية. تعرض الأكراد والعرب والبلوش والتركمان للتمييز والاستبداد وحُرموا من أبسط الموارد. غير مسموح للأقليات القومية باستعمال لغتها الأم في التعليم والإدارة. ويعاني أغلبها الفقر وقمع الدولة.

خوزستان، محافظة منتجة للنفط، ذات أغلبية إثنية عربية ومعروفة بنضالاتها

42- زمانه. کارگران اعتصابی زغال سنگ کرمان به بخشی از خواسته هایشان دست یافتند. 12 مه 2020.

43- Afary, F., 2018. What Can U.S. Teacher Protests Learn from Iranian Teacher Protests. Alliance of MENA Socialists, May 19.

زمانه. "پرونده سازی جدید علیه اسمائیل عبدی در آستانه آزادی." 12 مه 2020.

العماليـة هـي أيضًـا موقـع لنضـالات هامـة مـن أجـل حقـوق الإنسـان والبيئـة. أدت المشـاكل البيئيـة التـي سـببها بنـاء السـدود للكهربـاء والتلـوث الـذي تولـده الصناعـات البتروكيميائيـة والإفـراط فـي اسـتغلال مخـزون المياه الباطنيـة مـن أجـل التطـور الرأسـمالي الجشـع، وكذلـك التغيـر المناخـي نفسـه، إلـى تدميـر البحيـرات ولنقـص كبيـر فـي المـاء وتلـوث هوائـي شـديد[44].

فـي ربيـع 2018، وقعـت فـي خوزسـتان احتجاجـات واسـعة على نقـص المـاء والتلـوث الهوائي الشـديد وعـدم احتـرام الحقـوق الثقافيـة واللغويـة لسـكان إيـران العـرب (إثنيًـا). لاحقًـا عندمـا توقفـت الحكومـة الإيرانيـة عـن تحويـل الميـاه مـن نهـر كارون إلـى مدينـة البصـرة العراقيـة فـي سـبيل تهدئـة احتجاجـات خوزسـتان تسـبب ذلـك فـي انقطاعـات فـي التيـار الكهربائـي نتيجـة اختـلال الطاقـة الكهرومائيـة هنـاك، مـا أدى إلـى احتجاجـات فـي البصـرة.

النظـام الإيرانـي شـديد التخـوف مـن تضامـن النضـالات العراقيـة والإيرانيـة فـي مواجهـة المجموعـات الدينيـة المتطرفـة والمتشـددة. فـي 22 سـبتمبر 2018، وقـع هجـوم بالأسـلحة الناريـة علـى اسـتعراض عسـكري إيرانـي بالأحـواز، أسـفر عـن مقتـل العديـد مـن عناصـر الحـرس الثـوري الإسـلامي وأعلنـت مجموعـة انفصاليـة، مـن عـرب إيـران، حركـة النضـال العربـي لتحريـر الأحـواز (ح. ن. ع. ت. أ.)، مسـؤوليتها عنـه. أوقـف النظـام الإيرانـي إثـر ذلـك أكثـر مـن 1000 مثقـف وناشـط حقوقـي وسياسـي ومدنـي وإعلامـي عربـي إيرانـي، وحتـى البعـض مـن زوجاتهـم وأبنائهـم. فـي 10 نوفمبـر 2018، تـم إعـدام 22 مـن هـؤلاء النشـطاء المعتقليـن الذيـن لا صلـة لأي منهـم بــ (ح. ن. ع. ت. أ.)، مـن دون أيـة محاكمـة ودفنـوا فـي قبـور غيـر مُعَلَّمـة[45].

فــي نوفمبــر 2019 انطلقــت الاحتجاجــات أولًا فــي مدينــة الأحــواز بمحافظــة خوزســتان،

44- تكبد النشطاء البيئيون واحدة من أقسى الضربات. في 22 أكتوبر 2018 طعن ناشط حقوق الإنسان والطفولة والناشط البيئي فرشيد هكي حتى الموت خارج منزله ثم حرق على أيادي أعوان للحكومة الإيرانية. خمسة نشطاء بيئيين آخرين نساء ورجال إتهموا بالتجسس ووجهت لهم جريمة "نشر الفساد في الأرض" وهي جريمة تستوجب الإعدام. في فبراير قتل الناشط البيئي وأستاذ علم الإجتماع كاووس سيد أمامي في السجن.

45- Alliance of Middle Eastern and North African Socialists, 2018. Iran Hangs 22 Ahwazis in Mass Executions, Including a Father & his Son, November 23.

حيث قامت قبل ذلك بأسبوع احتجاجات إثر مقتل الشاعر الشعبي المعارض حسن حيدري مباشرة بعد إطلاق سراحه من الإيقاف.

مدينة كرمانشاه ذات الأغلبية الكردية كانت أيضا مسرحًا لاحتجاجات عارمة في نوفمبر 2019. بعض جهات كرمانشاه تضررت نتيجة زلزال أرضي وقع في نوفمبر 2017، ولم يتعافَ السكان بعد بسبب ضعف المساعدات وتباطؤ إعادة الإعمار من قبل الحكومة. وما زال ضحايا الزلزال يعيشون في مخيمات.

يتخوف النظام الإيراني بشدة من النضالات من أجل الحق في تقرير المصير في كردستان الإيرانية، والتي تحمل بُعدًا عماليًّا قويًّا. في 1979 عندما ساند الأكراد الثورة وطالبوا بحقهم في تقرير مصيرهم تم قمعهم بوحشية من قبل الجمهورية الإسلامية الناشئة التي أرسلت جيشها إلى كردستان وأعدمت المئات.

في 2010، قامت دعوة لإضراب عام في كردستان بعد إعدام الجمهورية الإسلامية لفارزاد كامانجار، وهو أستاذ وناشط يساري كردي شاب ومحبوب[46]. في 14 سبتمبر 2018، أُعلن إضراب عام آخر في كردستان الإيرانية ضد إعدام أربعة سجناء سياسيين أكراد، رامين حسين بناهي وزانيار مرادي ولقمان مرادي وكمال أحمدي نجاد، وضد الهجومات الصاروخية الإيرانية على المعارضين الأكراد في شمال العراق.

46- Alliance of Middle Eastern and North African Socialists, 2018. The Ominous Ramifications of the Tehran Summit and the Sochi Agreement Between Russia, Turkey, Syria and Iran, September 23.

النساء:

الأكثـر إصـرارًا فـي نضالاتهـن هـن النسـاء الإيرانيـات. فـي 27 ديسـمبر 2017، قبـل موجـة وطنيـة الامتـداد مـن احتجاجـات الطبقـة العاملـة ضـد النظـام الإيرانـي بيـوم واحـد، وقفـت امـرأة شـابة، فيـدا مفاهـد، فـوق خزانـة كهربـاء أمـام العمـوم فـي شـارع الثـورة الحافـل بطهـران ونزعـت غطـاء رأسـها وربطتـه بعصـى ليـراه الجميـع. كانـت هـذه حركـة فـي منتهـى الشـجاعة فـي بلـدٍ تُجبـر فيـه النسـاء بالقانـون علـى ارتـداء الحجـاب والنسـاء اللواتـي لا يضعـن أغطيـة علـى رؤوسـهن كمـا ينبغـي يمكـن أن يتـم إيقافهـن والتهجـم عليهـن، ويمكـن أن يواجهـن خطايـا ماليـة وعقوبـات بالجلـد والسـجن.

وعلـى خلفيـة نفـس تلـك الحركـة الجسـورة، تـم إيقـاف المئـات مـن النسـاء فـي شـتى أنحـاء إيـران. فـي بعـض الحـالات التحـق بهـن أصدقـاء مـن الرجـال. تـم الإفـراج عـن البعـض منهـن بعـد دفـع كفـالات ثقيلـة، فيمـا رفضـت أخريـات، مثـل نرجـس حسـيني فـي كاشـان، التعبيـر عـن النـدم أو لـم يقـدرن علـى دفـع كفالـة ثقيلـة فبقيـن بالسـجن. وقـد بينـت اسـتطلاعات رأي، نشـرتها الحكومـة نفسـها، أن أغلـب الإيرانييـن يعتقـدون أن الحجـاب يجـب أن يكـون مسـألة خيـار شـخصي.

ليـس محـض صدفـة أن يقـع تحـدي فيـدا مفاهـد للحجـاب الإجبـاري أمـام العمـوم عشـية انطـلاق سلسـلة مـن الاحتجاجـات علـى امتـداد البـلاد للطبقـة العاملـة ضـد الجمهوريـة الإسـلامية. إذ تحملـت النسـاء الإيرانيـات العـبء الأكبـر مـن قمـع نظـام الجمهوريـة الإسـلامية. فهـن يعانيـن مـن التمييـز والعنـف ومـن مكانـة ثانويـة كبنـات وزوجـات وأمهـات وطالبـات وعامـلات وعاطـلات عـن العمـل أو عامـلات بـدوام جزئـي، كمـا يواجهـن تمييـزًا أكبـر إن انتميـن لإحـدى الأقليـات القوميـة أو الدينيـة المضطهـدة. رغـم ذلـك فهـن يمثلـن أيضًـا 60% مـن طلبـة الجامعـة وينشُـرنَ طيفًـا متنوِّعًـا مـن الروايـات ويعبـرن عـن أنفسـهن فـي المدونـات ومواقـع الويـب، كمـا يُقِمـنَ مجموعـات دراسـات ومنتديـات وينشـرن ترجمـات لأعمـال نسـويات حـول العالـم. لهـذا فـإن حركـة فرديـة شـجاعة مـن امـرأة تنـزع غطـاء رأسـها أمـام العمـوم تمثـل شـيئًا أكبـر منهـا كفـرد. فهـي تُعَبِّـرُ أيضًـا عـن وعـي جماعـي لـدى جيـل جديـد مـن النسـاء الإيرانيـات.

قبـل نحـو أربعيـن عامًـا مضـت، فـي 1979، بعـد الإطاحـة بالطاغيـة الشـاه محمـد رضـا بهلـوي بقليـل، احتجـت عشـرات الآلاف مـن النسـاء الإيرانيـات وسـرن لخمسـة أيـام متتاليـة فـي عـدة مـدن حـول البـلاد لمعارضـة مرسـوم آيـة اللـه الخمينـي الـذي جعـل الحجـاب إجباريـا وألغـى الحقـوق المحـدودة التـي أعطاهـا للنسـاء قانـون حمايـة العائلـة تحـت النظـام السـابق. هتفـت النسـاء، "لـم نقـم بثـورة لنعـود إلـى الـوراء". فـي ذلـك الوقـت، كان أغلـب الشـعب الإيرانـي مـا زال يعتقـد بقـوة فـي مزاعـم آيـة اللـه الخمينـي عـن "إقامـة سـلطة المضطهديـن" والعدالـة الاجتماعيـة ضـد النظـام الملكـي والإمبرياليـة الغربيـة[47].

اسـتعمل الخمينـي أيضًـا النظـام الأبـوي والشـوفينية لاسـتمالة قطاعـات واسـعة مـن الرجـال وعديـد النسـاء المحافظـات. علـى سـبيل المثـال أصبـح زواج المتعـة، الـذي كان فـي الواقـع نوعًـا مـن البغـاء، متاحًـا أكثـر ولقـي ترويجًـا كبيـرًا مـن قِبَـلِ الحكومـة. تـمَّ إسـقاط قانـون العائلـة، الـذي سـنَّه النظـام السـابق، والـذي منـح النسـاء بعـض الحقـوق المحـدودة علـى صعيـد الـزواج والطـلاق وحضانـة الأطفـال. زيـادة علـى ذلـك، تـم منـح امتيـازات ومكانـة أكبـر وحريـات أكثـر داخـل نظـام الجمهوريـة الإسـلامية للنسـاء التقليديـات اللواتـي رغبـن فـي أن يصـرن ناشـطات لصالـح النظـام[48].

كان أغلـب الاشـتراكيين الإيرانييـن شـديدي التأثـر بالسـتالينية والماويـة ولـم يناهضـوا مواقـف الخمينـي الرجعيـة والرأسـمالية والشـوفينية والمعاديـة للنسـاء خـلال مرحلـة النضـال ضـد نظـم الشـاه القمعـي، وفـي الفتـرة التـي تلـت الثـورة مباشـرة. عوضًـا عـن ذلـك أدرجـوا كل النضـالات تحـت عنـوان المفهـوم الضيـق جـدًّا "مناهضـة الإمبرياليـة"[49].

سـاعد ذلـك الجمهوريـة الإسـلامية فـي أن تفـرض كليًّـا ثورتهـا المضـادة بحلـول صيـف 1981، عندمـا تـم إيقـاف المئـات مـن الناشـطين اليسـاريين والاشـتراكيين ومـن بينهـم عديـد النسـاء. سـجن الكثيـرون أو أعدمـوا علـى يـد النظـام بيـن 1981 و1988. فيمـا غـادر كثـر آخـرون البـلاد أو أجبـروا علـى الرحيـل.

47- مريم حسين خواه. "تظاهرات شش روزه ای كه حجاب اجباری را به تعويق انداخت." آسو. دسامبر 2018.

48- Janet, A., 2009. Sexual Politics in Modern Iran. Cambridge.
نعيمه دوستدار. "زنان ايران، 40 سال بعد از انقلاب: به عقب برگشتيم." زمانه 16 بهمن 1397.

49- مريم حسين خواه. "سال های نخست پس از انقلاب: ناتوانی جنبش زنان در محافظت از دستاوردهايش." زمانه 30 آذر 1396.

بعد أربعة عقود، ورغم كل الطرق التي قمعتهن بها الجمهورية الإسلامية، تواصل النساء تواجدهن في طليعة النضالات. دفع البعض من أشهر ناشطات حقوق النساء كنسرين سوتوداه ونرجس محمدي وشرين عبادي ثمنًا غاليًا لنضالهن. فهن إما في السجن أو خارجه بكفالات ثقيلة أو في المهجر. النساء السجينات السياسيات مثل كلرخ ايرايى وأتينا دايمي يواصلن رفع أصواتهن بكتابة رسائل مفتوحة والدفاع عن السجينات السياسيات الكرديات مثل زينب جلاليان[50].

الطلبة:

منذ خمسينات القرن العشرين، لعب الطلبة دورًا هامًا جدًّا في النضالات التقدمية والثورية في إيران. خلال ثورة 1979، كان طلبة الجامعة، خاصة اليساريون منهم، إحدى أهم رافعات الثورة التي أطاحت بالشاه. تم أيضًا قمعهم بشدة من قبل الجمهورية الإسلامية التي أطلقت هجوم ثورة- مضادة شامل على اليسار في يونيو 1981 وأغلقت الجامعات لثلاث سنوات (1980 -1983) خلال تطهيرها للجامعة عبر "ثورة ثقافية". أوقف آلاف الطلبة وأُعدموا على يد النظام الإيراني بين 1981 و1988.

في فترة 1999-1998 لعب طلبة الجامعة دورًا مفصليًا في الاحتجاج على اغتيالات المثقفين المعارضين وكانوا أنفسهم محل هجوم شرس من النظام الإيراني الذي ألقى بالطلبة من الشرفات في جامعة طهران. الكثيرون أوقفوا وسجنوا ورفدوا من الجامعة وأصبحوا يُعْرَفُونَ بالطلبة "المُوَسَّمِينَ".

كان للطلبة دور هام في تجذير الاحتجاجات الجماهيرية في ديسمبر 2017- يناير 2018 وفي نوفمبر 2019 ويناير 2020. عند مشاركتهم في الحركة الخضراء في 2009 تمحورت مطالب الطلبة عمومًا حول النهج الإصلاحي واحتساب أصواتهم بعد الانتخابات الرئاسية المزورة. أمَّا خلال انتفاضة ديسمبر 2017- يناير 2018،

50- See open letter from Golrokh Iraee in defense of Kurdish women political prisoners Zeynab Jalalian and Sakineh Parvaneh. May 2020. Alliance of MENA Socialists

فقد ابتدع الطلبة بجامعة طهران الشعار "أيها المحافظون والإصلاحيون، هذه نهاية قصتكم".

في يناير 2020، بادر الطلبة بالاحتجاج على إسقاط الحكومة الإيرانية للطائرة الأوكرانية خلال عمليتها الانتقامية ردًّا على اغتيال الولايات المتحدة لقائد الـ (ح. ث. إ) قاسم سليماني. مزقت الطالبات معلقات جدارية حكومية لقاسم سليماني. أصدر الطلبة بيانات معارضة لكل من النظام والملكيين ومجاهدي خلق (جماعة إيرانية عسكرية تساند الإمبريالية الأمريكية). كما عارضوا كل التدخلات في إيران إلى جانب تدخلات إيران الإمبريالية في المنطقة.

بكلمات الناشطة الاشتراكية الإيرانية سينا زكافات،[51]

"مع تطور الموجة الجديدة من الإضرابات العمالية على مستوى وطني في 2018 و2019 بإيران واصل الطلبة اليساريون لعب دور فاصل في تبليغ صوت ومطالب العمال المضطهدين. كان الطلبة في طليعة مناهضة علاقات المركز- الهامش المتصلبة التي فرضتها الدولة والتي فصلت الطبقات الوسطى المدينيّة عن هوامش البلاد المتخلفة اقتصاديًّا؛ حيث تسكن غالبية الأقليات، وهي المناطق التي تصعد منها الحركة العمالية الجديدة."

تشير زكافات إلى أن أحد أهم المجهودات الإبداعية للطلبة كان بعث صحف ومنصات تواصل متاحة كانت تغطي بانتظام الإضرابات العمالية في كل أرجاء البلاد. طلبة صحافيون تنقلوا إلى أماكن مثل هفت تبة بالأحواز لإجراء حوارات مع المنسقين وتوثيق الإضرابات. الصحيفة الرقمية "جام" (خطوة) أصبحت إحدى أهم المنصات الحاملة لهذه الرؤية. أُسِست في 2016، استعملت الصحيفة تطبيق تيليجرام إلى جانب منصات تواصل اجتماعي أخرى للوصول إلى جمهور واسع ومتنوع. تغطي المجلة مجموعة متنوعة من المواضيع السياسية والثقافية من وجهة نظر اشتراكية وتقدم كتابات نقدية في الاقتصاد السياسي والفن والفلسفة، زيادة على تغطية

51- Zekavat, S., 2019. New Round of Violence Against Iran's Leftist Students and Journals: Free the Editors of Gam. Alliance of MENA Socialists, January 24.

مباشرة للتحركات العمالية في هفت تبه ومناطق أخرى من البلاد.

أعضاء فريق التحرير "جام" سناز اللهياري وأمير حسين محمدي فرد وأصال محمدي وعلي أميرغلي أوقفوا كلهم في 2019 وصدرت بحقهم أحكام طويلة بالسجن. بعد سنة من السجن القاسي تم الإفراج عنهم مؤقتًا بكفالات كبيرة.

من الواضح أن تنوع القوى الشعبية التي تناضل وتُضرِبُ في إيران لأمر مبهر[52].إذ جعل الانهيار الاقتصادي، الذي تسببت فيه أساسًا التدخلات العسكرية بالخارج، والتداعيات الوخيمة للعقوبات الأمريكية القاسية والآن جائحة الكوفيد- 19، حتى العيش المتواضع مستحيلًا لأغلبية الاثنين وثمانين مليون نسمة الذين يعيشون في إيران.

رغم أنه ليس هنالك مثقفون معروفون، اشتراكيون كانوا أو ليبيراليون، في قيادة هذه الحركة، فإن مثقفين مثل المحامية الحقوقية النسوية المسجونة نسرين ستوده، التي لطالما عارضت النظام، والناشطة المناهضة لحكم الإعدام السجينة النسوية نرجس محمدي والسجين الصحفي محمد نوري زاد الذي خرج عن النظام بعد الحركة الخضراء يحظون فيها باحترام واسع. كل النساء والرجال الجامعيون والناشطون الحقوقيون، ومن بينهم نوري زاد، الذين أمضوا الرسالة المفتوحة داعين آية الله الخامنئي للاستقالة ومطالبين بانتقال سياسي للخروج من الجمهورية الإسلامية سُجِنُوا. وأصيب بعضهم بالكوفيد- 19 في السجن[53].

في هذا الوضع المزري يروج الملكيون (مساندو رضا بهلوي، ابن الملك السابق محمد رضا بهلوي، القاطن في المهجر) والقوميون العلمانيون وأيضًا مجاهدو خلق (جماعة إيرانية عسكرية كانت تحظى بقاعدة جماهرية في إيران خلال ثورة

52- أفراد من الديانتين الأقليتين البهائية والصوفية أيضا يتعرضون لهجمات شديدة. قياديون من كلتاهما سجنوا وقتلوا. العمال واللاجئون الأفغان الغير نظاميون الذين يتم استغلالهم كمصدر لليد العاملة بخيسة الثمن كانوا أيضا محل استهداف من عنف الدولة الإيرانية وواجهوا التمييز داخل المجتمع الإيراني ككل.

53- "بيش از 40 سال حبسى براى چهار فعال مدنى" زمانه 12 فروردين 1399.
"احتمال ابتالى امضا كنندگان گيبانيه 14 نفرگ به كرونا. زمانه 25 فروردين 1399.

1979) لأنفسهم كبدائل. العديد من هذه القوى تتلقى تمويلات من الولايات المتحدة تمكنها من امتلاك قنوات تلفزية تُبَثُّ عبر محطات الأقمار الاصطناعية على مدار الأربع وعشرين ساعة ومواقع على شبكة الإنترنت تمكنهم من الترويج لأنفسهم لدى الجمهور الإيراني. الملكيون والقوميون العلمانيون بذلوا مجهودات كبيرة لاجتذاب الجماهير، واعدين باقتصاد رأسمالي ناجع وبالعلمانية والحقوق الأساسية للنساء. حجتهم أن مشكلة النظام الإيراني ليست طبيعته الرأسمالية بل هي متأصلة في سوء الإدارة والثيوقراطية(54). مجاهدو خلق(55) لديهم بعض المساندين داخل إيران. لكنهم على أي حال خسروا الكثير من المصداقية نظرًا لتاريخ تحالفهم مع نظام صدام حسين خلال الحرب الإيرانية- العراقية.

سُمِعَتْ هتافات تقول "شاه رضا، لترقد روحك في سلام" في بعض الاحتجاجات في 2017- 2018 و2019. وعد رضا بهلوي أيضًا بعفو للحرس الثوري الإسلامي إن قبلوا بالعمل معه وساعدوه في افتكاك السلطة. ورغم أن الملكيين يلقون بعض المساندة داخل الشعب الإيراني فإن جاذبية أرضيتهم قائمة على مساندة التدخل العسكري الأمريكي لا على العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان(56). لكن في ظل غياب بديل تقدمي أو ثوري سيكون باستطاعتهم استعمال تمويلات طائلة ومساعدة عسكرية من الولايات المتحدة للظفر بمزيد من الأنصار.

بالنسبة للتقدميين والثوريين، يُعَدُّ أهم عامل يمكنهم البناء عليه الآن هو تغير السياق العالمي والإقليمي. فمن ناحية شجعت الانتفاضات الشعبية سنة 2019، في السودان والجزائر والعراق ولبنان والشيلي والاحتجاجات الجماهرية في هونغ كونغ والإضرابات في فرنسا، الإيرانيين على الانتفاض مجددًا. ومن ناحية أخرى جعل الكوفيد- 19 من الصعوبة بمكان تنظيم احتجاجات. في نفس الوقت، تنحصر

54- مصاحبه رضا پهلوی با ايران اينترنشنال. 11 مارس 2019.

Vahed, H., 2018 Exposing the Mojahedin Khalq and their ‘alternative to the Islamic Republic. -55
.Alliance of MENA Socialists, July 16

56- "پاسخ دهندگان به نظر سنجی زمانه: آبان ماه 98 فريادی برای تحول سياسی ريشه ای بود، اما خود انگيخته و بی ربط به "اپوزيسيون""
زمانه. 2 دی 1398.
آرش سرکوهی. "چرا به جای رضا شاه به نفع محمد رضا شاه شعار می دهند؟" زمانه. 24 دسامبر 2019

الخيارات بالنسبة لأغلبية الناس بين الموت بفيروس كورونا والجوع أو الموت بسبب قمع الحكومة والرصاص. لم تعد الحياة الكريمة خيارًا.

في الآونة الأخيرة أظهرت انتفاضة "حياة السود مهمة" استفاقة لأمريكا الأخرى وخلقت إمكانيات جديدة للتضامن الأممي.

الدروس والتطلعات، نقاط القوة والضعف

من جهة، أزمة مشروعية النظام الإيراني[57] والانهيار الاقتصادي الراهن سيجعلان من الصعب على هذا النظام أن يبقى في السلطة. من جهة أخرى، خلق عدم تبلور بديل اشتراكي إنساني وثوري للاإنسانية الرأسمالية والتشدد الديني وكره النساء والظلم العرقي والإثني والديني فراغًا يفتقد لأي رؤية ملهمة للمستقبل.

داخل اليسار الإيراني، اتسمت النظرة الاشتراكية الضرورية التي تأخذ على عاتقها تحليل وتنظيم يبنيان على انتفاضتي 2018-2017 و2020-2019 ويقدمان بديلاً حقيقيًّا للرأسمالية والنظام الأبوي والشوفينية، بالضعف الشديد. بالمقابل بدأت محاولات جديدة تشق سبيلها، غالبًا من الجيل الشاب من الاشتراكيين الإيرانيين، لمعارضة القومية الإيرانية ورأسمالية-الدولة المعسكرة وللدفاع عن حقوق النساء وحقوق مجتمع الميم وحقوق الأقليات الإيرانية المضطهدة وللتطرق للروابط بين العسكرة وتدهور مستويات المعيشة في الداخل[58].

كان اليسار الاشتراكي نشطًا جدًّا خلال الثورة الإيرانية في 1979 وكان له آلاف من المناصرين. لكنه للأسف كان في معظمه مُكوِّنًا من تيارات اليسار الستالينية

57- نظر سنجى زمانه: شمار "تحريم كنندگان فعال" انتخابات مجلس رو به افزايش است. زمانه. 15 بهمن 1398.

58- كميته عمل سازماندهى: بحران كرونا: يک برنامه عمل. زمانه. 12 آوريل 2020 .
نامه آرش صادقى و بيان ناگفته هاى به مناسبت سالروز اعدام لقمان و زانيار مرادى. زمانه. 13 سپتامبر 2019.
فرنگيس بختيارى. "رهايى زنان: معيار رهايى همگان." نقد. 6 مارس 2020.
مريم رحمانى: "تغريف دگرگونه زنان از رابطه تنانه" اخبار روز. اكتبر 2017.
6rang: Iranian Lesbian and Transgender Network
گزارشى از جلسه نقد و بررسى كتاب ماركس درباره جنسيت و خانواده. اخبار روز. تير 1398
جليل شكرى. "مبارزه با امپرياليسم از مبارزه با استبداد داخلى جدا نيست." نقد، 19 سپتامبر 2019.

والماوية وقطاع أصغر من اليساريين المستقلين. أُعْجِبَ العديد من الاشتراكيين بخطاب الخميني المناهض للإمبريالية ولم يساندوا، أو كانت مساندتهم وجيزة ومحتشمة، للاحتجاجات الجماهيرية الأولى في اليوم العالمي للنساء ضد الجمهورية الإسلامية في مارس 1979. قطاعات صغيرة فقط من اليسار ساندت الأكراد الذين قاموا بانتفاضة في مارس 1979 وطالبوا بحق تقرير المصير وناهضوا توجهات الجمهورية الإسلامية المضادة للثورة. وكانت النتيجة نحو 10،000 عملية إعدام لناشطين أكراد نفذتها الحكومة الإيرانية بين 1979 و1983.

بحلول ربيع 1981 تعرض اليساريون الإيرانيون إلى هجوم شامل من الحكومة. حتى حزب توده، الحزب الشيوعي المدعوم من الاتحاد السوفياتي الذي واصل مساندة النظام إلى 1983 لم يسلم من ذلك. آلاف اليساريين سُجِنُوا وأُعدِمُوا في سنوات الثمانينات.

اليوم أصبح عدد الاشتراكيين الإيرانيين أقل بكثير من جيل 1979، أُجبِرَ العديد من الذين نجوا من السجن والإعدام على الهجرة وتخلوا عن الاشتراكية. على الرغم من ذلك هنالك بعض الاجتهادات الهامة من اشتراكيين وتقدميين إيرانيين في المهجر يديرون مواقع إلكترونية تدعو للفكر الحر وحقوق الإنسان[59]. يواجه الاشتراكيون داخل إيران من خلال العيش تحت دولة بوليسية سلطوية حاجزًا حقيقيًا، ورغم ذلك فهم يقومون بمجهودات شجاعة في ترجمة كتب ومقالات ونشر مقالات في العديد من المواقع الإلكترونية والمدونات[60].

ضِمن الجيل الجديد من الاشتراكيين الإيرانيين هناك اهتمام أكبر بالأبعاد الفلسفية للماركسية وأنواع من الماركسية النقدية تجاه الاتحاد السوفياتي والصين الماوية كمجتمعات رأسمالية- دولة أو مجتمعات تجميعية بيروقراطية. تُرْجِمَتْ إلى الفارسية خلال العشرين سنة المنقضية تشكيلة متنوعة من أعمال ماركس أو لماركسيين

59- See Radiozamaneh.com which has an English page. Other sites in Persian include نقد، اخبار روز، راديو همبستگی

60- نقد اقتصاد سیاسی

إنسانيين ومستقلين[61].

لكـن علـى أيـة حـال يمكـن القـول إن الهنـات الأساسـية للجيـل السـابق مـن الاشـتراكيين مـا زالـت موجـودة داخـل اليسـار الإيرانـي: الدولتيـة والقوميـة الإيرانيـة والذكوريـة.

أولًا: علـى عكـس ماركـس الـذي رأى فـي إلغـاء العمـل المغتـرب والعلاقـات الإنسـانية المغتربة أساسـي المجتمـع الاشـتراكي، بالنسـبة لأغلـب الاشـتراكيين الإيرانييـن مـا زالـت الاشـتراكية تُعَـرَّفُ كمجـرد إلغـاء الملكيـة الخاصـة والأسـواق. لذلـك فـإن امتـلاك الدولـة لـرأس المـال يُنْظَـرُ إليـه كتقـدم وخطـوة خـارج الرأسـمالية، حتـى وإن كانـت الدولـة هـي المشـغل الـذي يسـتخرج فائـض القيمـة مـن العمـال. فـي الأغلـب، لا تذهـب الرؤيـة المطروحـة كبديـل للرأسـمالية أبعـد مـن صيغـة لرأسـمالية دولـة مـع درجـة مـن التفـاوض الجماعـي والإدارة الذاتيـة للعمـال[62]. مـع ذلـك هنالـك محـاولات لمواجهـة هـذه النزعـة مـن ماركسـيين يدافعـون عـن إعـادة قـراءة لماركـس مـن وجهـة نظـر تحليلـه للعمـل المغتـرب، ومـن الذيـن يحاولـون تعلـم دروس مـن الاجتهـادات التاريخيـة لإنشـاء مجالـس عمـال[63]. زيـادة علـى ذلـك نشـر سـعيد رحنيمـا، باحـث أكاديمـي إيرانـي فـي كنـدا وناشـط عمالـي سـابق بإيـران، مجموعـة مـن الحـوارات (بالإنجليزيـة ومترجمـة للفارسـية) مـع تشـكيلة متنوعـة مـن الاشـتراكيين حـول تصورهـم للبديـل عـن الرأسـمالية[64].

61- Among these are Marx's Economic and Philosophic Manuscripts of 1844, a new translation of Marx's Capital volumes 1-3 by Hassan Mortazavi, of Marx's Grundrisse by Mortazavi and Kamal Khosravi and works by Antonio Gramsci, Georg Lukacs, Raya Dunayevskaya.
Mortazavi and I translated Raya Dunayevskaya's Philosophy and Revolution: From Hegel to Sartre and Marxism and Freedom as well as Marx's Concept of the Alternative to Capitalism by Peter Hudis. Farzaneh Raji and I translated Marx on Gender and the Family by Heather Brown

62- مالجو، محمد. ”زنجیره ی انباشت سرمایه در ایران و بحران های ساختاری آن.“ پروبلماتیکا، مهرماه 1395 .
مالجو، محمد، حسین راغفر، فرشاد مومنی. ”نابرابری ها به حد انفجار رسیده اند.“ اخبار روز، 26 فوریه 2017 .
مالجو، محمد. ”پروژه ی اقتصاد سیاسی دولت یازدهم در بوته ی نقد: مناسبات طبقاتی سرمایه داری بدون تولید سرمایه
دارانه.“ نقد اقتصاد سیاسی، 4 اکتبر 2015

63- See articles by Kamal Khosravi on Marx's value theory and by a variety of young intellectuals who offer translations or articles about the concept of workers' control of production and alternatives to capitalism in Naqd (Critique of Political Economy, Fetshism and Ideology). See also articles in Naqd Eqtesad-e Siasi (Critique of Political Economy based in Iran. See the following book by Mohsen Hakimi محسن حکیمی. دگردیسی کمونیسم مارکس از جنبش سرمایه ستیز طبقه کارگر به حزب ایدئولوژیک سرمایه داری دولتی. تهران، 1397

64- Saeed Rahnema: The Transition from Capitalism: Marxist Perspectives. Palgrave, 2016.

ثانيًا: القومية الإيرانية محفورة بعمق في نفسية أولئك الإيرانيين الذين يعتبرون أنفسهم فرسًا. باعتبار أن إيران تتكون أيضًا من أكراد وعرب وأذر وبلوش ولور وتركمان لا يمكن خط أي طريق تقدمي من دون شكل من أشكال الاستقلالية أو تقرير المصير، بما يعترف على الأقل بحق الأقليات في التعلم بلغتهم الأم وحقهم في أن يكون لهم رأي يؤخذ بعين الاعتبار في استعمال موارد مناطقهم. على كل حال، أي حديث في إيران عن الاستقلالية أو تقرير المصير يصنف مباشرة كنزعة انفصالية من أغلب المثقفين الفرس ويقع رفضه.

النزعة القومية الإيرانية كانت أيضًا من بين أسباب الصمت المخجل لأغلبية المثقفين الاشتراكيين الإيرانيين عن تدخل دولتهم العسكري في سورية والعراق ولبنان واليمن. يساند بعض اليساريين بشار الأسد مكررين ادعاء الحكومة الإيرانية أنها تدخلت في سورية لإيقاف داعش وغيرها من المتشددين السُّنَّة[65]. آخرون دافعوا عن الأسد كـ"أهون شرّيْن".

لحسن الحظ، واجه مثقفون يساريون آخرون، مثل محمد رضا نفكار وكارمان متين ويوسف الصرخي وغيرهم، هذه التوجهات وحاولوا فتح أفق جديدة للحديث عن حقوق الأقليات القومية والإثنية في إيران[66].

ثالثًا: الذكورية مترسخة بعمق في المجتمع الإيراني مثل ما هو الحال في أكثر المجتمعات. استغلت الجمهورية الإسلامية منذ نشأتها في 1979 ذلك وقدمت للرجال امتيازات، مثل الزواج المؤقت وإلغاء الحقوق الضئيلة التي كسبتها النساء تحت قانون عائلة النظام السابق. إذًا فحتى الرجال الاشتراكيون الذين يدعون لماركسية لا- دولتية تحررية يصعب عليهم رفض المنافع التي تتيحها لهم الجمهورية الإسلامية في علاقة

65- "آخرين سخنرانى دكتر فريبرز رئيس دانا در دانشگاه امير كبير." تارنماى حزب كار ايران (توفان). 30 آذر 1398.

66- محمد رضا نيكفر. ايدئولوژى ايرانى وسياست هويت. زمانه. 2 مارس 2020
محمد رضا نيكفر: ناسيوناليسم، فدراليسم وحق تعيين سرنوشت. بررسى انتقادى. 4 اوت 2017.
گفتگو با كامران متين: بحران چند اليه ايران واستراتژى ناسيوناليستى جمهورى اسالمى. زمانه 15 اوت 2018.
امير حسن پور در گفتگو با بهنام امينى: حق تعيين سرنوشت ومقوله جدايى طلبى در كانادا وايران. زمانه. 29 دسامبر 2013.
يوسف السرخى. "جنبش كارگرى ومسئله ى تضاد با جنبش ملى خلق عرب". دفاتر البديل 2019.

باستغلال واضطهاد زوجاتهم وعشيقاتهم[67].

طالما لم تُطرح هذه المسائل ولم يتم تجاوزها لن يتمكن الاشتراكيون الإيرانيون من تقديم بديل اشتراكي حقيقي للتحرّر من الرأسمالية والإمبريالية والذكورية والشوفينية.

التضامن الأممي

هذه المسألة، مسألة تشكيل نظرة وأفق للحركة، هي أيضًا ما يفسر الأهمية المفصلية للتضامن الاشتراكي الأممي. هنالك نقاش داخل يسار الولايات المتحدة حول مساندة الاحتجاجات الشعبية في إيران ضد الجمهورية الإسلامية. نبذ البعض الاحتجاجات على أساس أنها عملية تغيير نظام تقف وراءها الولايات المتحدة، فيما تردد البعض الآخر في مساندة انتفاضة ضد حكومة تناهض هيمنة الولايات المتحدة.

واحد وأربعون عامًا بعد ثورة 1979 تواصل هذه المواقف، التي تغطي على الاستغلال وكراهية النساء والتمييز التي تمارسها دول سلطوية باسم معارضة إمبريالية الولايات المتحدة، تغلغلها في جزء كبير من اليسار العالمي. حتى العديد من اليساريين الذين يقرون بسلطوية الأنظمة "المناهضة لإمبريالية الولايات المتحدة" غالبًا ما يُسكِتون الانتقادات الاشتراكية المبدئية محتجين بأن اللحظة غير مناسبة لانتقاد هاته الأنظمة وأنه علينا التركيز فقط على معارضة إمبريالية الولايات المتحدة.

مؤخرا نددت "رسالة ضد إمبريالية الولايات المتحدة"، أمضاها مثقفون يساريون مثل أنجيلا ديفيس وفيجاي براشاد وروبن كيلي وحميد دباشي، بانتفاضة نوفمبر 2019 الجماهيرية في إيران مواصِلَةً على المنوال القديم .نُسِبَتْ الاحتجاجات الأخيرة في إيران إلى "مخبرين من مواليد إيران ومطبِّلين يعملون كموظفين لدى إمبريالية الولايات المتحدة". حاجج أصحاب الرسالة بأن الجماهير الإيرانية لا تريد إلا "الاستقرار" و"الإصلاح" لا تغيير النظام. هذه الادعاءات التي تتضمنها الرسالة

.Afary, J., 2009. Sexual Politics in Modern Iran. Cambridge University Press -67

ببساطة لا توافق الواقع في الميدان.

إثـر ذلـك، حصلـت احتجاجـات قويـة مـن قبـل عديـد اليسـاريين الإيرانييـن وبعـض اليسـاريين العالمييـن، ومـن بينهـا رد مـن الباحثـة الأكاديميـة اليسـارية الإيرانيـة مينـا خـان لار زادة[68]، أجبـرت بعـض الممضيـن علـى سـحب أسـمائهم. وقـد حذفـت الرسـالة الآن مـن الإنترنـت.

ومـن حسـن الحـظ أن هنالـك أكثـر مـن سـبعين شـخصية مـن اليسـار الأمريكـي والعالمـي أمضـوا رسـالة مختلفـة مسـاندة لاحتجاجـات الجماهيـر فـي إيـران[69]. أكثـر مـن مائـة نسـوية اشـتراكية مـن منطقـة الشـرق الأوسـط وشـمال إفريقيـا ومناطـق أخـرى وقعـن أيضًـا رسـالة مسـاندة لانتفاضـات 2019 فـي منطقـة الشـرق الأوسـط وشـمال إفريقيـا[70]. كمـا أمضـت مجموعة مـن الناشـطين العمالييـن رسـالة تعـارض تبييـض النظـام الإيرانـي مـن قبـل مجموعـة كـود بينـك الأمريكيـة المناهضـة للحـرب[71]. لكـن اليسـاريين المبيضيـن للنظـام الإيرانـي مـا زالـوا ينشـرون مقالاتهـم حتـى فـي نشـريات تدعـي الاسـتقلالية مثـل نيـو لافـت ريفيـو[72].

يُفتـرض أن يقـف الاشـتراكيون إلـى جانـب الانعتـاق الإنسـاني وفـي اتصـال عميـق بالجماهيـر المُفقّـرة والمُعانيَـة. ربمـا لـم ترفـع الاحتجاجـات فـي إيـران شـعارات اشـتراكية صريحـة، لكنهـا تشـتمل علـى الطبقـة العاملـة والنسـاء والشـباب والأقليـات المضطهـدة ممـن يعارضـون الاسـتغلال والتمييـز والسـلطوية والتشـدد الدينـي وكراهيـة النسـاء والعسـكرة. يفتـرض أن يدفـع ذلـك الاشـتراكيين إلـى أن يقفـوا إلـى جانـب الاحتجاجـات لا مـع النظـام.

علـى اليسـار الأمريكـي والعالمـي مسـؤولية التواصـل مـع المحتجيـن الإيرانييـن وتحميـل

68- Khanlarzadeh, M., 2019. Anti-Imperialism as an Intellectual Trap. Zblogs, December 6.

69- ROAR collective, 2019. Leftists Worldwide Stand by the Protests in Iran. November 25.

70- Alliance of MENA Socialists, 2019. Statement by MENA Socialist Feminists and Allies on the Popular Uprisings in the Region. November 8.

71- Reimann, J. and Zuur, C., 2018. Open Letter to Code Pink. Oakland Socialist, December 2.

72- Ameli, V., 2020. Sanctions and Sickness. New Left Review, March/April.

النظـام الإيرانـي القمعـي مسـؤولية مجـازره والدعـوة إلـى الإفـراج عـن أكثـر مـن سـبعة آلاف مـن المحتجيـن المعتقليـن، إلـى جانـب المئـات مـن السـجناء السياسـيين القابعيـن فـي السـجون منـذ مـا قبـل الانتفاضـة. علـى عاتقنـا تقـع مسـؤولية تصعيـد النضـالات ومطالـب النسـويات والنشـطاء العمالييـن والبيئييـن والتقدمييـن والمثقفيـن الديمقراطييـن والمجموعـات الأقليـة المضطهـدة مثـل الأكـراد والعـرب (إثنيـا) والبهائييـن والصوفييـن ومجتمـع الميـم[73].

يخشـى النشـطاء الإيرانيـون أن تفـرض الحكومـة حجبًـا جديـدًا للإنترنـت وتقتـرف إعدامـات بالجملـة فـي حـق السـجناء السياسـيين. ويحـذر الناشـطون مـن سـيناريو مشـابه لمـا حـدث فـي 1988 عندمـا تـم إعـدام آلاف مـن السـجناء السياسـيين فـي أيـام قليلـة ودفنهـم فـي مقابـر جماعيـة بأمـر مـن آيـة اللـه الخمينـي. الآن تتـرك الحكومـة السـجناء السياسـيين يموتـون بإبقائهـم فـي السـجن فـي ظـل انتشـار جائحـة كورونـا وتعرضهـم للإصابـة بفيـروس كوفيـد- 19.

لحسـن الحـظ مـا زال لهيـب الاحتجاجـات فـي السـودان والجزائـر حيًّـا، فيمـا لـم تختـف الاحتجاجـات فـي العـراق ولبنـان. روابـط التضامـن بيـن نضالاتنـا بصـدد التشـكل، خاصـة بيـن النسـاء الناشـطات المعارضـات للذكوريـة والعنصريـة والرأسـمالية[74].

هنالـك أيضـا ائتـلاف عالمـي جديـد لمناهضـي السـجن الداعيـن لإلغائـه، وهـو يهـدف لتجميـع جنـوب وشـمال العالـم عبـر خلـق اتصـالات بيـن السـجناء السياسـيين والسـجناء الاجتماعييـن الذيـن هـم غالبًـا ضحايـا الفقـر والعنصريـة والإهمـال[75]. ويؤكـد الائتـلاف

73- Afary, F. and Daher, J., 2019. Call for Solidarity with the Uprisings in the Middle East and North Africa. New Politics, December 16.
Botta, E.W. and Afary, F., 2020. Global Protests Say No War with Iran: Can They Inspire a New Anti-War Movement. Truthout, January 25

74- See livestream dialogues between socialist feminists in the MENA region and beyond on the Alliance of Middle Eastern and North African Socialists website

75- Statement of Purpose of Global Prison Abolitionist Coalition.
Also view this panel: "Toward a Global Prison Abolitionist Movement: Livestream Panel", Alliance of MENA Socialists, April 19, 2020

علـى أهميـة انتفاضـة "حيـاة السـود مهمـة" الجاريـة فـي الولايـات المتحـدة وعلـى مواجهتهـا للعنصريـة وعنـف الدولـة كمدخـل لمرحلـة جديـدة مـن التضامـن بيـن "أمريـكا الأخـرى" والنضـالات حـول العالـم[76].

فـي نفـس الوقـت تسـتغل كل مـن حكومتـي الولايـات المتحـدة وإيـران خطواتهمـا الحربيـة لصـرف النظـر عـن إداراتهمـا الكارثيـة لجائحـة الكوفيـد- 19 فـي بلديهمـا. حـروب مشـتعلة بيـن الولايـات المتحـدة وإيـران أو بيـن إسـرائيل وإيـران أو العربيـة السـعودية وإيـران، وتـدور رحاهـا فـي العـراق ولبنـان وسـوريا واليمـن ويمكـن أن تمتـد إلـى بلـدان أخـرى. كمـا تظـل إيـران جـزءًا مـن الصـراع بيـن الولايـات المتحـدة والصيـن.

ليسـت هـذه المناشـدة للمسـاعدة والتضامـن مـن أجـل الإيرانييـن وحدهـم. بـل هـي مـن أجـل الدفـاع عـن نضـالات مماثلـة ضـد الاسـتغلال الرأسـمالي والعنصريـة والذكوريـة ومعياريـة التغايـر الجنسـي فـي أماكـن أخـرى مـن العالـم. نحتـاج إلـى ربـط نضالاتنـا أمميـا حتـى نتمكـن مـن التقـدم.

شكر:

أود أن أشـكر جـاد صعـب علـى وضعـه لفكـرة هـذا الكتـاب، وعلـى مـا قدمـه مـن توجيهـات واقتراحـات ثمينـة خـلال عمليـة تحريـر هـذا الجـزء.

76- Afary, F., Abbas, S. and Munif, Y., 2020. Standing with Black Lives Matter Protests, Opposing Police Brutality and All Forms of State Violence. World Without Prisons, June 2.

سارة عباس، طالبة دكتوراة في العلوم السياسية بجامعة "فراي" ببرلين، حيث تمارس البحث الأكاديمي والكتابة حول النضال السياسي للنساء تحت حكم نظام البشير في السودان. يمكن الاطلاع على مقالاتها في المجلة الأمريكية (The Nation) تحت اسم سارة محمد، وكذلك في Open Democracy، Discover Society، ومنصات إعلامية أخرى.

فريدا آفاري، مكتبية، مترجمة، ومنتجة موقع Iranian Progressives in Translation وإحدى مؤسِّسات تحالف اشتراكيي الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، حاصلة على ماجستير فلسفة وماجستير في علوم المكتبات والمعلومات. نشرت تحاليل سياسية حول الشرق الأوسط بالإنجليزية والفارسية. كما نشرت مقالات حول: كتاب رأس المال لكارل ماركس، كتاب رأس المال في القرن 21 لتوماس بيكيتي، النسوية الماركسية ونصوص نقدية من زاوية ماركسية لرأسمالية الدولة في الاتحاد السوفيتي سابقًا وفي الصين الماوية. شاركت في ترجمة كتب الفلسفة والثورة: من هيجل إلى سارتر، الماركسية والحرية لـ رايا دونايفسكايا، مفهوم البديل عن الرأسمالية لدى ماركس لـ بيتر هوديس، وماركس حول الجندر والعائلة لـ هيثر براون.

زيدون الكِناني، باحث سياسي مستقل، يحمل الجنسيتين العراقية والسويدية، ومحلل متخصص في مسائل الجيوسياسة، سياسات الهوية، المجتمعات المدنية، وغيرها من القضايا الإنسانية في العراق والشرق الأوسط. يكتب في مواقع Aljazeera English، The New Arab OpenDemocracy، Indus News، Middle East Monitor, وغيرها من المنصَّات الإعلامية. حاصل على بكالوريوس العلوم السياسية والعلاقات الدولية من جامعة ويستمينستر وماجستير في السياسات العامة الدولية من جامعة معهد لندن، وهو الآن طالب دكتوراة في العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة أبردين. يعمل حاليًا في مجال الإعلام والتواصل بالدوحة في قطر.

جُـوِي أيـوب، باحـث وناشـط وكاتـب لبنانـي فلسـطيني، بصـدد إنهـاء دارسـته لنيـل شـهادة الدكتـوراة فـي جامعـة زيـورخ. عمـل سـابقًا كمحـرر لمنطقـة الشـرق الأوسـط وشـمال إفريقيـا فـي موقـع أصـوات عالميـة وفـي شـبكة التبـادل الدولـي لحريـة التعبيـر (آيفكـس). وهـو ناشـر الكتـاب الحـر "عِنَّـاب بلـدي: يوميـات مواطنيـة للانتفاضـة السـورية" ونُشـرت لـه مقـالات فـي مواقـع الجمهوريـة، مبـادرة الإصـلاح العربـي، Mangal Media، RS21، GenderIT، LSE Middle East Blogs، Shado Mag، Addis Standard، Crimethinc، El Diario، و Lebanon Support، كمـا شـارك بمقـالات فـي عـدد مـن الكتـب الأكاديميـة.

حمـزة حموشـان، باحـث وناشـط جزائـري مقيـم فـي لنـدن. هـو أيضًـا معلـق وكاتـب وأحـد مؤسِّسـي حملـة التضامـن مـع الجزائـر والعدالـة المناخيـة فـي شـمال إفريقيـا. انضـم حديثًـا إلـى المعهـد العابـر للقوميـات فـي خطـة منسـق برامـج منطقـة شـمال إفريقيـا. عمـل سـابقًا فـي منظمـات "الحـرب علـى العـوز"، "العدالـة العالميـة الآن" و"أرضيـة لنـدن" علـى قضايـا النمـط الاسـتخراجي، المـوارد، الأرض والسـيادة الغذائيـة، العدالـة المناخيـة والبيئيـة والتجاريـة. ألَّـف ونشـر كتابيـن: الصـراع مـن أجـل الديمقراطيـة الطاقيـة فـي المنطقـة المغاربيـة (2017)، والثـورة القادمـة فـي شـمال إفريقيـا: الصـراع مـن أجـل العدالـة المناخيـة (2015). كمـا شـارك فـي كتـب أخـرى لحسـاب "أصـوات الحريـة"، فرانـز فانـون (2014). وموسـوعة بالغـراف للإمبرياليـة ومعـاداة الإمبرياليـة (2016). نُشـرت لـه كذلـك مقـالات فـي عـدد مـن المنصّـات؛ the Guardian، Middle East Eye، Counterpunch، New Internationalist، Jadaliyya، openDemocracy، ROAR magazine، Pambazuka، نـواة، الوطـن و the Huffington Post.

عـزة مصطفـى، أكاديميـة تـدرس السياسـات العموميـة والعلاقـات الدوليـة، دراسـات الجنـدر، دور المنظمـات غيـر الحكوميـة، والتمهيـد لمنهجية البحث. كانـت كذلك إحدى المنسـقات الأكاديميات لمشـروع "المصوتـون للمـرة الأولـى" المدعـوم مـن الاتحـاد الأوروبـي، والـذي وقع تركيـزه من قبل Future Trends Foundation واسـتهدف ثمانـي جامعـات عموميـة سـودانية، وتـم خلالـه تدريب الطلبـة علـى الديمقراطيـة والمشـاركة السياسـية. وسـابقًا عملت عزة كباحثة مسـاعدة مسـتقلة في حقـول العلـوم السياسـية، الأحزاب السياسـية والديمقراطية، المسـح الأساسـي للتنمية على مسـتوى

القاعـدة، الجنـدر والسـلام، والانتخـاب كحـق أساسـي. وعملـت كذلـك كمديـرة برنامـج تقويـة التـزام المجتمـع المدنـي مـن أجـل الديمقراطيـة والحوكمـة فـي السـودان، الممـول مـن برنامـج المعونـة الأمريكيـة "يـو آس آيـد". نشـرت كتابًـا حـول الديمقراطيـة والأحـزاب السياسـية فـي السـودان والعديـد مـن الورقـات البحثيـة. نالـت شـهادة الدكتـوراة فـي العلـوم السياسـية مـن جامعـة الخرطـوم.

سـلمى عمـري، جزائريـة فرنسـية مقيمـة فـي باريـس. وعضـو بالحـزب الجديـد ضـد الرأسـمالية ومنخرطـة فـي النضـالات ضـد العنصريـة ومـن أجـل التضامـن الأممـي.

جـاد صعـب، كاتـب لبنانـي كنـدي وناشـط بصـدد إنهـاء الدكتـوراة فـي جامعـة غلاسـغو حـول الأيديولوجيـا ومسـار الثـورة الاشـتراكية. وهـو كذلـك منظـم إقليمـي ضمـن الاتحـاد العالمـي للعمـال الصناعييـن.

جدول الاختصارات

السودان

ج. ش. ت. س. - الجيش الشعبي لتحرير السودان

ق. ح. ت. - قوى الحرية والتغيير

ج. إ. و. - الجبهة الإسلامية القومية

ت. م. س. - تجمع المهنيين السودانيين

ق. ج. و. - وقوى الإجماع الوطني

م. ع. إ. - مجلسًا عسكريًّا انتقاليًّا

الجزائر

ق. ع. ع - القيادة العسكرية العليا

العراق

م.و.م. - المجلس الوطني المؤقت

داعش - الدولة الإسلامية بالعراق والشام

ق.ح.ش. - قُوَّاتُ "الحشد الشعبي"

لبنان

م. ت. ف. - منظمة التحرير الفلسطينية

ج. س. ح. - الجيش السوري الحر

إيران

ح. ث. إ - الحرس الثوري الإسلامي

ح. ن. ع. ت. أ. - حركة النضال العربي لتحرير الأحواز

أعقَبَت الموجة الثوريّة، التي هزّت المنطقة الناطقة بالعربية في 2011، حركة رجعية عنيفة. سارَع أغلب المعلّقين إلى إعلان أنّ الربيع العربي قد انتهى إلى شِتاءٍ عربيٍّ. فشلوا بذلك في استيعاب أنّ موجة الصَدام الأولى لم تكن سوى تعبيرًا عن عمق أزمة المنطقة، البُنيَوِيَّة والمتفاقمة مع مرور الوقت. وهكذا انطلقَت موجة ثانية من الانتفاضات في 2018، وغَمَرَت هذه المرّة إيران إلى جانب بلدان ناطقة بالعربيّة. وفيما لدينا وفرة في الكتب التي تناولت موجة 2011، يُعَدّ هذا الكتاب الوحيد في استعراضه الشامل للموجة الثانية من الانتفاضات، وحيثُ يقع تحليلها من وجهة نظر النضال الشعبي.

جيلبير أشقر: أستاذ في معهد الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، ومؤلف كتاب "الشعب يريد": بحث جذري في الانتفاضة العربيّة.

***

عرضٌ ثريٌّ ومُثرٍ للانتفاضات الشعبية التي عمّت أرجاء الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة. يُحَلِّلُ كلُّ مقال بعناية الحركات السياسية والقوى المتصارعة المنخرطة في تلك الانتفاضات، ومُمَوْضعًا إيّاها في إطار النظام العالمي الأوسَع. بعد ما يُقارب العشر سنوات على اسقاط رؤوس الديكتاتوريّات في تونس ومصر، يُعَدُّ هذا الكتاب بمثابة وصيَّة قويّة للجيل الجديد من الناشطين الذين يواصلون السعي وراء تغيير ثوريّ طويل الأمَد في المنطقة.

آدم هنيّة: أستاذ دراسات التنمية، ومؤلف كتاب "جذور الغضب: حاضر الرأسمالية في الشرق الأوسط" (دار صفصافة للنشر، 2020).

المحرر

جاد صعب، كاتب لبناني كندي وناشط بصدد إنهاء الدكتوراة في جامعة غلاسغو حول الأيديولوجيا ومسار الثورة الاشتراكية. وهو كذلك منظم إقليمي ضمن الاتحاد العالمي للعمال الصناعيين.

Cover design by: Alaa Elnewehy





